

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00853 8831

DI
83
H
19
V.

00-B7908

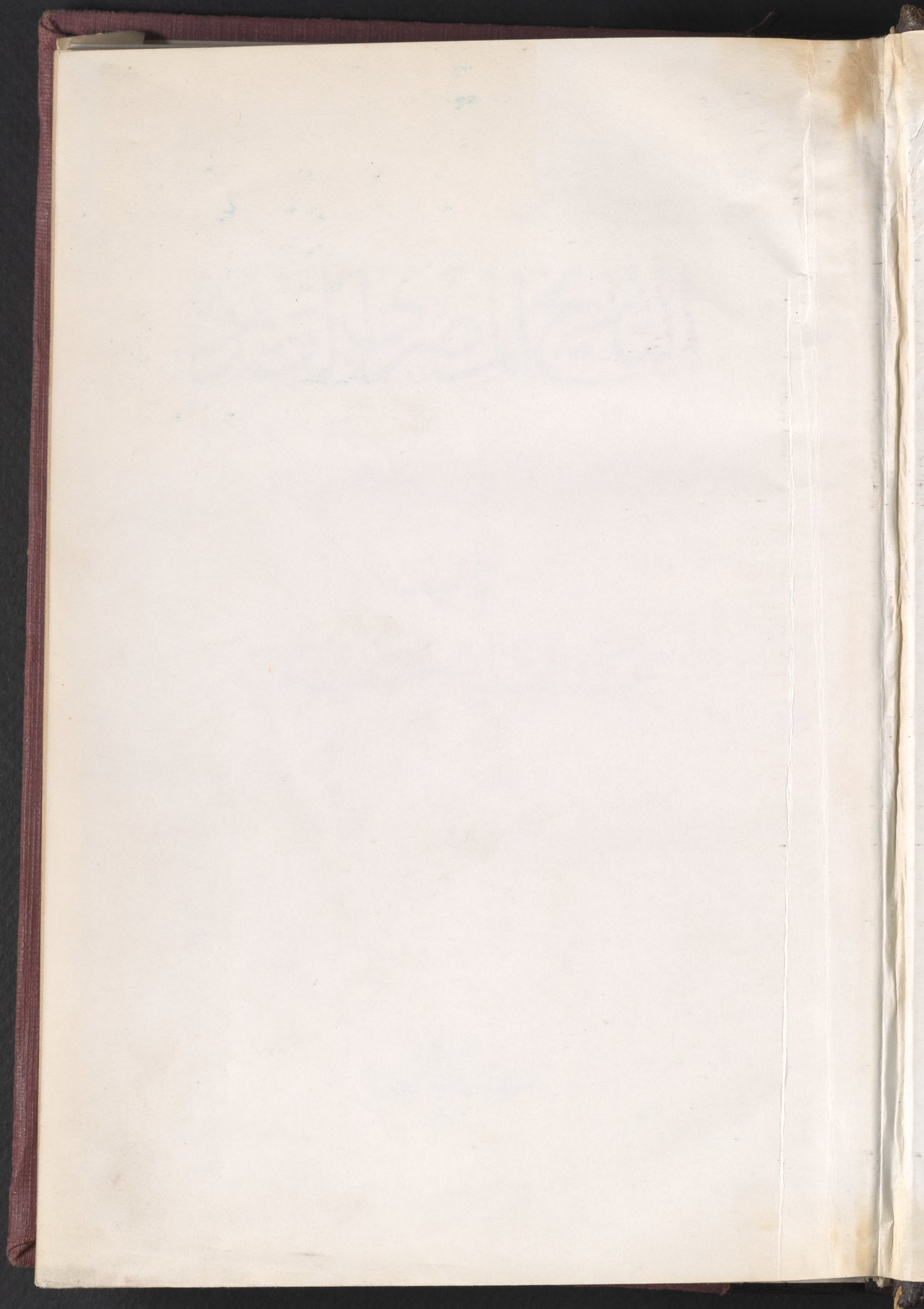
pw 15-11-00

+



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



u
(hau)

SITY

الجا

كتاب المجلد
٤

Hamzah, 'Ahd al-Qādir
(Pasha)

عَلِي هَامِش

DT

83

H2X

1940

v.1

التَّارِيخُ الْمِصْرِيُّ الْقَدِيمُ

'A lā Hāmish al-Tārikh
al-Misri al-qadim

تأليف

عَبْدُ الْقَادِرِ حِمَزَه بَاشَا

٤٤

11115

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٠

مكتبة الأملج المصرية

٣٥ شارع قصر النيل بمصر

Patric Volume II ①

١٥٠٠ (١٠٠٠) (١٠٠٠)



SITY

كتاب في التاريخ

93/2
H/89

٩٣٢
٢٣٠٦
٢١

الجا

21419

كتاب في التاريخ
١٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه الكريم

زرت الأقصر في سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك «توت عنخ أمون» الذي كان مستر هوارد كارت^(١)، قد اهتدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون^(٢)، فزرت في الوقت نفسه كثيرا من قبور وادي الملوك ووادي الملكات وزرت الدير البحري ومعبد الكرنك. وكنت نازلا في فندق «ونتر بالاس» فمررت بمعبد الأقصر رائحا وغاديا ولكني لم أجشم نفسي عناء دخوله. ووقع في يدي وأنا في الفندق كتاب «طيبة» Thêbes للستاذ «كابار»^(٣) وقيل لي إن ثمنه مائتا قرش فترددت في شرائه، ولكني اشتريته. ثم عدت إلى القاهرة وفي نفسي من ذلك كله أثر غامض. وقرأت الكتاب فخيّل لي أن الآثار التي مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظري رويدا رويدا، وأن الحياة أخذت تدب فيها، فتحدثني عن مجد عجبت من أنني لم أجد في مدارس الحكومة التي تلقيت فيها تعليمي في جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث في الذهن فكرة عنه.

وحفزني ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى فزرتها في سنة ١٩٢٦، ولكن الزيارة في هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشيء من حياة طيبة، فكان يهيمه أن يدرس ما فيها من الآثار. وعدت من هذه الزيارة وقد ازدادت شغفا بمصر القديمة، فأحسست رغبة قوية في زيارة المتحف المصري، مع أنني كنت قد زرته من قبل مرتين، فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها في نفسي معنى جديد.

(١) توفي مستر كارت منذ عامين. (٢) توفي اللورد كارنارفون منذ عدة سنوات.

(٣) J. Capart هو مدير معهد الآثار المصرية في بروكسل.

(١) وتكررت زياراتي للآثار، وانكبت على المؤلفات التي وضعها علماء المصروولوجيا^(١) فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر في عيني وكأنني أمتلئ بذلك زهواً، وأخذتني الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذي يعرفه الأجانب، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذي يبذله لها الأجانب، ولا نغرم بمجدها وتقصى خفاياه هذا الاغرام الذي يقبل عليه ويرتاح له الأجانب .

وكان من الضروري أن أقرأ هذه المؤلفات، أو بعضها على الأقل، مرة وثانية، بل ثالثة في بعض الأحيان، فلم أجد في ذلك كلفة، ولم ينقص التكرار شيئاً من متعتي بالقراءة، لأنني كنت أفهم في الثانية ما يفهم على في الأولى، وأنفذ في الثالثة إلى ما يغيب عني في الثانية .

وانقضت سنوات وجاءت سنة ١٩٣٤ فكتبت في «البلاغ» رسائل في تاريخ مصر القديم كانت لي تجربة أولى، ثم جذبتني القراءة وشواغلي الصحفية فانصرفت إليهما . ثم حانت فرصة في سنة ١٩٣٨ فكتبت في «البلاغ» رسائل أخرى كانت تجربة ثانية . واليوم رأيت أن أخرج كتابي هذا فأجمع فيه بعض ما كتبت من قبل، بعد تعديله وتنقيحه، ثم أضيف إليه بحوثاً أخرى .

وتاريخ مصر القديم بحر خضم، لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر، فليس يوفى حقه في كتاب ولا في كتب . وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية في سنة ١٨٢٢ ميلادية، مئات من الكتب^(٢)، وهم إلى اليوم كلما كتب

(١) يجعل العلماء درس الآثار المصرية القديمة والتاريخ المصري القديم علماً مستقلاً يسمونه «إيجبتولوجيا» نسبة إلى «إيجبت» أي مصر . فكلمة «مصروولوجيا» هي إذن تسمية صحيحة للعلم الخاص بتاريخ مصر القديم .

(٢) أماي وأنا أكتب هذه الكلمة جدول بالمؤلفات التي وضعت عن مصر القديمة وتاريخها منذ خمسين سنة فقط باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية يصل العدد فيه إلى ما يقرب من ألف مؤلف . وهذا عن أمهات المؤلفات فكيف بغيرها .

واحد منهم وجد جديدا، وكلما ضربت فأسه في أديم مصر خرجت بجديد. فلا مناص
من أن أكتفى في كتابي هذا بأطراف، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف
بأطراف وأطراف .



وقد قصصت قصتي هذه في انسياقي إلى التاريخ المصرى القديم لأننى أعرف
أن شيئا منها يوشك أن يكون صورة لما ينشأ عليه — مع الأسف — جميع
المصريين . فهم يجهلون هذا التاريخ لأنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير
أشياء ضئيلة مبهمة، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون في هذا التاريخ مؤلفات
عربية تجذبهم إليه^(١)، وتسد النقص الذى اعترى تربيتهم الأولى فيه . وهكذا ينشأ
المتعلمون منا وكل الذى يعرفونه من تاريخ مصر القديم لا يزيد في مجموعه على
ما يعرفونه عن اليابان في آسيا أو عن كندا في أمريكا . وقد يعرفون عن إنجلترا
أو عن فرنسا في ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع
الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة، ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا
وغدنا، والانسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمره كالنبات الغريب ينمو ثم يموت
وكأنه لم يوجد .

والآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا
التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محيٍ للشعور

(١) لا يفوتنى هنا أن أشير إلى المؤلفات التى تركها العالمان أحمد كمال باشا وأحمد نجيب بك وهى
مؤلفات نافعة في ذاتها ولكنها صارت قديمة فصار الانتفاع بها محدودا . ولا يفوتنى أن الدكتور حسن
كمال عرب كتاب « تاريخ مصر » للعالم (J. H. Breasted) وهو من الكتب النفيسة في موضوعه .
ولا يفوتنى أخيرا أن بعض الموظفين في المتحف المصرى أصدروا في السنين الأخيرة كتبنا عاجلوا بها
نواحي من التاريخ المصرى القديم . ولكن هذا التاريخ محتاج إلى عشرات وعشرات من الكتب لإلى هذا
العدد القليل منها .

بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذى دفع بالانجليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، إلى أن يخرجوا منه تاريخ مصر القديم ، أو بعبارة أدق إلى أن يحيلوه فيه شيحا بغير روح . ولكن هذه السيطرة رفعت منذ سنين ، وصار لنا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم ، فحقا إنه لتقصير منا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

وأنا أعرف أن علم الآثار صار يدرس فى جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين ، وأن وزارة المعارف بعثت وقتا ما بعثة إلى ألمانيا تخصص أفرادها فيه ، ولكن أين هذا من العناية الواجبة بالتوسع فى تدريس التاريخ المصرى فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وأين هذا من مئات المؤلفات التى يجب أن توجد فى هذا التاريخ باللغة العربية .

إن الناشئ فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى ألمانيا أو فى غيرها من البلاد الراقية ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، وينمتبعا لذلك الشعور بالقومية ، وتتربى أو تقوى فضائل الإقدام وسمو النفس ومجادة المخاطر والميل إلى طيب الأحداث . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها سواء أكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ متاعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومى أول عامل فى تربية الفضائل النفسية وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هذا الشئ سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث إلى النفوس حدثا يقومها ويربى الفضائل فيها .



وقد ذكرت الخرافات والأخطاء التي تشوّه التاريخ المصري ، فأذكر هنا أن الخرافات هي الصورة التي يغلب أن ترسم في الذهن كلما ذكر المصريون القدماء ، وذلك لأن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها ، في ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد ، شخّنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم في ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، لأنهم لم يفهموا ما شاهدوه أو لأنهم يريدون أن يثيروا دهشة قرائهم بما يقصونه عليهم من المبالغات والعجائب . يضاف إلى ذلك أن المصريين أنفسهم كانوا حينما زارهم أولئك الكتاب قد سقطوا في هوة الضعف والجهل فصاروا ينظرون إلى أجدادهم السالفين نظرهم إلى حلم بعيد غريب ، وصار من أسهل الأشياء لديهم أن ينسجوا حول هذا الحلم نسيجاً من الأوهام والخرافات . وهؤلاء المصريون هم الذين أصغى إليهم أولئك الكتاب ونقلوا أحاديثهم عن عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، أى عن عصور كان قد مضى على الأولى منها ٣٥٠٠ سنة أو أكثر ، وعلى الثانية منها ٢٥٠٠ سنة أو أكثر ، وعلى الثالثة منها ١٥٠٠ سنة أو أكثر ، فكان من الطبيعي أن يختلط بهذه الأحاديث كثير من الأغلاط والخرافات .

وهذه الكتابات التي كتبها الكتاب اليونانيون والرومانيون أمثال هيكاتي دى ميلى وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلي وكليمان الاسكندري وبلوترك ، كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب ، أى مدى أربعة عشر قرناً ^(١) . فلم يكن العالم يعرف مصر القديمة في مدى

(١) من سنة ٣٩١ بعد الميلاد ، وهي السنة التي أصدر فيها الأباطور الروماني تيودوز الأول أمره بإقفال المعابد الوثنية المصرية ومطاردة الكهنة المصريين واللغة المصرية ، إلى سنة ١٨٢٢ وهي السنة التي كشف فيها شامبوليون الشاب سر اللغة المصرية .

هذه المدة الطويلة إلا من خلال ما تركه أولئك الكتاب . وهكذا علق بها عنده الخرافات المعزوة إليها ، ثم أضاف الخيال إليها خرافات أخرى ، فصارت صورة مصر لا تخطر على البال إلا خطرت معها مجموعة كبيرة من الخرافات . ولم يزل الأمر كذلك حتى كشف شامبوليون اللغة المصرية وأخذ العلماء يقرأون ما على الآثار في مصر من النقوش وما في أوراق البردى من الكتابات ، فيجدون فيها مصرا تختلف عن مصر التي ألف العالم صورتها المشوهة ، أربعة عشر قرنا . وقد قضت بحوث هؤلاء العلماء على جانب من هذه الصورة المشوهة وما زالت في سبيل القضاء على جانب آخر منها .

وحيثما أقول إن بحوث العلماء قضت على جانب من الصورة المشوهة ، أريد صورة مصر عند الأجانب ، لأن هؤلاء الأجانب قرأوا ويقرأون ما كتبه علماء المصروlogia الألمانيون والانجليز والأمريكيون والفرنسيون والاطاليون والبايجيكيون ، أما مصر عند المصريين فلا تزال صورتها المشوهة على ما هي عليه ، ولا بد أن يمضي وقت قبل أن تزول . ومتى زالت فسيعرف المصريون أن المدنية المصرية التي يجعلها كثير من الباحثين أولى المدنيات جميعا ، والتي عاشت أربعين قرنا أو تزيد ، لم تقم على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة ، بل قامت على أساس علمي وخلق هو الذي اقتبس منه منها المدنيات الأخرى بعد ذلك وأخذت تسير في نوره وتزيد عليه .

وسأعرض لهذا الأساس العلمي والخلق في بعض بحوث هذا الكتاب . وسأعرض أيضا لبعض ما يدعى على مصر ظلما من الخرافات والعقائد الفاسدة . ولكني أقول هنا إن المدنية التي بنت الاهرام ، وشيدت معابد الكرنك والأقصر والدير البحري والرمسيوم ومدينة هابو وإدفو ، ونحنت مقابر سقارة ووادي الملوك ، وخلفت تماثيل من كل نوع ما زالت تعتبر آية في النحت والتصوير ، وصنعت الزجاج ، وصاغت الذهب والفضة والنحاس ، ووضعت أول أساس علمي

للكيمياء والطب ، وكان فيها بشهادة هيرودوت أطباء متخصصون في كل نوع من أنواع الأمراض ، ووضعت التقويم الشمسي وكانت أول مدينة عرفت علم الهندسة

(١) أكثر العلماء على أن المصريين هم أول من عرف علم الكيمياء . ويرون أن كلمة « كيمياء » مشتقة من الكلمة المصرية « كيمي » التي كان المصريون يطبقونها على مصر والتي معناها الأرض السوداء . والمقصود بالأرض السوداء هنا الأرض التي انتزعها النيل من أرض الصحراء الرملية وجعلها بطاميه سوداء صالحة للزراعة .

وفي هذا يقول (A. Moret) في كتابه (Le Nil et la Civilisation) في صفحة ٥٢٧ ما يأتي :
« إن علم العقاقير يقودنا إلى أعمال التحضير في المعامل الكيماوية ، وهنا نجد أنفسنا في ميدان مصرى محض حتى أن الكيمياء مدينة باسمها لاشتقاقه من كلمة « كيمي » التي معناها الأرض السوداء » .

(٢) نذكر هنا ما كتبه هيرودوت في هذا . قال :
« الطب عند المصريين مقسم كما يأتي : كل طبيب يعالج مرضا واحدا لاجملة أمراض ، والأطباء يملأون كل مكان . فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم لأمراض الأسنان ، وبعضهم للأمراض الباطنية ، وبعضهم للأمراض التي لا يعرف لها مكان معين » .
وقد نقلنا هذا النص من كتاب هيرودوت عن مصر ، وهو الجزء الثاني من التاريخ العام الذي وضعه . والترجمة التي اعتمدنا عليها هنا والتي سنعمد عليها في كل ما سننقله عن هيرودوت في كتابنا هذا هي الترجمة الفرنسية التي أصدرها في سنة ١٩٣٦ (Ph. E. Legrand) الأستاذ بجامعة ليون بفرنسا . وهي آخر الترجمات . وقد طبعها صاحبها وطبع الأصل اليوناني معها صفحة فصفحة ليتمكن الذين يعرفون اللغة اليونانية القديمة من مقابلة إحداهما بالأخرى .

والفقرة التي عربناها هنا هي الفقرة ٨٤ ص ١٢٠

ويجب أن نقول هنا إن ماسبيرو عرض لهذا الموضوع في كتابه : (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient) فأظهر شكه في أن يكون الطب قد تقدم عند المصريين إلى هذا الحد ولكنه لم يقدم دليلا ينقض به هذه الرواية التي روى بها هيرودوت ما شاهده بعينه . ولعل ماسبيرو بنى شكه هذا على أوراق البردى التي كانت معروفة ومترجمة قبل وفاته ، والتي كانت منها أوراق خاصة بالطب والسيحر والتعزيم ، ولم تكن منها الورقة التي سميت « ورقة نيويورك » أو « ورقة إدوين سميث » . ولو أن ماسبيرو عاش حتى اطلع على ترجمة هذه الورقة لاعترف بتقدم الطب عند المصريين ، وبأنه تقدم على أساس علمي كما أثبت ذلك برستيد الذي ترجم تلك الورقة ودرسها درساً مستفيضا بعد وفاة ماسبيرو بضع سنين .

وبرعت فيه^(١)، وأول مدنية اهتمت الى الكتابة، وأول مدنية صنعت الورق وكتبت عليه، أقول إن هذه المدنية التي عرفت كل هذا، وعرفت الله والآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار، لم يكن لها أن توجد ولا أن تعيش أكثر من أربعين قرنا، وهي قائمة على أساس من الخرافات، بل وجدت وعاشت هذه القرون الطويلة لأنها قامت على أساس علمي وخالق صحيح .



ويحسن أن أسارع هنا إلى كلمة في شأن الخرافات والعقائد الفاسدة . فلست أنكر أن هناك آراء وعقائد كان المصريون القدماء يظنونها صحيحة، والآن — أي بعد بضعة آلاف من السنين تقدمت فيها خبرة الانسان بالحياة وتقدمت العلوم — يتضح لنا أنها غير صحيحة . لا أنكر هذا ، وهو لا يعيب مصر القديمة ، وقد وجد أكثر منه في المدينيات التي عاصرتها ، بل في المدينيات التي تلتها ، ولا يزال بعضه موجودا إلى اليوم . والأمة التي تنشئ أول حضارة في العالم هي أمة يبدو العقل فيها في حالة الطفولة ثم يتدرج في النمو خطوة خطوة . فليس يغض من مصر القديمة

(١) تكلم هيرودوت في الفقرة ١٠٩ من الجزء الثاني من تاريخه العام عن إنشاء الترع والقنوات في مصر وتقسيم الأراضي الزراعية فيها ثم قال :

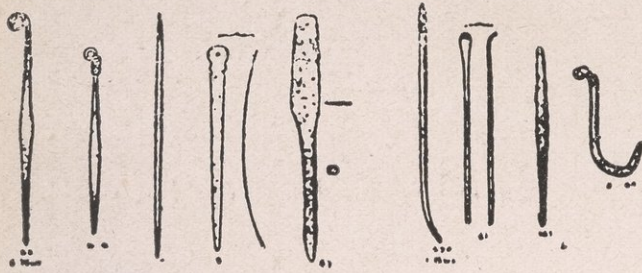
« وهذا في رأيي هو السبب في اختراع علم الهندسة الذي نقله اليونانيون إلى بلادهم » . ويؤيد موري هذا الرأي في كتابه (Le Nil et la Civilisation) ص ٥١٩ ثم يقول :

« يؤخذ من كلام هيرودوت أن علم الهندسة نشأ في مصر من الضرورة التي قضت بتقسيم الأراضي الزراعية في مصر تقسيما منظما . وعلى كل حال إن النظام الاجتماعي في وادي النيل قضى منذ العصور الأولى بايجاد قواعد ثابتة تكون دعامة للقاسات » .

ومن هذا الرأي أيضا العالم الانجليزي (Griffith) في بحث قدمه في سنة ١٨٩٢ للجمعية الأثرية في لندن .

ومن هذا الرأي أيضا العالم الألماني (Brugsh) في كتابه المصولوجية ص ٣٧٠ وعلماء آخرون .

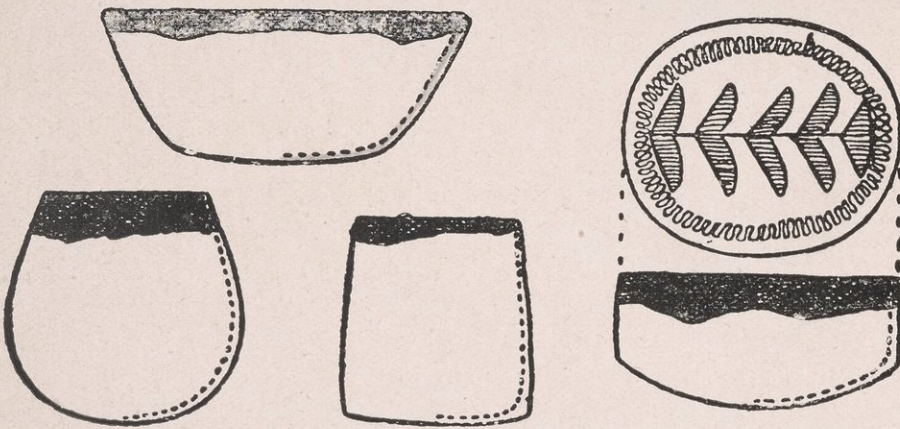
(لوحة رقم ١)



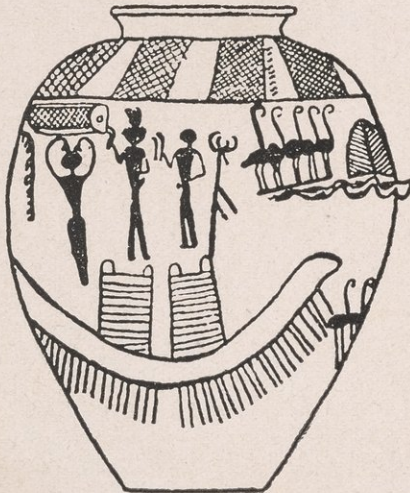
أدوات من النحاس وجدت في مقابر نقادة وترجع إلى ما قبل
عصر الأسر . وهي دبابيس وإبر وصنارة (أنظر ص ٥٥ و ٥٥)



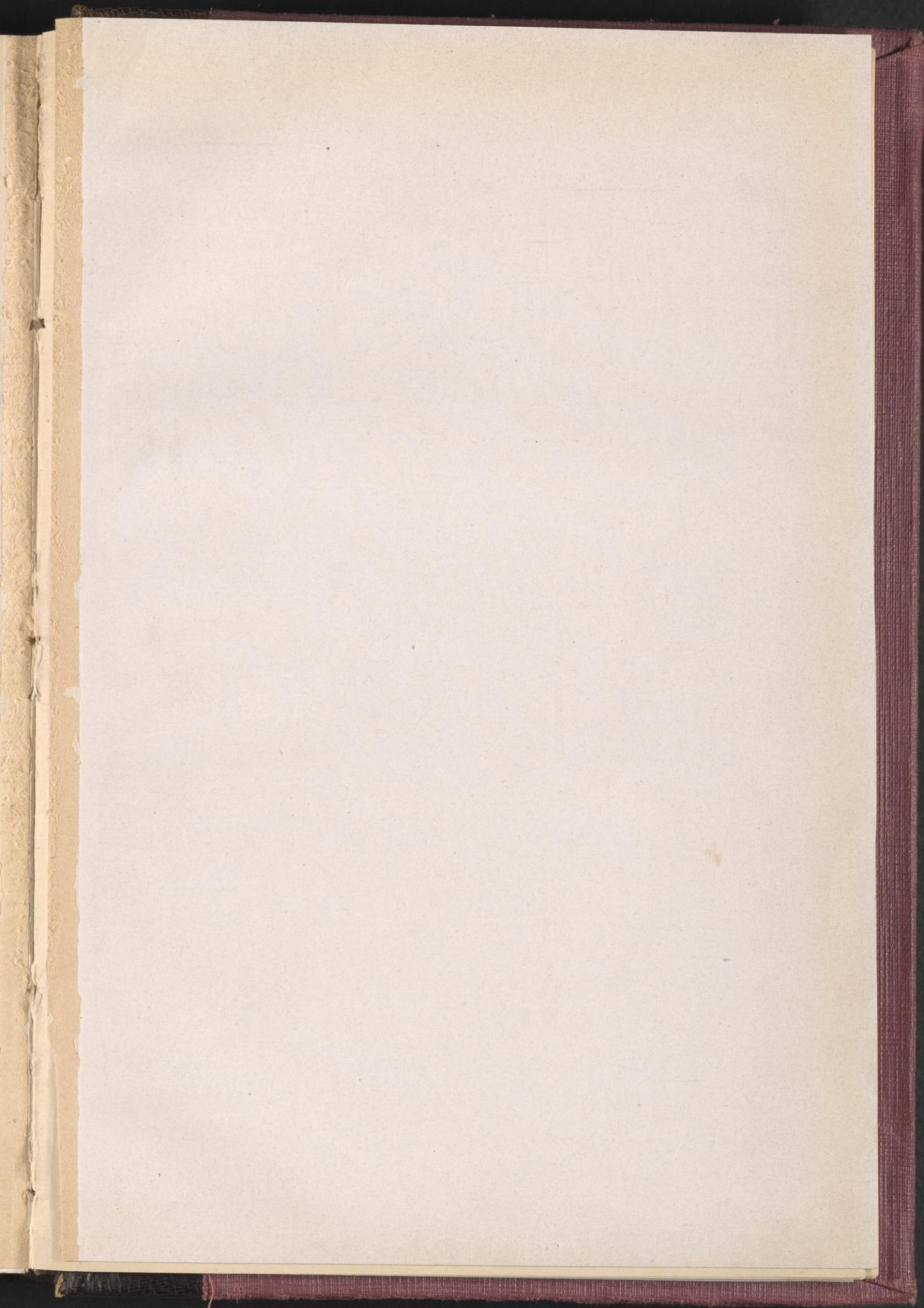
أدوات مصنوعة من عظام الحيوانات
وجمها هنا يعادل $\frac{2}{5}$ من جمها
الطبيعي . وقد وجدت في حفائر
مرمودة بنى سلامة (أنظر ص ٥٤)



أدوات من الفخار ترجع إلى حضارة البداري وجمها هنا هو سدس جمها الطبيعي (أنظر ص ٥٥ و ٥٥)



آنية من الفخار ترجع إلى ما قبل عصر الأسر وقد زينت برسوم مختلفة منها طيور وأشخاص
ثم رسم سفينة تحمل شارة على ساريها



أنها مرت بحالة الطفولة ، وإنما يرفعها أنها لم تجدد عليها ولم تقف فيها طويلا ، بل خرجت منها قبل غيرها ، وكانت خطواتها في هذا الخروج جبارة ، فكانت لذلك هي التي ظهرت فيها التباشير الأولى لفتح العقل الانساني ، وكانت هي التي نما فيها هذا العقل بعد ذلك نموا قويا حتى استطاعت المذنيات التالية أن تأخذ منه وتزيد في خطواته .

(١) فلمصر القديمة آراء وعقائد يتضح لنا الآن أنها غير صحيحة ، هذا لا شك فيه ، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن هذه الآراء والعقائد شيء وما يدعى عليها من الخرافات والأوهام شيء آخر . وبحسبي أن أذكر هنا بعض الأمثلة بإيجاز ، وسأعالج أمثلة أخرى في بحوثي التالية .

(١) أكثر ما تظهر فيه هذه الآراء الفاسدة عقائدهم الدينية . ولكن عذرهم فيها أنهم كانوا في دور الطفولة كما قلنا . وقد اتجهت عقولهم إلى البحث في الكون وخلقه وخالقه فكان من الضروري أن يخطئوا في خلال تلمسهم الحقيقة . وتاريخ الانسان في بحثه عن الحقائق العلمية يدل على أنه قلما اهتدى إلى واحدة منها دفعة واحدة . وإنما هو يبدأ فيسير في طريق مظلم فيضل يمينا وشمالا . وقد يعثر في خلال ضلاله هذا على أطراف من الحقيقة التي يطلبها . ثم لا يزال يواصل البحث إلى أن يستقيم له الطريق ويبين النور فيصل إلى غرضه . وكلما كان هذا الغرض عظيما كان الطريق إليه شاقا وطويلا .

وقد جرت هذه السنة على المصريين في بحثهم في الكون وخلقه وخالقه . وكان الطريق أمامهم شديدا مظلمة ، وكانت عقولهم لا تزال في بداية التفتح للبحث العلي والفلسفي ، فأخطأوا تارة يمينا وتارة شمالا ، ولكنهم اهتدوا في خلال خطأهم هذا إلى حقائق لا ينكرها عليهم منكر . منها أن روح الانسان باقية بعد الموت وأن جسمه هو الذي يفنى . وقد رتبوا على ذلك أنه يبعث بعد الموت ويحاسب على ما قدم في دنياه من خير أو شر ، فيجزى على الخير بالثواب وعلى الشر بالعقاب . ورغم تعدد معبوداتهم ، وعبادتهم الأصنام ، وتقديسهم بعض الحيوانات ، وجدت عندهم فكرة الوجدانية . وفي النظرية الدينية التي شرعها مدرسة عين شمس أو هليوبوليس ما يمكن أن يكون صورة من صور هذه الفكرة . وعبادة أتون التي دعا إليها الملك أمينوفيس الرابع أو أخناتون (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) هي أيضا صورة من صور هذه الفكرة .



نقل هيرودوت عن موظف مصري في معبد المعبودة « نيت » في صا الحجر
أن النيل يولد بين « سين » و « ايلفتين »^(١) وأن شطرا من مائه يجري إلى مصر
والشطرا الآخر إلى النوبة^(٢) . وقد أخذ بعض المؤرخين هذا القول قضية مسلما بها

= ومن يقرأ نظرية مدرسة هليوبوليس (وكانت تسمى باللغة المصرية اون) في كيفية خلق الكون لاسعه
إلا أن يجد شها غير قليل بينها وبين ما في الأصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين في كتاب العهد القديم
المسمى بالتوراة .

وفي مسألة الوجدانية يقول أحمد كمال باشا في كتابه « الحضارة القديمة » ص ١١٠ :
« قد اجتهدوا فحولوا التسيع الأصل إلى تثليث ثم وحدوا كل تثليث اتباعا لمذهب الاشونين
بأن ضموا الأب إلى ابنه وبالعكس أو ضموا إلى الزوجة فصارا ذاتا واحدة . وبذلك أدخلوا بعض آحاد
كل تثليث في بعض وجعلوها معبودا واحدا حالا في ثلاثة أقاليم متى أراودا رأسته على التسيع وكما
حدث في إدخال التثليث في التسيع حدث في نفس التثليث بأن ضموا المعبودات الثلاثة بعضها لبعض فصارت
معبودا واحدا . وبذلك أوجدوا الوجدانية . وعلى هذا نرى أن المصريين كانوا سائرين من طبيعتهم
إلى إدراك الوجدانية المقدسة وبما تقدم يظهر أن علماء اللاهوت اشتغلوا من قديم الزمان بحصر
صفات البارى في معبود واحد بعد أن فرقت أسلافهم بينها » .

ومثل هذا القول قاله ماسبيرو أيضا وقاله كثير من العلماء .
فأنت ترى من ذلك أن علماء اللاهوت المصريين قالوا في عقيدة التثليث بما يقرب مما يقوله فيها
الآن علماء اللاهوت المسيحيون .

غير أن العلماء المصريين لم يجعلوا الوجدانية لاله واحد اعترفوا به جميعا ، بل جعلها كل فريق منهم
لمعبوده الذى كان يطلق عليه هذا الوصف . فهليوبوليس جعلته لأتوم رع ، ومنفيس جعلته لبتاح ،
وهرموبوليس جعلته لتوت ، وطيبة جعلته لأمون ، وهكذا . ثم جاء أخناتون فنأدى بالوجدانية لمعبوده أتون .
وكان المصريون يعتقدون كما نعتقد نحن الآن أن طريقة الخلق هي أن يقول الله للشيء كن فيكون .

وسأأتى في الهامش رقم (٢) للصفحة ٢٩ حين ذكر نشيد النيل بيان التسيع الذى أشير إليه هنا .
(١) سين كانت ضاحية من ضواحي ايلفتين . وايلفتين مدينة قديمة كانت بجانب المكان الذى
تقوم فيه الآن مدينة أسوان ، وكانت عاصمة لإقليم يسمى باسمها .

(٢) هذا تعريب ما كتبه هيرودوت في ذلك نقلا عن موظف مصري قال إنه كاتب معبد « أتينا » =

وزعموا أنه كان بعض ما يعتقد المصريون في منابع النيل . ومن الواضح مع ذلك أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يعنى بها هيرودوت ويثبتها في كتابه ، وخاصة بعد أن قال هو نفسه « إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذى نقل عنه هذا القول كان يمزح » . إذ المصريون الذين كانت سمين وايلفتين من مدنها كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لا يجرى شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة ، بل يأتى من النوبة جاريا إلى مصر . وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة ، وإلى ما وراء النوبة ، منذ الدولة القديمة ، ووصلت فتوحاتهم في عهد الدولة الحديثة إلى ما وراء الشلال الرابع . ولا تزال آثارهم في هذه المنطقة قائمة يكشف عنها العلماء ويدرسونها . فهم إذن ركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع ، فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند أسوان هو ادعاء زور ، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصرى هو اعتماد على سند ساقط .

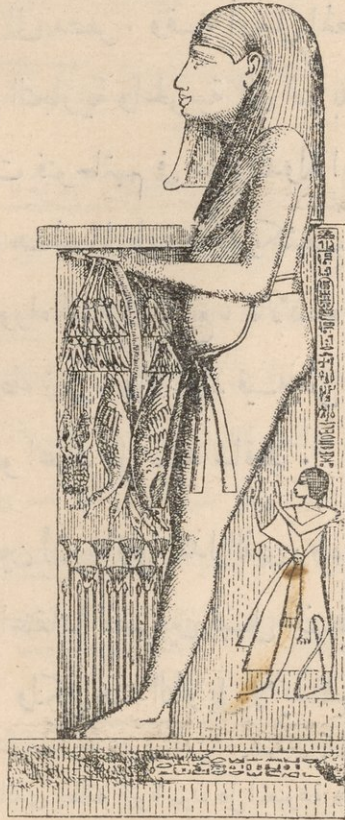
وقد أراد بعض المؤرخين أن يتأولوا هذا الذى رواه هيرودوت فقالوا إن ولادة النيل عند ايلفتين كانت اعتقادا للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة ويركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع . ولكن هذا التأويل لا يستقيم ، لأن هيرودوت لم يقدم

= في صا الحجر . وأتينا هو الاسم الذى يطلقه اليونانيون على المعبودة « نيت » التى كانت تعبد في صا الحجر وفي إسنا . قال هيرودوت في الفقرة ٢٨ من كتابه :

« يقال أن بين سمين ، وهى إحدى المدن التابعة لقسم طيبة ، وبين ايلفتين ، جبلين لكل منهما قمة قائمة كالسن . وأحد هذين الجبلين يسمى كرونى والثانى يسمى سوفى . وهما اللذان يقال إن النيل ينبع من هاويات واقعة بينهما . وشطر من الماء يجرى نحو مصر وريح الشمال بينما الشطر الآخر يجرى نحو إتيوبيا وريح الجنوب .

» ومما قاله لى ذلك الموظف أن الملك بسامتيك أراد أن يعرف عمق هذه الهاويات فصنع جبلا طوله عدة ألوف من الأوربي ثم دلّاه فيها فلم يصل إلى قاعها .
والأوربي مقياس يونانى قديم يعادل مترا و ٨٥ سنتيمترا .

إلى مصر في مفتتح الحضارة المصرية، بل قدم إليها في مختتمها، أى بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة في عصر الدولة القديمة ووصلوا إلى ما وراء الشلال الرابع في عصر الدولتين الوسطى والحديثة . فالموظف الذى نقل عنه هيروdotus ما نقله لا يمكن أن يكون إلا جاهلا أو مخرفا، وهيروdotus لا يدل بنقله هذا التخریف إلا على أنه كان يلتقط كل ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص^(١) .



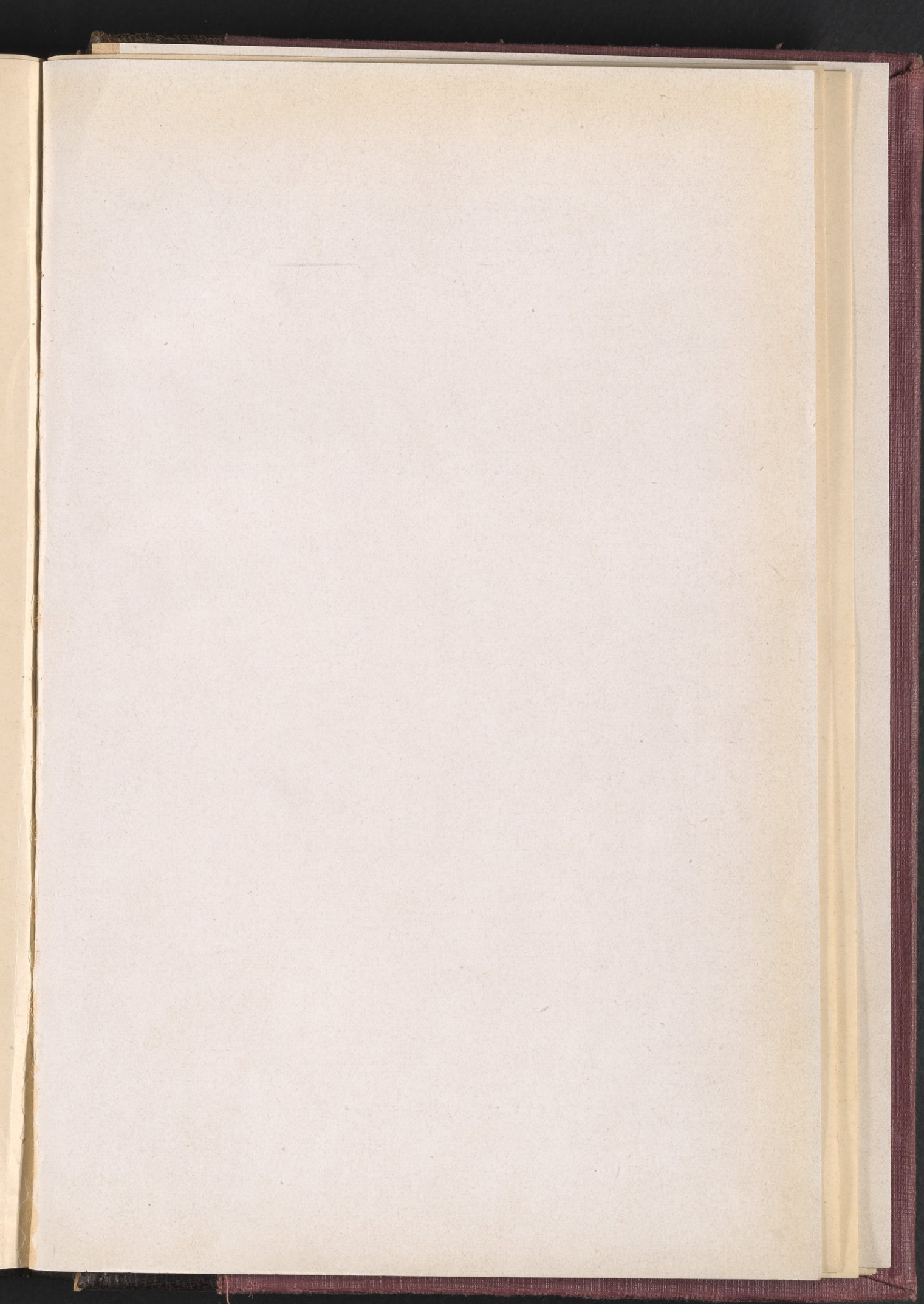
المعبود النيل

في هذه الصورة كانوا يمثلون المعبود النيل . وهى صورة رجل ممتلىء الجسم تظهر عليه سيما النيل والغنى . وثدياه كبيران كأنهما ثديا امرأة . وفى بعض الأحيان كانوا يرسمون الماء خارجا منهما . وأمامه مائدة للقرايين علقت فيها أنواع مختلفة من الزهور والأسماك والطيور . ومن خلفه كاهن يقدم له رسوم العبادة (أنظر ص ٢٣) .

(١) تدل الآثار على أن المصريين بدأوا يغزون النوبة في عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة (في نحو سنة ٢٨٩٠ ق م) . ثم غزوها مرة ثانية في عهد الملك سنفرؤ أحد ملوك الأسرة الرابعة =



صيد الأسود (اقرأ ص ٢١١)



والحرثية في غشيان الأسواق وفي البيع والشراء، ما لا مثيل له في بلاده، فكتب يقول إن الرجل في مصر يباشر شؤون البيت والمرأة تباشر الشؤون خارج البيت^(١). ولم يكن هيرودوت صادقا في هذا ولكنه رأى شيئا لم يألفه فأخطأ في فهمه وتفسيره.

(١) إليك ما كتبه في ذلك هيرودوت في الفقرة ٣٥ من كتابه . قال :

« إن المصريين الذين يعيشون في مناخ لا نظير له ، وحول نهر تختلف طبيعته عن طبيعة الأنهار الأخرى ، جروا في كل شيء تقريبا على أخلاق وعادات تخالف أخلاق غيرهم من الناس وعاداتهم . فالمرأة لديهم هي التي تذهب إلى السوق وتشتري الأشياء بينما الرجل يقعد في البيت وينسج » .

وقد خلط هيرودوت بعد ذلك أشياء صحيحة بأشياء غير صحيحة فقال :

« وفي البلاد الأخرى يقيمون الشبكة إلى أعلى لينسجوا ، أما في مصر فانهم يجعلونها إلى أسفل . والرجال في مصر يحملون الأحمال على رؤوسهم بينما النساء يحملنها على أكتافهن . والمرأة تبول واقفة . والرجل يبول قاعدا القرفصاء . وهم يبرزون في البيوت ويأكلون في الشوارع . والعلة عندهم في ذلك أن الأعمال الضرورية التي تتخذ الآداب ينبغي أن تعمل سرا ، أما الأعمال التي لا تتخذ الآداب فينبغي أن تعمل جهرا . ولا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة ، وإنما الرجال هم الكهان للعبودات جميعا . وليس الابن ملزما بأن يعول أبويه ، فله أن يفعل وألا يفعل ، أما البنت فلزمة ولو لم ترد . والكهان في البلاد الأخرى يرسلون شعورهم ، ولكنهم في مصر يحلقونها . ومن عادات الشعوب الأخرى في الحداد أن يحلق أهل الميت شعور رؤوسهم أما المصريون فيرسلونها بعد أن كانت محلقة . وغير المصريين يقيمون بعيدين عن الحيوانات والمصريون يقيمون معها . وغيرهم يعيشون على القمح والشعير وهم يجعلون طعامهم من نبات « الأوليرا » وبعضهم يسميه « ظيا » — (لم يعرف العلماء هذا النوع من النبات وقد ذهب بعضهم إلى أن المقصود به الذرة) — والمصريون يعجنون الخبز بأرجلهم ويعجنون الطين (الذي تصنع منه الأواني) بأيديهم . وهم يجعون روث البهائم . والرجال في جميع الشعوب يتركون أعضاءهم التناسلية على حالتها الطبيعية إلا المصريين والذين تعلموا منهم فانهم يختنون . والرجل في مصر يلبس ثوبين والمرأة تلبس ثوبا واحدا . والعادة عند جميع الأمم أن تثبت الحلقات والحبال التي لقلوع المراكب في الظاهر من افريز المركب ، إلا في مصر فانها تثبت في باطن الافريز . والإغريق يكتبون ويرصون الحصى الذي يستعملونه في الحساب من الشمال إلى اليمين بينما المصريون يكتبون ويحسبون من اليمين إلى الشمال . وهم يقولون إنهم أصحاب اليمين وغيرهم أصحاب الشمال . ولهم نوعان من الكتابة أحدهما مقدس والثاني شعبي » .



وعثر العلماء منذ سنين على ورقة بردى يظن أنها كتبت في عهد رمسيس الثانى
وفيهما أن بعض الأيام والساعات مميون وبعضها الآخر مشؤوم . فيوم ع طوبه

= انتهى ما كتبه هيرودوت فى هذا . وكل الذين درسوا التاريخ المصرى القديم ، كما دلت عليه النقوش
وأوراق البردى ، لا كما دلت عليه كتب هيرودوت وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين ، يعرفون إلى أى
حد خاطئ هيرودوت فى أقواله هذه فزج حقائق قليلة بأخطاء كثيرة . ويكاد هيرودوت لم يقع على حقائق إلا
فى قوله إن المصرين يختنون وإنهم هم الذين علموا غيرهم الاختتان ، ثم فى قوله إن كهنتهم يخلقون شعورهم ،
ثم فى قوله إنهم يرسلون شعورهم فى الحداد ، أما فيما عدا ذلك فليس إلا الخطأ الظاهر والخلط البين . ولهذا
ولأشياء أخرى قال الذين بحثوا مزاعم هيرودوت هذه إنه لم يدرس ما شاهده فى مصر درساً يمكن الركون إليه .
والتمس له بعضهم عذراً فقالوا إنه لم يختلط بالمجتمع المصرى بل رأى بعض السوق فى الطرق فشاهد من أفرادهم
مناظر شاذة فحكم بها على المجموع . مثله فى ذلك كمثل كثير من السياح الذين يقدون إلى مصر فى هذه الأيام .
وما دما قد ذكرنا هذا ، يحسن أن نذكر كيف تظهر حالة المجتمع المصرى على ضوء الآثار التى خلفها
المصريون ، لا على ضوء ما كتبه هيرودوت أو غيره ممن لم يفهمهم . ونستند فى هذا إلى شهادة عالم
انجليزى هو الأستاذ ارثو ويجل Arthur Weigall أحد كبار الموظفين السابقين فى مصلحة الآثار المصرية ،
فقد لخص فى كتابه الذى ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان : Histoire de l'Ancienne Egypte .
وطبع بباريس فى سنة ١٩٣٥ ص ١٥٧ ما دلت عليه الآثار من مظاهر الحياة الاجتماعية المصرية فى عهد
الأسرة الثامنة عشرة والأسرات التى تلتها فقال :

« كانت الحياة فى ذلك العهد ناعمة بالغة حداً بعيداً من التأنق ، حتى ليدعشنا ما نراه فيها من أوجه الشبه
بالحياة فى عصرنا هذا الحاضر . فقد كان أهل الطبقات العليا ينامون على أسرة ذات أغطية ووسائد محشوة
بالريش تشبه أغطيتنا ووسائدنا فى هذا العصر شهاً كبيراً . وكانوا يجلسون مثلنا على كراسى محشوة بالشعر .
وكانت الغرف تضاء بمصابيح زيتية ، تعكس ضوءها حيطان مكسوة بالمرمر الأبيض الشفاف . وكان النساء
يضعن الدهان الأحمر فى شفاههن وخدودهن . وكن يتكحلن بالكحل الأسود ويصبغن شعورهن . أما
الرجال فكانوا يخلقون شعورهم بأمواس من المعدن . وكان من المألوف أن يعنى الرجال عناية خاصة
بتنظيف أظافر أيديهم وأقدامهم ثم يتسويتها . وكان الأطفال يلعبون بالعرائس من القماش ، وبالأتواق
من المعدن ، وبالكرات المختلفة ، كما كانوا يلعبون ببهلوانات ذات خيوط تتحرك بها أجزاؤها . وفى المدرسة
كان هؤلاء الأطفال يتعلمون كما يتعلم أطفالنا الآن القراءة والكتابة والحساب .

« وكان الرجال يلبسون قفازات حين يخرجون من بيوتهم . وكانوا إذا شعروا بالظماً فى وقت الحر
تناولوا مرطبات بواسطة غابة فارغة الجوف كغابة القش التى نشرب بها نحن الآن . وكانوا إذا عادوا
إلى بيوتهم غسلوا أيديهم فى أحواض وبأباريق كالتى نستعملها فى عصرنا هذا .

طيب طيب طيب ، وكل شئ نظرت فيه يكون ميمونا ، وكل من ولد فيه يموت شيخا كبيرا . ويوم ٥ طوبه شؤم شؤم شؤم ، فلا يجتمع فيه بامرأة وقت ظهور

« وفي الحفلات كان ناخون ينفخون في نقر طويلة من الفضة . أما المدعوون فكانوا يتمتعون بمشاهدة الرقص وسماع الغناء والاصغاء إلى موسيقى مؤلفة من قيثارات ونايات ونقارات وساجات وطبول . وكانت لهم ألعاب يتسلى بها الرجال والنساء في البيوت منها الضامة والزهر وألعاب أخرى من ألعاب الاجتماعات الخاصة . » تلك أمثلة قليلة ذكرناها هنا اتفاقا ، ومن غير أن نفرد للوضوع بحثا خاصا ، وهي تكفى لإظهار أن المصريين في ذلك العصر لم يكونوا على الطباع الغربية التي نسبها إليهم بعض الكتاب . نعم إنهم بما كانوا يضعونه على رؤوسهم من الشعور المستعارة ، وبما كانوا يلبسونه من الملابس المختلفة المتداخلة ، ثم بما كانوا يأخذون به أنفسهم من الآداب والتقاليد الجثة ، بهذا كله يظهر ون أمام أعيننا عند النظرة الأولى غرباء عنا ، كأنهم صينيون أو يابانيون من أهل الجيل الغابر ، ولكن النظرة الفاحصة تنطق بأن عاداتهم قريبة كل القرب من عقائدنا الغربي ، وإن أفكارهم متصلة بأفكارنا إلى حد بعيد في بعض الأحيان . »

هذه هي شهادة الحق التي كتبها أرثو ويكل ، وهي ترسم صورة للمصريين غير الصورة المزيفة التي رسمها هيرودوت . وقد طعن نفس مترجم هيرودوت من اليونانية إلى الفرنسية (Ph. E. Legrand) في الصورة التي رسمها هيرودوت للمصريين وحكم منها بأنه لم يختلط بالمجتمع المصري (ص ٣٠ و ٣١ من مقدمة كتاب هيرودوت) . وقد ذكر هيرودوت فيما نقلناه عنه أنه « لا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة وإنما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا » . وهذا خطأ ، فقد دلت الآثار على أن النساء كن يكنهن للمعبودتين « نيت » و « هاتور » وللمعبودات أخرى . كما دلت الآثار على أنه كانت توجد في معبد أمون في طيبة طوائف من النساء ملحقات به فبعضهن للرقص أمام المعبود في مواكب وحفلاته وبعضهن للغناء وبعضهن للضرب على آلات موسيقية وبعضهن للكهانة . وكانت كبيرة الكاهنات تلقب بالرئيسة العليا لسيدات أمون أو بـ « أمون » ، وهي في الغالب الملكة أو بنت الملك أو زوجة الكاهن الأعلى أو أرملة . وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين صارت زوجة أمون حاکمة لطيفة فصارت ذات سلطة إدارية واسعة . واستمر هذا التقليد إلى أن دخل الفرس مصر في سنة ٥٢٥ ق . م . وكانت زوجة أمون حينذاك بنت بسامتيك الثالث .

على أن من الإنصاف لهيرودوت أن نذكر أنه عاد بعد كلامه الذي أوردناه فقال في وصف المصريين : « إن القوم الذين هم أشد الناس استمساكا بالعقائد الدينية (يريد المصريون) يتبعون القواعد الآتية : » فهم جميعا ، لا فريق منهم دون فريق ، يشربون في أوان من البرنز ينظفونها كل يوم تنظيفا دقيقا . وهم يلبسون ملابس من الكتان يعتنون دائما بغسلها اعتناء كبيرا . وهم يختنون رغبة في النظافة لأنهم يرون أن النظافة خير للجسم . وكهنتهم يحلقون أجسامهم مرة كل يومين حتى لا تعلق بهم أية حشرة وهم يخدمون معبوداتهم . ولا يلبس هؤلاء الكهنة غير لباس من الكتان وأحذية مصنوعة من نبات البردى . ومن المحظور عليهم أن يلبسوا ملابس من قماش آخر وأحذية من نوع آخر . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين بالنهار ومرتين بالليل . »

القمر، وأحترس فيه من وقوعك في النار التي توقد في دارك . و يوم ٨ طوبه
طيب طيب طيب، كل ما نظرت فيه عينك تعطيك إياه المعبودات، وفيه يشفى
المرضى . ومن يولد يوم ٤ أو ٥ أو ٦ بابه يموت بالحمى الاجامية أو بسبب العشق



لوحة محفوظة في القسم المصرى من متحف برلين

وهي تمثل جنديا سوريا أراد أن يشرب شرابا فأعطاه الخادم المصرى غابة يشرب بها (أنظر ص ١٨)

أو بسبب السكر . ومن يولد في ٢٣ كيهك يلدغه ثعبان فيقتله . ومن يولد في ١٩
أو ٢٩ كيهك يعيش طويلا ويمضى حياته في لذة وسرر واحترام... الخ^(١) .

ولا أمضى إلى أكثر من هذا في اقتباس مافي ورقة البردى هذه لأننى لا أفتح هنا
باب بحث خاص فيها، ولكننى أقول إن كثيرا من الباحثين لم يكادوا يقفون على
هذه « التوقيعات » حتى ذهبوا من التخصيص إلى التعميم وحكموا بما فيها على
المصريين . وحينئذ لم تبق هذه الحرافات معزوة إلى كاتبها، بل صارت عقائد كان
المصريون يعتقدونها أجمعين . بهذا قال علماء من أمثال ماسيرو وأحمد كمال باشا^(٢)
وغيرهما ممن لا ينكر أحد فضلهم في خدمة التاريخ المصرى وإظهار فضائله . وأنا
أخالف أصحاب هذا القول وأرى أنه يكون عجيبا إلى أقصى حدود العجب أن تستمر
المدنية المصرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة ثم يبقى المصريون على اعتقادهم أن من
يولد في يوم ٤ طوبه يموت شيخا ومن يولد في يوم ٢٣ كيهك يموت بأنياب تمساح
ومن يولد في يوم ٢٧ كيهك يموت بلدغة ثعبان، وغير ذلك من التقديرات التى تتناول
أكثر أيام السنة، كأنما ثلاثة آلاف سنة لم تكف لإقناعهم بأن هذه التقديرات
حساب غير صحيح .

والأمر في هذه التقديرات بعد ذلك هين، فمثلها موجود بيننا في مصر، وموجود
في أوربا، إلى اليوم . وهاءنذا أفتح تقويم « طوالع الملوك » لسنة ١٩٣٦ فأجد
فيه ما يأتى :

الثلاثاء ٥ مايو يوم جيد لمقابلة الحكام .

الخميس ١١ يونيه يوم جيد لتجار البحر .

(١) ورقة البردى هذه موجودة في القسم المصرى من المتحف البريطانى وتسمى ورقة ساليير (Sallier)

رقم ٤ . وأول من ترجمها العالم شاباس (Chabas) .

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) من ص ١٤٩ الى ص ١٥٨

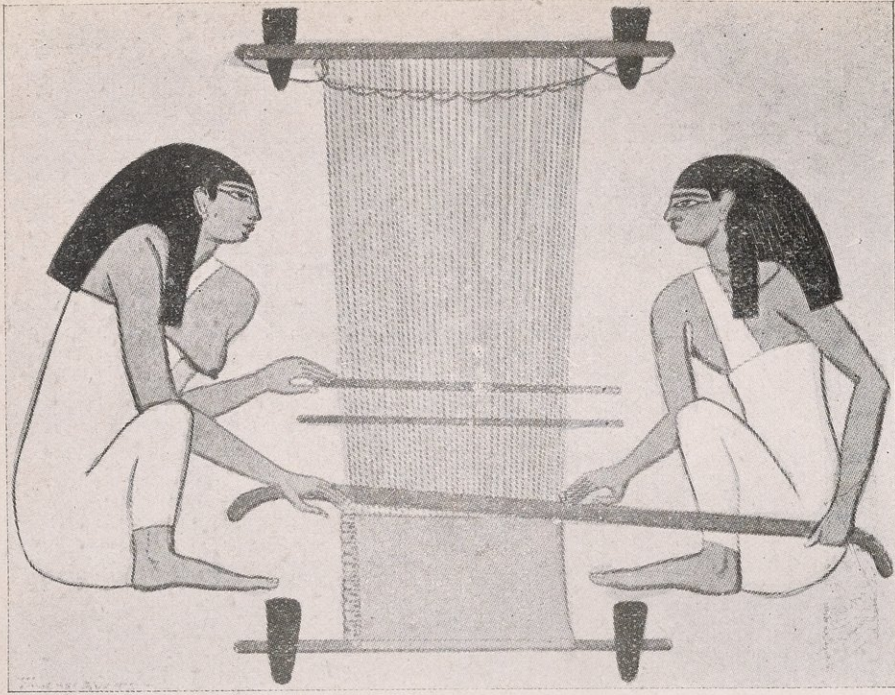
(٣) كتاب الحضارة القديمة جزء أول من ص ١١٦ الى ص ١١٨

- الثلاثاء ٢٣ يونيه يوم يخاف فيه من لبس الحديد .
الأربعاء ٢٤ يونيه يوم سعيد لرفع البناء .
الثلاثاء ٣٠ يونيه يوم سعيد لمقابلة الملوك .
الثلاثاء ٧ يوليه ظهور الحق لذى عينين .
الأحد ١٩ يوليه يستحب دخول الحمام .
الثلاثاء ١١ أغسطس تموت الحية الرقطاء تحت حكم السلاح .
الاثنين ٣١ أغسطس يوم سعيد لقضاء الخوائج .
السبت ٣١ أكتوبر يجتنب الفصد والمجامة .
السبت ١٤ نوفمبر يوم سعيد لحفر الآبار .
الاثنين ١٦ نوفمبر أوان ظهور الملاحم الدموية .

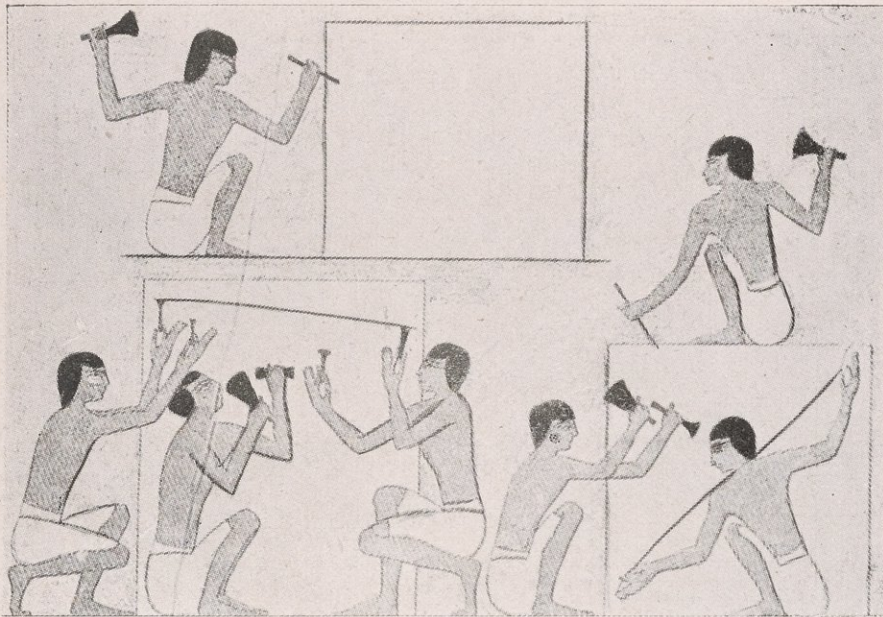
والتقويم مشحون بكثير من أمثال هذه «التوقيعات» . ومثله «تقويم الأسيوطى» لسنة ١٩٣٦ ، وفي أوربا تقاويم من هذا النوع . فهل الذى يقرأ هذه التقاويم يسوغ له أن يحكم بأن المصريين والأوربيين يعتقدون ما فيها ؟ وهل إذا اتفق أن عثر الباحثون بعد ثلاثة آلاف عام على تقويم من هذه التقاويم يسوغ لهم أن يعزوا ما فيه من الخرافات إلى جميع أهل الزمن الذى عاش صاحبه فيه ؟

ولاحظ فوق هذا أن الذين يعزون إلى المصريين ما فى ورقة ساليير من الخرافات لا يعزونه إلى المصريين الذين عاصروا كاتبها فحسب ، بل إلى المصريين فى جميع العصور ، أى فى ثلاثة آلاف من السنين ! !

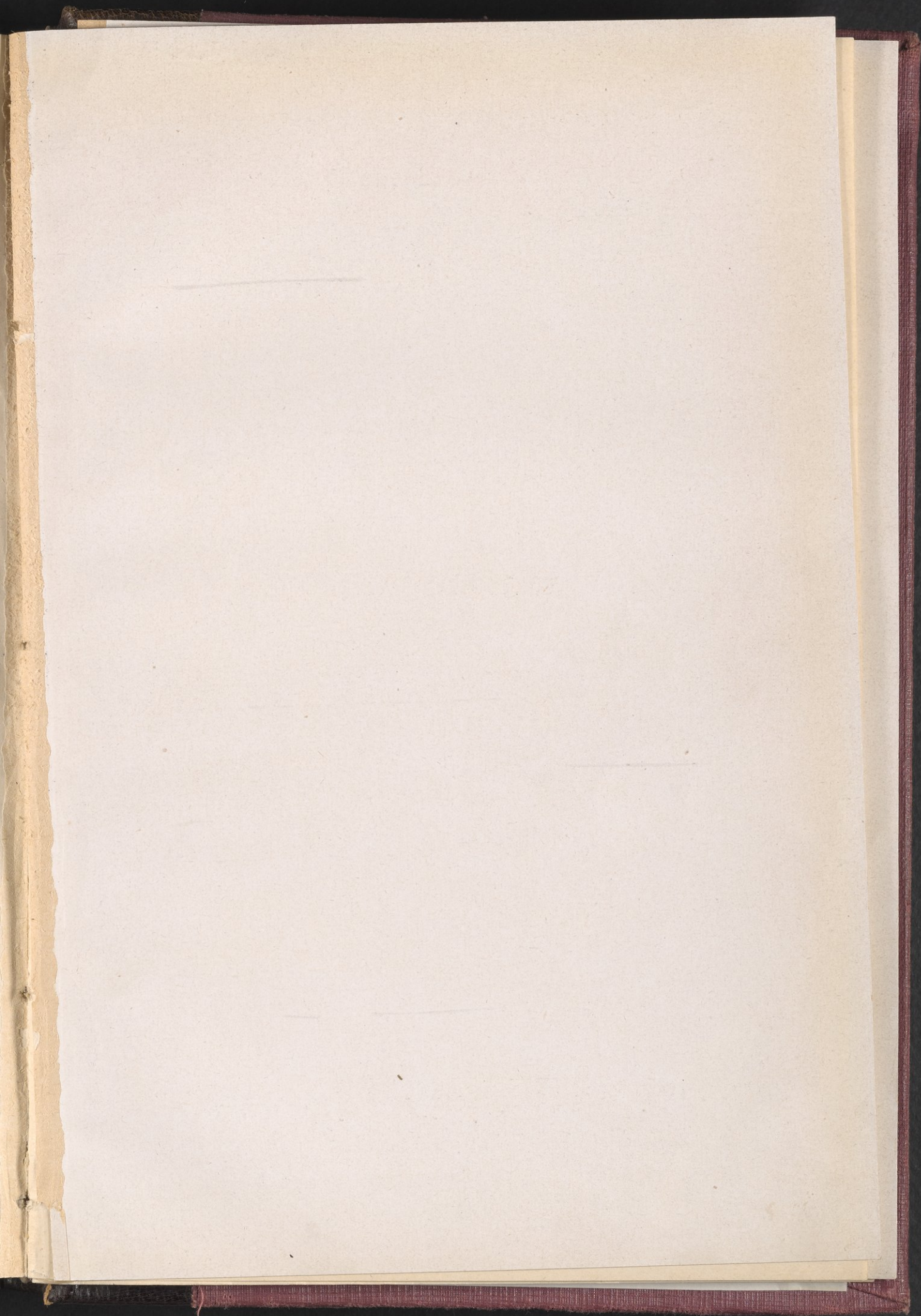
فورقة ساليير لا تريد قيمتها عندى على قيمة «طوالع الملوك» أو «تقويم الأسيوطى» ، والخرافات التى فيها لا تتعدى صاحبها وجماعة من الجهلة يوجدون فى كل عصر وكل بلد ، فلا يحكم بهم على البلد الذى هم فيه .



امراتان تنسجان (قبر خنومهو تيوفى بنى حسن)



عمال يشتغلون فى تسوية الأحجار وتنظيفها بعد قطعها من الجبل





ومثل آخر من أمثلة الخرافات المكذوبة على المصريين .

زعم المؤرخون العرب أن للنيل عروسا كان المصريون يقدمونها له كل سنة فلم يبطلها إلا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

« قال ابن عبد الحكم لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها . فقال لهم وما ذلك . قالوا إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل . فقال لهم عمرو هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلأ . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهبأ أهل مصر للجلأ والخروج منها لأنه لا يقوم بمصالحهم فيها إلا النيل . وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر » .

تلك هى القصة . وقد ذكر ابن عبد الحكم أن الرسول الذى حمل البطاقة كان يسمى جاحل الصدفى . فالذى يقرأ هذه البيانات المفصلة يظن أول وهلة أنها نقلت من سجلات حكومة المدينة أو سجلات حكومة مصر فى عهد عمر وعمر . وقد شاعت هذه القصة وتناقلها الكتاب أكثر من ألف سنة ، وهى لا تزيد فى حقيقتها على أن تكون أ كذوبة من الأكاذيب المدعاة على المصريين .

نعم هى أ كذوبة على الرغم من التفصيلات التى ساقها ابن عبد الحكم ، فقد صار تاريخ مصر القديمة معروفا ، وأنت تقرأه كله فلا تجد فيه أثرا لهذه القصة . وقد دون المصريون ، فيما دونوه عن النيل ، أنهم رفعوه إلى صف المعبودات وعنوا بفيضانه فجعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة كما نقيسه الآن . وكانوا يسجلون

في سجلات خاصة درجات علوه وانخفاضه في أوقات معينة من كل سنة كما نسجلها الآن . وقد سجلوا هذه الدرجات على بعض حجارة المعابد . ولا يزال حجر « بالرم » وأعمدة الكرنك وصخور أسوان والنوبة شاهدة بذلك^(١) . فلو أنهم كانوا يلقيون فيه عروسا كل سنة لكي يفيض لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته . أضف إلى ذلك أن فيما دونوه عن النيل ذكرا لسني جذب ومجاعة رزئت بها مصر بسبب انخفاض الفيضان ، وهم لم يذكروا في ذلك عروسا قدمت أو كانت تقدم ، ولو أن هناك عروسا لوجب أن تذكر في خلال ذكركم تلك السنين^(٢) .

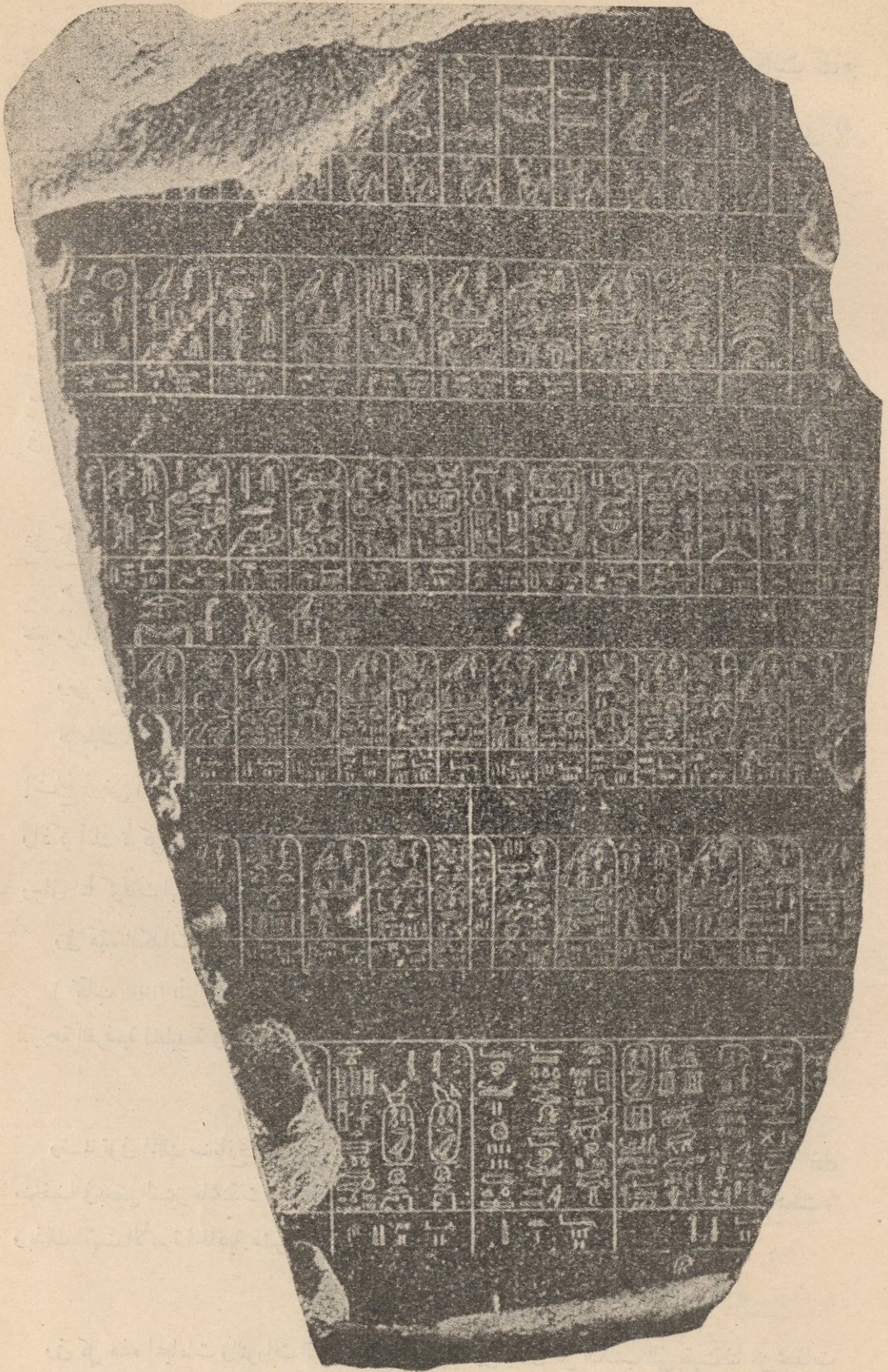
(١) حجر بالرم هو حجر يظن أنه بقية من بقايا معبد هليو بوليس . وقد نقش عليه تاريخ ملوك مصر في العصر السابق على عصر الأسر ثم تاريخ الأسر الخمس الأولى بأن قسم إلى خانات متوالية خصصت كل خانة منها لذكر أهم ما وقع في كل سنة وأقصى الدرجات التي وصل إليها ارتفاع النيل في تلك السنة . ولم يوجد من هذا الحجر إلا جزء يظن أنه عشرة . وهو موجود الآن في متحف بالرم في جزيرة صقلية ولذلك يسمى حجر بالرم . وفي متحف القاهرة أجزاء صغيرة يظن أنها من حجر آخر كان نسخة ثانية لحجر بالرم .

(٢) كان النيل يسمى حابي . وقد وجد منقوشا على لوحة تذكارية من الحجر تعرف عند علماء الآثار باسم « لوحة المجاعة » أن النيل جاء منخفضا سبع سنوات متوالياً في عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة فقال هذا الملك :

« إنني حزين لأن النيل لم يفيض في عهدي سبع سنوات فقلت للغلال وجفت الحقول وهلك كل ما يصلح أن يكون طعاما . وصار الرجل إذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم لإنجاده . وصار الطفل يبكي والشاب يذبل والشيخ يغمى عليه . وصارت سيقانهم جميعا لا تحملهم فهم مطروحون على الأرض وقد ألقوا بأذرعتهم متعارضة على صدورهم » .

ومع أن هذه الأقوال معزوة إلى الملك زوسر فقد عرف أن اللوحة نقشت في عصر البطالسة وأن كهنة المعبود خنومو (معبود ايلفتين) هم الذين نقشوها ثم أضافوا إليها أن الملك زوسر استغاث إذ ذاك بالمعبود خنومو فأغاثة وأجرى النيل . وبهذه القصة حصل كهنة خنومو على امتيازات كان المعبد الذي يخدمون فيه قد حرم منها .

ومن هذا يتضح أن القصة مطعون في صحتها ، ولكن هذا الطعن لا ينقص من قيمتها في ما نحن بسبيله . إذ من الجلي أنه لو كانت عروس تلقى في النيل كل سنة لأشير إليها ولو مرة واحدة على الأقل في هذه السنوات السبع التي جاء النيل فيها منخفضا ثم لقبل إن النيل بقي مع ذلك منخفضا حتى أجراه خنومو ، فيكون =



حجر بالرم

قطعة من حجر بالرم الذي نقشت عليه أسماء الملوك في عصر ما قبل الأسر ثم في عصر الأسر
إلى منتصف الأسرة الخامسة . وقد نقشت عليه أيضا مقاييس النيل (أنظر ص ٢٤)

٢٠ ثم إن فيما تركه لنا المصريون من الآثار وصفا لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغانى تغنى به

== ذلك أدل على قدرته وفضله . نخلو القصة من أية إشارة إلى العروس لم يكن إلا لأنه لم تكن هناك عروس . وهذه اللوحة وجدت في إحدى الجزر بالقرب من أسوان .



وانخفض النيل في عهد الملك سنخارع متوحتب أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ففتت مجاعة شملت مصر كلها ووصل إلينا خبرها في كتب كتبها بعضهم إذ ذاك . ومن هذه الكتب كتاب كتبه أحد كبار الملاك في ذلك العهد إلى أمه ، وكان يقيم في الوجه البحرى وكانت أمه تقيم في الوجه القبلى ، فقال فيه :

« كيف أنت . لا تلاقى على فانى حى وفى صحة جيدة ، ولكن البلد يموت جوعا . لقد حصلت لك على كل ما استطعت الحصول عليه من الغذاء .

« ألا يزال النيل شديد الانخفاض ؟ لا تستأى لقله ما أبعث به إليك فان نصف الموت خير من الموت » .

ومن تلك الكتب أيضا كتاب كتبه هذا الرجل نفسه إلى ولده يقول فيه :

« عليك أن تغذى رجالى حينما يكونون فى العمل . تذكر ذلك ولا تغفل عنه . وليكن وكذك أن تجعل إنتاج أرضى أقصى ما يمكن . احث الأرض وانصرف إلى العمل بكل ما فىك من قوة . جدد واجتهد واذكر أنك تأكل من عيشى وأن من حسن حظك أنى مستطيع أن أقوم بحاجاتك . وإذا عاف أحد من رجائى الماء كولات التى تقدمها لهم فابعث به إلى ليقم معى ويعيش كما أعيش . وذلك مالا يفعله أحد غيرى » . وفى هذه الكلمات ما ينم عن شعور انسانى وعن أخلاق كريمة تستحق أن يقف الباحث عندها .

(كتاب Histoire de l'Egypte Ancienne تأليف Arthur Weigall ص ٧١ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى باريس فى سنة ١٩٣٥) .



وقد توفى الملك سنخارع متوحتب خلفه الملك نبتاوى رع متوحتب ، وفى عهده أيضا جاء النيل منخفضا فى بعض السنين فاشتدت المجاعة وأدت إلى ثورة فقد فيها الملك عرشه وخلفه عليه وزيره امنمحت . وبذلك انتهت الأسرة الحادية عشرة وابتدأت الأسرة الثانية عشرة .



وفى كل هذه المجاعات والثورات الناشئة من انخفاض النيل ، وفى كل الكتب التى بقيت لنا من مخلفات تلك العصور ، لم يرد ذكر لشيء يسمى عروس النيل .

فيها المغنون ، وهذه الاحتفالات والقصائد والأغاني خالية كلها من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس كانت صحيحة لما خلت منها .^(*)

(*) نشيد النيل

ننشر هنا نشيد النيل نقلا عن ماسبيرو الذي ترجمه من النص المصرى في كتابه

Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique

ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ من الجزء الأول . ويجب أن نقول هنا إن ماسبيرو موجزا وضعه هو بنفسه لكتابته هذا المؤلف من ثلاثة أجزاء كبيرة ، وهذا الموجز يقع في جزء واحد وقد أثبت فيه نفس هذا النشيد بعد حذف بعض أجزائه ومع تغيير طفيف جدا في كلمات قليلة منه . وقد اعتمدنا نحن في الترجمة العربية التي نثبتها هنا على الترجمة الأولى لأنها أوسع وأوفى . وهذا هو النشيد :

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لبحرى مصر . يا من تخفى في الظلمات مجيئك .^(١) إنك اللجة تنتشر على الحقول التي يخلقها رع . إنك تعطى الحياة لجميع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء .^(٢) ومتى هبطت فان جب إلى الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه ، وتزبرى إلى الحبوب يقدم قربانه ، وبتاح ينشر الرخاء في دار صناعته .^(٣) أنت سيد الأسماك ، متى جرت الشلال .^(٤) لم تعد الطيور ترمى متردية على الحقول . أنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد لحل الأعياد .

(١) يرى ماسبيرو أن في قوله « تخفى في الظلمات مجيئك » إشارة إلى أسطورة كانت تقول إن النيل ينبع من نيل في السماء ، ويجرى في الظلمات إلى أن يكون النيل الذى على الأرض والذى يروى مصر .
(٢) كان من الأساطير المعروفة عند المصريين ، من قبل عصر الأسر ، إن النيل مظهر من مظاهر المعبود أوزيريس إله الخير والخصب ، وأن الصحراء مظهر من مظاهر سبت إله الشر والجذب . وكان هذان المعبودان أخوين ولكن سبت قتل أوزيريس فانتقم له حوريس ابنه من ايزيس وحارب سبت حتى انتصر عليه . فقول الشاعر هنا إن النيل يرفض أن يروى الصحراء معناه أنه يرفض أن يروى ظمأ إله الشر في حين انه « يعطى الحياة لجميع الظمآنين » .

(٣) كان المعبود بتاح يلقب في مبدأ أمره برئيس الصناع ورجال النحت والتصوير . وكان يعبد في منفيس على هذا المعنى . وحينئذ كانت مصر توصف عند عابديه بأنها دار صناعته . ثم تطور الأمر فصار بتاح معبودا عاما وخالقا للكون مثل رع في عين شمس وأمون في طيبة .

(٤) يريد الشلال الأول لأن النيل يدخل مصر باجتيازه .

وقد عرضنا هنا للحفلات الدينية التي كانت تقام للنيل، فنذكر واحدة منها
تمس موضوعنا هذا، وهي التي كانت تقام كل سنة في موعد معين لأجل دعوة النيل
إلى الفيضان .

= أنت من إذا أضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من الناس في البؤس . وإذا قل
ماؤه في السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشي ، وصار كل من في الأرض
كبيرا أو صغيرا يعاني العذاب .

أما إذا أجيبت دعوات الناس ، فعلا النيل ، وصار لهم خنومو^(١) . فإن الأرض حين ظهوره تصبح
ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز من الضحك ، وكل سن يقطع .

هو النيل جالب الخيرات ومفيض الكثير من الماء كولات . هو موجد جميع الأشياء الطيبة . هو سيد
جميع النطف والجراثيم . هو حلو للذين يصطفهم . هو موجد العلف للمواشي ، والقرايين لجميع الآلهة .
والبخور الذي يأتي منه أجود من كل بخور غيره . وأنه ليفيض على البلد^(٢)ين . فتمتلئ مخازن الحبوب
وتردحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء .

إنه ليضع نفسه في خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص شيئا منها . وهو منشئ السفن . وهو
في غنى عن أن تنقش باسمه نصب من الحجارة أو أن تحت له تماثيل يوضع له التاجان عليها . وهو لا يراه
الراؤون ، ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هدايا ، ولا يفننونه بالكلمات ذات الأمرار
الخفية ، ولا يعرفون مكانه ، ولا يقفون بالكتابات السحرية على صندوق ذخائره المقدسة .

وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك يا حابي ، ولا من إنسان يدخل قلبك . وأبناءؤك وذرايرهم
يتهبجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها ، ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال^(٣)
على السواء ، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراته بغير حساب . =

(١) قوله « فصار لهم خنومو » معناه انه صار الإله الذي يصنع بيده من الماء والطمى الخير
للناس . وخنومو هو معبودا يلفتين وكان يقال إنه هو الذي صنع بيده الكون ويصنع بيده الناس حين
يولدون ويصنع جميع الأشياء .

(٢) المراد بالبلدين الوجه القبلي والوجه البحري من مصر .

(٣) التاجان هما تاجا الوجه القبلي والوجه البحري .

(٤) المراد بالأرض كلها مصر بقسميها .

كانت هذه الحفلة تقام في منطقة جبل السلسلة (بين الأقصر وأسوان) وكان يحضرها الملك في كثير من الأحيان فإذا لم يستطع حضرها مندوب عنه . وقد وجدت ثلاث لوحات واحدة لرئيس الثاني ، والثانية لمرفتاح ، والثالثة

= وأينما يوجد الألف فانت تحوله إلى فرح . وحينئذ يتهج كل قلب ، ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت من الطرب . لأن التسيع الألفى^(٢) الذى يرافقك ينظم كل شيء . فالفيضان الكافى يروى الحقول ويبعث النشاط فى الرجال ، وإذا ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاشى معه إلى القضاء^(٣) . وإذا كنت تدخل فى خلال الأغاني . وتخرج فى خلال الابتهاج ، ثم إذا كان الناس يرقصون طربا =

(١) نيت هذه (Nit) غير نيت (Neith) . معبودة صا الحجر . وتقول الأساطير إنها عجلة ولدت فى الماء الأول الذى خلق منه الكون ، ولها طفلان هما تمشاحان .

(٢) التسيع الألفى موجود فى نظرية هليوبوليس عن كيفية خلق العالم . فقد كانت هذه النظرية تقول إن الخالق الأول هو أتوم رع ، وقد بدأ خلق من نفسه شو (أى الفضاء) وزوجته تفتيت . ثم جب (أى الأرض) ونويت (أى السماء) . ثم أوزريس (إله الخير والخصب) وزوجته إيزيس (وهى أخت أوزريس) وسيت (إله الشر والجذب) وزوجته نفتيس . فالجموع تسعة آلهة . وقد اقتبست المدن الكبيرة نفس هذا التسيع بعد أن حولته إلى معبودها الأكبر . فمدينة منفيس أخذته ولكنها وضعت معبودها بتاح بدل أتوم رع . ومدينة طيبة وضعت معبودها أمون مكان أتوم رع . ولكن لما كان أمون فى أول نشأته معبودا خامل الذكر فقد ضمت طيبة إليه رع فسمته أمون رع ليفيد من هذه الإضافة . على أنها لم يفهما حينئذ أن تقرر أنه ملك الآلهة وأن تصفه بجميع الأوصاف التى كانت هليوبوليس تصف بها أتوم رع . ومدينة هرموبوليس (الأشمونين) كان لها تسيع آخر قمرى رئيسه توت .

(٣) يرى ماسبيرو أن فى هذه الجملة إشارة إلى المنازعات والقضايا التى كانت تنشأ من توزيع المياه على الحقول حينما يكون النيل واطنا والفيضان قليلا ، أما حينما يكون الفيضان كافيا فلا يبق محل لمنازعات ولا لقضايا .

(٤) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال إن النص المصرى فيها مضطرب غير واضح ، وإنه جعلها فى هذه الصيغة قياسا على كتابات من هذا النوع موجودة فى متحف اللوفر كان يقال فيها إن فلانا صاحب المقام الكبير يمثل أمام الملك بين كلمات البناء ويخرج بين الأغاني . وذلك أنه كانت توجد فى البلاط الفرعونى كما كانت توجد فى بلاط بيزانس صيغ مختلفة الدرجات من الأغاني والكلمات لمقابلات الكبراء للملوك . فكان النيل واحد من هؤلاء الكبراء يستقبل بالغناء ويودع بالابتهاج .

لرمسيس الثالث . وفي كل واحدة وصف واسع لهذه الحفلة ، وأن الملك حضرها بنفسه . وفي هذا الوصف أنه كان يذبح على سبيل القربان للنيل عجل أبيض وأوز وطيور أخرى ثم كان يلقي فيه قرطاس من البردى يدعى فيه النيل إلى أن يفيض .

= حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن ثنائلك اضمحلال وفساد . وإذ ذاك يجتمع للابتهاال إليك والحصول على مائتك السنوى ، أهل طيبة جنبا إلى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس ملابس الأعياد التي كان قد تعودها . وأبناء توت ، إله الغنى ، لا يجملون بالحلى . ومثلهم التسبيح الإلهي . والليل عام شامل . ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا .

(٢) أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تنجيه إليه رغبة الخلق ، ها هي ذى كلمات مزوقة لكي تجيب ، فإن أنت أجبت وأعطيت أمواج الاقيانوس السماوى ، فإن نابرى إله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك ، والطيور لا تتردى على الجبل .

لو أن ما تعجنه يدالك كان ذهباً ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهباً ولا فضة ولا لازورد ، وإنما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة .

لقد بدأوا يشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى . وهؤلاء هم ذرارى أبنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الشناء عليك . ولا عجب فإن إله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ، ويجب أن يتكاثر عدد القطعان . حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بزهور الملويس ، وصار كل شىء ثابتاً ومن صنف جيد .

إنه النيل ، لابنائه جميع النباتات ، وإذا هو لم يطعم الناس ، هجر النعيم المساكن وأصبحت الأرض بالاضمحلال » .

(١) يصف الشاعر هنا ماذا يفعل أهل مصر حينما يكون النيل مثاقلاً أى قليل الفيضان . فيلاحظ أنه ليس فى هذا الوصف أية إشارة لفنائة تلقى فى النيل .

(٢) كانت من الأساطير الفاشية إذ ذاك أن الآلهة يمكن التسلط عليها بالوعود المازوقة ولو كانت مما لا يمكن تحقيقه ، وأن الآلهة تتخضع بهذه الوعود فتجيب صاحبها إلى ما يطلبه منها . فالمراد بقوله « ها هي ذى كلمات مزوقة لكي تجيب » أن الشاعر يرف إلى النيل كلمات مزوقة لكي يفيض .

وهذا القرطاس هو كل ما كان يلقي فيه . وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة التي فيه قوة سحرية .

فهذه كما رأيت ثلاث لوحات مختلفة ، لثلاثة ملوك مختلفين ، في عصور مختلفة ، وصفت كل منها الحفلة التي كانت تقام لدعوة النيل إلى الفيضان . وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب أن تقدم في هذه الحفلة . ولكن واحدة من اللوحات الثلاث لم تشر إلى شيء يسمى عروسا تلقى أو لا تلقى ، وإنما أشارت إلى القرطاس من البردى . ومن البديهي أن إلقاء عروس أهم بكثير من ذبح عجل وأوز وإلقاء قرطاس ، فإشارة اللوحات إلى هذه الأشياء وسكوتهما عن شيء يسمى عروسا قاطع في الدلالة على أنه لم تكن هناك عروس .

على أن كلمة « عروس النيل » ليست اختراعا محضا ، بل هي كلمة كان المصريون يقولونها ويريدون منها « أرض مصر » وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه . ولا يبعد أن يكون هذا المعنى المجازي هو الذي أدى مع الزمن إلى توهم أن هناك عروسا كانت تلقى .

هذا هو التمهيص التاريخي يثبت ألا وجود لعروس كانت تلقى في النيل ، فإذا نحن تركنا هذا التمهيص جانبا وانتقلنا إلى التمهيص العقلي وجدناه يدل على أن رواية ابن عبد الحكم لا تستقيم ولا يمكن أن تقبل . أفلا تراه يقول إن النيل بقي « لا يجري قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر هي بؤنة وأيب ومسرى » فهل يمكن أن يبقى في مصر أثر للحياة إذا جف ماء النيل فلم يجر قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر متوالية ؟ وهل من المعقول أن يجري النيل بعد ذلك دفعة واحدة ، وفي ليلة واحدة ، على أثر إلقاء البطاقة ، ستة عشر ذراعا بعد أن كان جافا لا يجري قليلا ولا كثيرا ؟

(١) كتاب Histoire de la Nation Egyptienne جزء ثان ص ١٢ مؤلفه A. Moret
وكتاب L'Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique جزء أول ص ٢٩
مؤلفه G. Maspero .

وقد فات ابن عبد الحكم أنه جعل قصته هذه في عهد عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص ، وأن مصر في ذلك العهد كانت مسيحية ولم يكن قد بقي فيها شيء من الوثنية ، بل لقد كان الرومان طاردوا الوثنية وكهنتها وأنصارها حتى انقرضت اللغة المصرية . وكان قد مضى على هذا كله بضع مئات من السنين . وقد تمس المصريون للمسيحية حينما اعتنقوها حتى كان منهم « الشهداء » الذين يعرفهم التاريخ . فإذا قيل — والقول غير صحيح — إن العقيدة الوثنية كانت تبيح تقديم عروس للنيل ، فكيف يمكن أن يقال إن العقيدة المسيحية والحكومة المسيحية اقترنا تقديم هذه العروس ؟

لا شك في أن القصة مخترعة وأن ابن عبد الحكم لم يزنها حينما رواها .

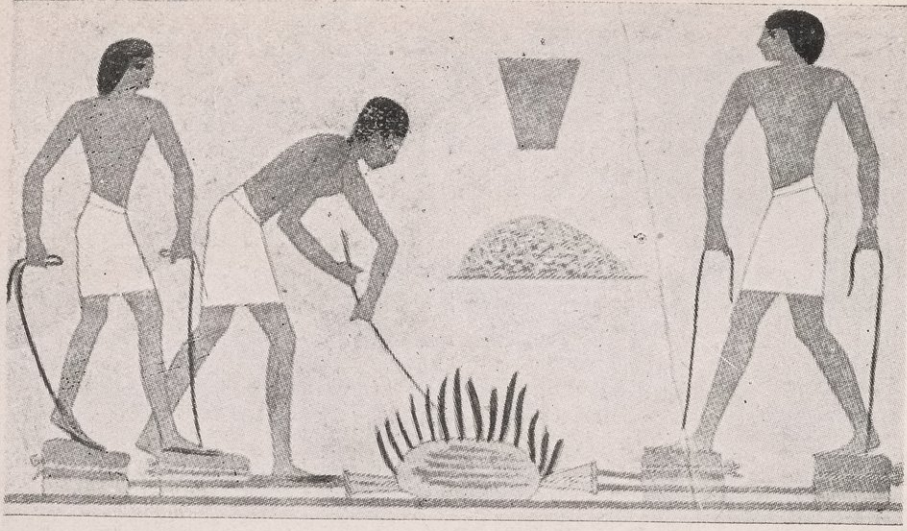


فأنت ترى مما تقدم أن الخرافات المختلفة على مصر القديمة كثيرة ، وأن الأسباب التي دعت إلى اختلاقيها كثيرة أيضا ، وإذن لم تقم المدنية المصرية على هذه الخرافات التي لم يكن لها وجود ، كلا ولم تقم على الآراء التي كان المصريون يعتقدونها والتي يظهر لنا الآن أنها فاسدة ، وإنما قامت على أسس علمية وخلقية سليمة ، ولهذا استطاعت أن تعيش أكثر من ثلاثة آلاف عام ، وأن تخطو بالإنسان إلى الأمام .

فإذا تيسر لكتابي هذا أن يساهم ، ولو بنصيب ضئيل ، في جلاء هذه الحقيقة ، فذلك ما أغتبط به ، وهو كل ما أبغى .

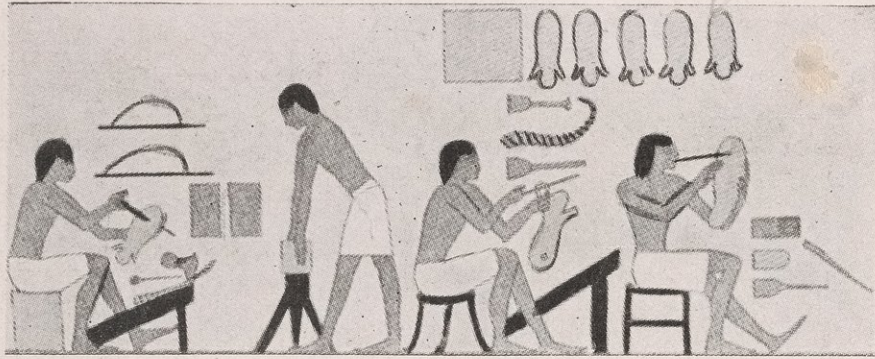
عبد القادر حمزه

مارس سنة ١٩٤٠

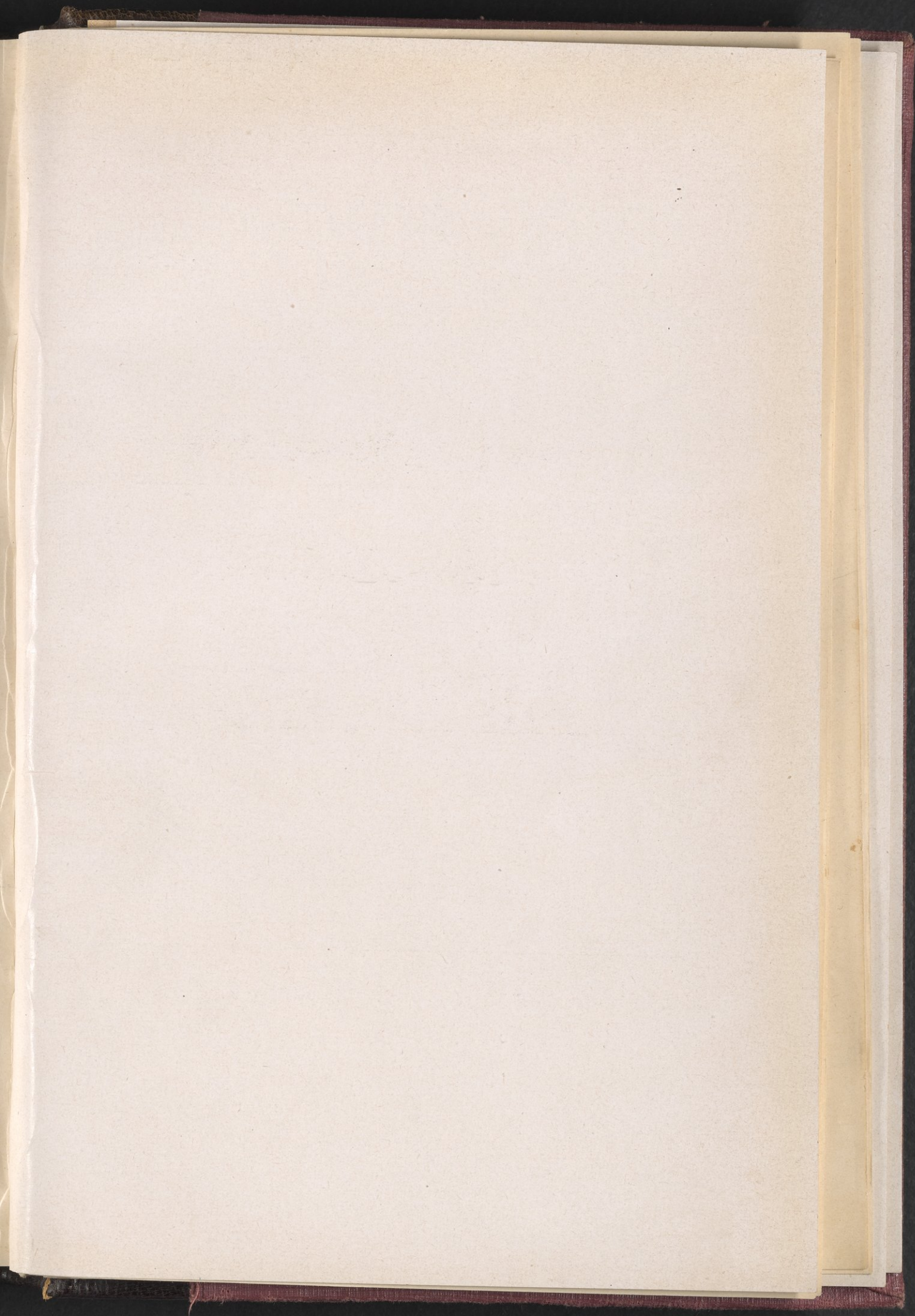


حدّادان واقفان على منفخين متصلين بموقد للنار يستعمل لصهر الحديد • وفي يد كل من الحدّادين حبلان يحرك بهما منفخه بينما زميل لهما يحرك النار في الموقد (قبر ريكارا في طيبة)

أحذية مصنوعة



مصنع لصنع أحذية من الجلد • ويرى فيه أربعة من الرجال يعملون في هذه الصناعة • وترى أيضا أحذية تم صنعها فعلقت في أعلى المكان (قبر ريكارا في طيبة)



الملائكة المصيرين؟

هل نبتت في مصر؟

أوطأت عليهما من الكلدان؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَنْعَةُ الْقُرْآنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

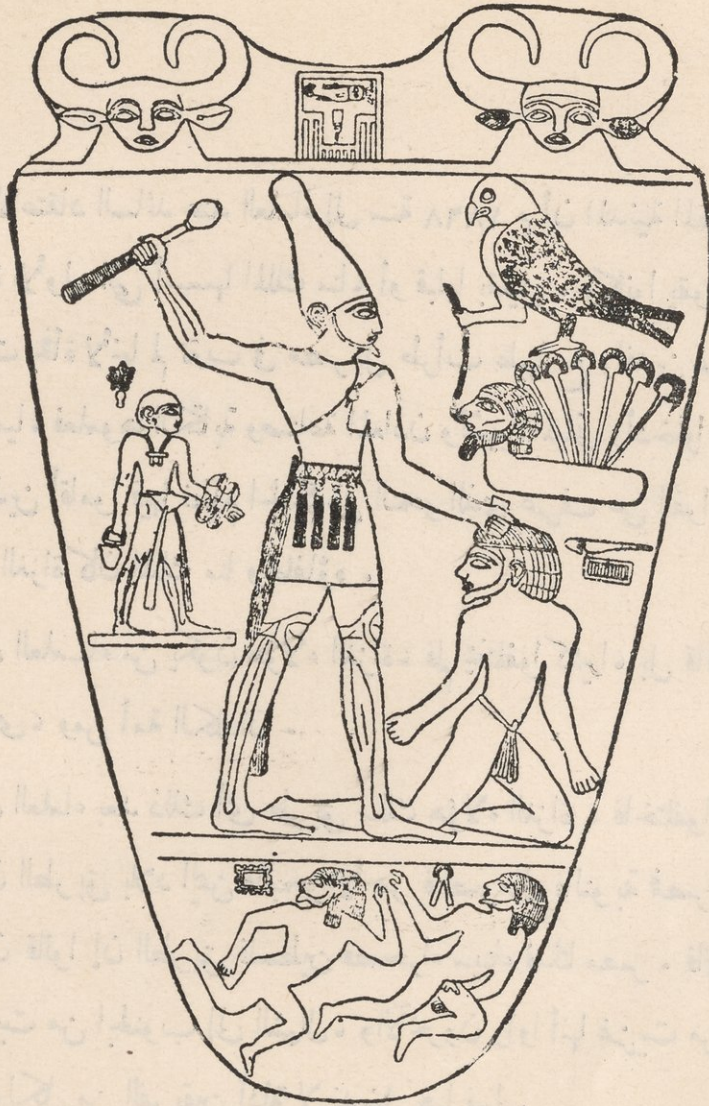
كان الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م أن المدنية المصرية تبتدى
بجأة بالأسرة الأولى التي أسسها الملك منا، أو قبلها بقليل . وكانوا يقولون إن هذه
المدنية بدأت بجأة لأنها لم تترب في مصر بل طرأت عليها مع وافدين غزوها غزوا
جربيا أو سلميا، فعلموها الكتابة وصناعة المعادن وتشيد المباني وأدخلوا إليها ديانتهم
وكانوا هم الذين أقاموا فيها نظام الحكم على النحو الذي عرف عن الفراعنة . ومن
نسل هؤلاء الغزاة كان الملك منا^(١) وخلفاؤه .

وتساءل العلماء من يكون هؤلاء الغزاة، فلم يختلفوا كثيرا، بل قالوا إنهم من
الجنس السامي، ومن أمة الكلدان .

وتساءل العلماء بعد ذلك أى طريق سلك هؤلاء الغزاة ، فاختلّفوا لأن جماعة
منهم قالوا إن الطريق بلاد اليمن فالبحر الأحمر فالصومال فالنوبة فمصر العليا ، بينما
جماعة آخرون قالوا إن الطريق فلسطين فصحراء سيناء فدلّتا مصر . فالأولون رأوا
أن مصر غزيت من الجنوب إلى الشمال، والآخرون رأوا أنها غزيت من الشمال إلى
الجنوب . ولكل من الفريقين أدلة لا ندخل هنا فيها .

ولكننا إذ ندع هذه الأدلة على غزو مصر من الشمال أو غزوها من الجنوب
لا يسعنا إلا أن نشير بإيجاز إلى أهم الأدلة التي كان العلماء يستندون إليها ، والتي
ما زال بعضهم يستند إليها ، ليقولوا إن غزاة من الكلدان غزوا مصر فكانوا هم
الذين جلبوا لها المدنية وأسسوا فيها الأسرة الأولى .

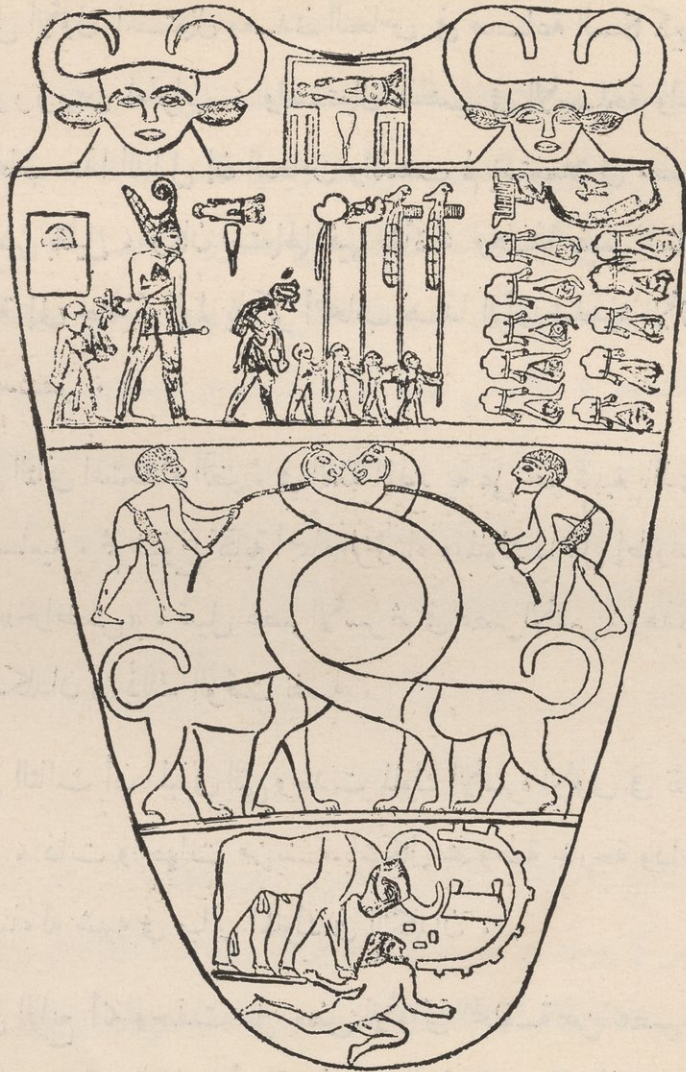
(١) لولا أن جماعة من كبار العلماء هم الذين رفعوا وما زالوا يرفعون إلى اليوم راية هذا الرأى لما عنيّنا
هنا عناية خاصة بشرحه وتفنيدّه . فمن العلماء السابقين الذى قالوا به مارييت باشا وما سيرو ولبسيوس
ونافيل وشوينفورت ومورجان . ومن العلماء الذين ما زالوا يقولون به فلندرز بيترى .



لوحة نعرمر

هذه اللوحة مصنوعة من حجر الشيست . وهذا أحد وجهيها . ويرى بعض العلماء (ومنهم برستيد) أن الملك نعرمر واحد من ملوك الأسرة الأولى ويرى الآخرون (ومنهم موري) أنه سابق عليها . وفي هذا الوجه من اللوحة يرى في وسط الخانة العليا اسم الملك . وفي الخانة التي تليها يرى الملك قابضا بيده اليسرى على شعر رأس أسير جاث أمامه من أهالي الأقاليم السابع من أقاليم الوجه البحري . ويحمل الملك في يده اليمنى مضربا يهيم بأن يضرب به هذا الأسير . وأمامه الصقر آتيا إليه وإحدى قدميه تقبض بخلبها على رأس أسير أسوي . ومن فوق هذا الأسير ستة سيقان من النبات كل واحد منها يمثل ألف أسير . فالج مجموع ستة آلاف أسير .

وكان الصقر معبود مدينة الكاب التي كانت عاصمة للملوك الحوريين أتباع حوريس . والملك يضع على رأسه التاج الأبيض ، تاج الوجه القبلي .



لوحة نعرمر

الوجه الثانى منها . فى هذا الوجه من اللوحة يرى فى الخانة العليا اسم الملك كما هو فى الوجه الأول . ويرى فى الخانة الثانية الملك لابسا التاج الأحمر ، تاج الوجه البحرى ، وهو يسير وأمامه رجال يحملون أربع شارات هى من شارات الحورين . ثم عشرة أجسام قطعت رؤوسها ووضعت بين أقدامها . فعنى ذلك أن الملك ذاهب إلى احتفال قطعت أو ستقطع فيه رؤوس الأسرى .

وفى الخانة الثالثة رسم حيوانين خرافيين لهما عنقان طويلان . وهذا النوع من الرسم هو الذى يقول بعض العلماء إنه منقول عن الكلدان . (أنظر ص ٣٨) .

وفى الخانة الرابعة ملك فى شكل ثور كبير يهدم برأسه حصنا ويدوس بقدمه أسيرا أسيويا ، أى شعبا أسيويا .

فالدليل الأول استعمال معدن النحاس في صناعة السكاكين والدبابيس
والمسامير ورؤوس الحراب ، واستعمال الذهب في الأسلحة والحلى وغيرها .
وقد قال أصحاب هذا الدليل إن النحاس والذهب لم يستعملوا في مصر إلا في عصر
ما قبل الأسر بقليل ، وكان استعمالهما فيها بخفة ، وهذا يفسر انتقال المصريين
بخفة من حالة إلى حالة . ولم يذكر أصحاب هذا الرأي الحديد لأنه دخل مصر
في عصر الأسر .

والدليل الثاني استخدام الضمائر في اللغة المصرية على نحو شبيه بالذى تستخدم به
في اللغات السامية . ثم شيوع كتابة أسماء الرؤساء والملوك داخل إطارات مستطيلة ،
تسمى الآن « خراطيش » ، قبيل عصر الأسر ثم في عصر الأسر . وهذه العادة كانت
توجد عند الكلدان في ذلك الوقت نفسه .

والدليل الثالث أن المباني التي وجدت لملوك الأسرة الأولى في نقادة ، وبخاصة
للك « عحا » ، ذات واجهات مزينة بأشكال مخروطية خارجة وداخلية . وهذا
النوع من البناء له شبيه في مباني الملوك في الكلدان .

والدليل الرابع أنه وجدت على بعض الأواني الخلفية عن عصر ما قبل الأسر
رسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة (انظر الوجه الثانى من لوحة نعرمر
في الصفحة ٣٧) . وقد وجد مثل هذا النوع من الزخرفة على بعض الأواني في الكلدان .

والدليل الخامس وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون « أتباع
حوريس » فسرت بما معناه أن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها .
وحوريس واحد من المعبودات الأولى التي عبدها المصريون .

تلك هي الأدلة ، وقد ذكرناها لأننا سنعود إليها فيما بعد لنثبت أنها واهية
لا يمكن أن يبنى عليها افتراض حادث تاريخي جسيم كغزو الكلدانيين مصر ونقلهم
المدنية إليها .



كان هذا إذن هو الاعتقاد السائد عند العلماء الى سنة ١٨٦٨ م، وكانوا لهذا يقولون إن مصر لم تعرف العصر الحجري^(١) بالترتيب الذى عرفته به أمم أوروبا ، بل كانوا يقولون إن من العبث البحث فيها عن عصور ما قبل التاريخ . ففى تلك السنة دعا المغفور له خديوى مصر اسماعيل باشا ملوك أوروبا وعلماءها للاحتفال بافتتاح قنال السويس ، وكان من بينهم العالم الجيولوجى أرسلين^(٢) ، فخاب مصر صعودا وهبوطا فاستوقفت نظره أدوات من الحجارة وجدها بالقرب من منطقة الأهرام تشبه الأدوات الحجرية التى وجدت فى أوروبا ، ثم لما بحث فى الأقصر وجد فى وادى الملوك أدوات وأسلحة حجرية مصقولة .

وبعد ذلك بستين وجد العالمان هامى^(٣) ولينرمان^(٤) فى الأقصر مجموعة أخرى من الأدوات والأسلحة الحجرية المصقولة وغير المصقولة .

وعندئذ فتح أمام المجمع العلمى المصرى^(٥) باب البحث فى هل العصر الحجري يوجد فى مصر كما يوجد فى أوروبا أولا ، فرفض العلماء المصرولوجيون أن يقولوا بوجوده ، ومنهم ثلاثة كانوا فى ذلك الوقت من زعماء المصرولوجيا وهم مارييت باشا^(٦)

(١) العصر الحجري هو العصر الذى كانت فيه أدوات الانسان وأسلحته من الحجر . وهو ينقسم إلى عصرين كبيرين : أحدهما عصر الحجر غير المصقول ، والثانى عصر الحجر المصقول . وذلك أن الانسان حينما بدأ يتخذ من الحجر أدواته وأسلحته لم يكن يعرف كيف يصقلها ، ثم جاء عصر استطاع فيه صقلها ، وبعد ذلك بدأ ينتقل إلى عصر استعمال المعادن . فباستعمال المعادن ، ولا سيما النحاس والذهب والبرنز ، يبدأ العصر التاريخى لأن الانسان بدأ فيه يكتب وقيم المباني التى نتحدثنا الآن آثارها الباقية بأخباره .

والعصور السابقة على استعمال المعادن تسمى كلها عصور ما قبل التاريخ .

(٢) (Arcelin) . (٣) (Hamy) .

(٤) (Lenormant) . (٥) (Institut Egyptien) .

(٦) (Mariette Pacha) وكان مديرا لمصلحة الآثار المصرية .

ولبسيوس^(١) وشاباس^(٢) فانهمز القائلون بوجود العصر الحجري . وكانت أعظم حجة لهؤلاء الرافضين أن الأدوات والأسلحة الحجرية توجد في بعض قبور الدولة القديمة ، أى في الوقت الذى كان المصريون فيه يصنعون المعادن صناعة راقية . فالعصر الحجري مختلط عندهم إذن بعصر المعادن ولا يمكن فصل أحدهما من الآخر .

قالوا : وسبب هذا أن المدنية طرأت على مصر فجأة من الخارج بينما كان أهلها لا يزالون في الحالة البدائية ، وبذلك اختلطت عندهم المدنية بالبدائية ، وكان الأثر الملموس لهذا وجود الأسلحة والأدوات الحجرية في قبور الدولة القديمة إلى جانب الأسلحة والأدوات المعدنية .

وكانت هذه الهزيمة قاسية ولكنها لم تثن من هممة الباحثين عن العصر الحجري في مصر ، فتوالت بحوثهم ، وتوالت معها كشوفهم . ولا نستطيع هنا أن نخوض في هذه وتلك لأن الخوض فيها كتباً خاصة ، فيكفي أن نقول إن البحوث والكشوف استمرت بغير انقطاع وإنها ما زالت مستمرة إلى الآن . وقد ساهم فيها كثير من كبار العلماء ، نذكر منهم ديلائو^(٣) في سنة ١٨٧٢ وكان محل بحثه إسنا وأسوان ، والدكتور ريل^(٤) في السنة نفسها وكان محل بحثه حلوان ، والسير جون لوبوك^(٥) في سنة ١٨٧٣ ، والدكتور شوينفورت^(٦) البعثة النمساوية الذى استمر يدرس أرض مصر وأعلى النيل نحو أربعين سنة ، وفلنדרز بترى^(٧) وچاك دى مورجان^(٨) في سنتي ١٨٩٦ و ١٨٩٧ ، وإليه وإلى مساعديه ليجرين وداريسى^(٩) وجيكيير^(١٠) الذين

(١) (Lepsius) وهو من كبار المصرولوجيين الألمانين .

(٢) (Chabas) وهو من خلفاء شامبوليون الشاب في خدمة المصرولوجية .

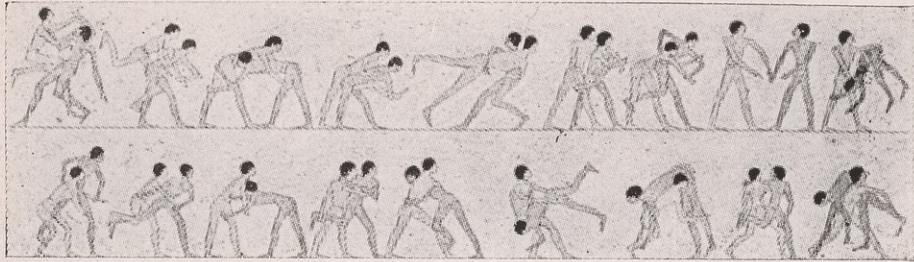
(٣) (Delanoue) . (٤) (Dr Reil) .

(٥) (Sir J. Lubbock) . (٦) (Schweinfurth) .

(٧) (Flinders Petrie) وهو من المصرولوجيين الانجليز المعروفين في العصر الحاضر .

(٨) (J. de Morgan) وكان مديراً لمصلحة الآثار المصرية .

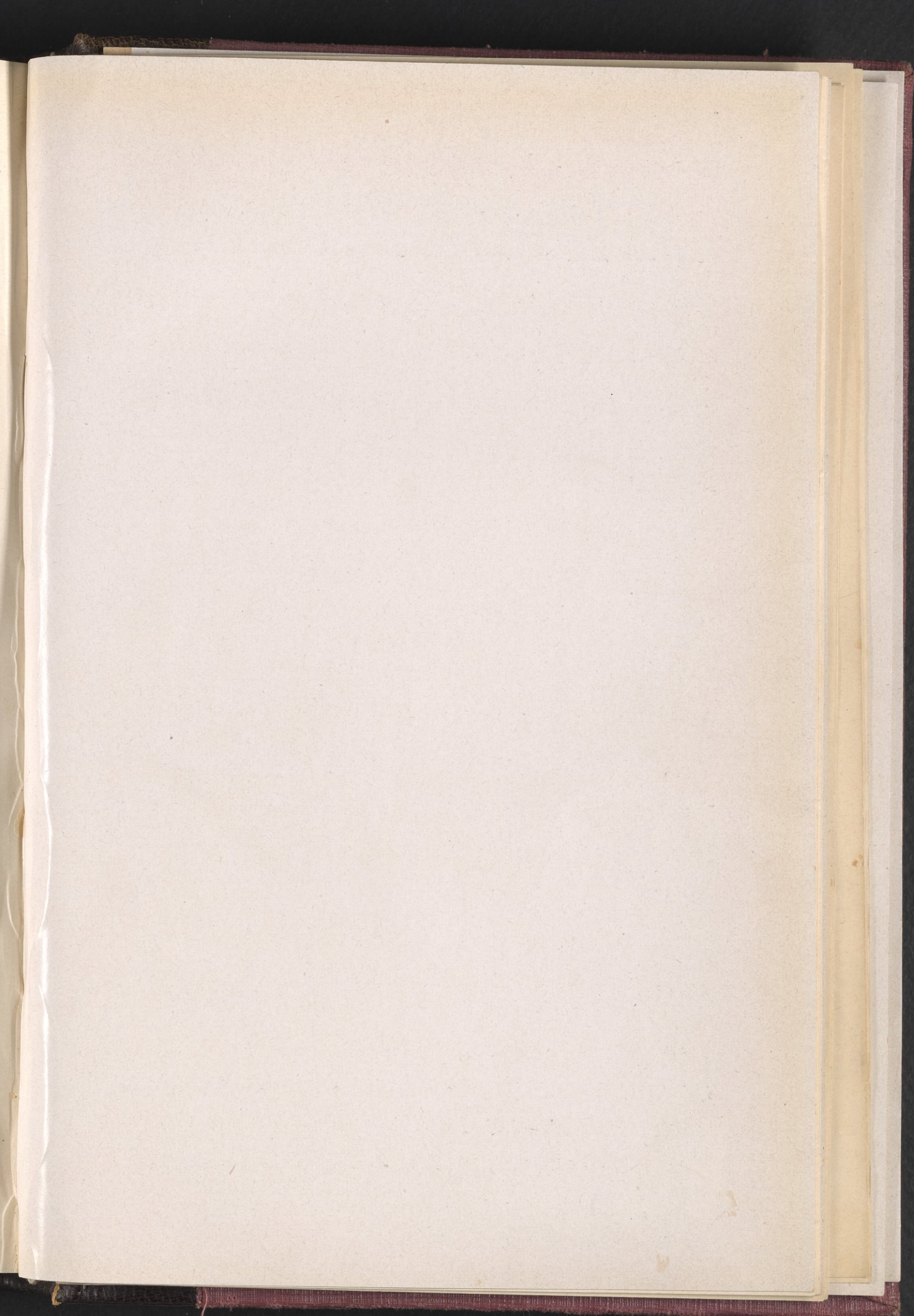
(٩) (Legrain) . (١٠) (Daressy) . (١١) (Jequier) .



بعض الألعاب الرياضية للجنود المصريين (مقبرة آموني — أمونخات في بني حسن)



رقص حربى يرقصه الجنود المصريون قبيل المعركة • وترى فى أيديهم القسي والسهام (مقبرة خيتي في بني حسن) •
والصورة تمثل جنود إقليم كان يسمى « إقليم الغزالة »



كانوا موظفين تحت رياسته في مصلحة الآثار المصرية يرجع كثير من الفضل في تأييد الرأي القائل بوجود العصر الحجري في مصر^(١) . ثم أميلينو^(٢) في سنة ١٨٩٥ وسنين تالية . ثم العالم الأمريكي برستيد^(٣) الذي توفي منذ ثلاث سنوات . ثم العالم البايجيكي كاپار^(٤) ، وهو الآن رئيس المعهد الأثرى المصرى في بروكسل .

ويطيب لنا هنا أن نذكر أن بعض المصريين اشتغلوا بهذا البحث وانصرفوا إليه انصرافا علميا صحيحا فحصلوا فيه على نتائج قدّرها لهم العلماء . ومن هؤلاء المصريين المغفور له الأمير كمال الدين حسين وكان أكثر بحوثه في الواحات والصحراء . ثم المغفور له أمين العمرى وقد كشف منذ بضع سنوات في شمالى حلوان عن قرية كاملة من قرى العصر الحجري ثم توفي بعد كشفها بقليل فسامها العلماء باسمه اعترافا بفضله . ثم الأستاذ مصطفى عامر وهو يعمل الآن لحساب الجامعة المصرية في منطقة المعادى وقد كشف هو أيضا عن قرية من قرى العصر الحجري .

وهذه الأسماء وحدها — ونحن لم نذكر غير البارز منها — تدل على مقدار الجهود التى اتجهت إلى البحث في عصور ما قبل التاريخ في مصر، وقد أدت كلها إلى نتيجة واحدة لم يبق الآن شك فيها ، وهى أن عصور ما قبل التاريخ توجد في مصر كما توجد في أوربا ، وبالترتيب نفسه . ففيها عصر الحجر غير المصقول بأقسامه الفرعية ، وفيها عصر الحجر المصقول بأقسامه الفرعية أيضا ، وفيها أخيرا عصر الانتقال رويدا رويدا من الحجر المصقول إلى المعدن .

ولكن هناك مع ذلك فارقا بين المصرى والأوروبى في العصر الحجري ، أو بعبارة أصح بين المصرى وغيره من جميع أعم العالم . وهذا الفارق هو أن المصرى اجتاز عصور الحجر

(١) من أعجب ما يقال هنا أن إثبات وجود العصر الحجري في مصر كان من الأدلة القوية الى هدمت نظرية طروء المدنية على مصر بواسطة غزاة من الكلدان ومع ذلك كان چاك دى مورجان من القائلين

بها وقال بها أيضا فلندرز بترى . (٢) (Amelineau)

(٤) (J. Capart)

(٣) (J. H. Breasted)

بسرعة بينما الأمم الأخرى تأخرت فلم تخرج منها إلا بعد المصـرى بأزمنة تتفاوت بتفاوت
استعداد كل منها، فهي عند البعض مئات وعند البعض الآخر ألوف من السنين .
والشعب الوحيد الذى يشترك مع الشعب المصرى فى هذه الميزة هو الشعب
الكلدانى، لأن الطبيعة هيأت له من الأسباب فى وادى دجلة والفرات مثل ما هيأته
لشعب المصرى فى وادى النيل^(١) . وإنما الذى يجب أن نسجله هنا هو أن وجود
العصور الحجرية فى مصر هدم جانباً من النظرية القائلة بأن المدنية المصرية ليس لها
جذور قديمة فى مصر وإنما طرأت على يد غزاة من الكلدان غزوا مصر غزوا
حرباً أو سلمياً .



إذن توجد فى أرض مصر مخلفات لعصور ما قبل التاريخ، وإذن يستطيع العلم
أن يرشد إلى الحالة التى كانت عليها مصر وكان عليها سكانها منذ أقدم هذه العصور،
فيحسن أن نقول فى هذا كلمة .

قال العلماء إن الإنسان انتشر فى عدة نقاط فى أوربا وأفريقيا وآسيا فى عصر
واحد تقريباً . ولكن الأرض التى كانت الأسباب الطبيعية المجتمعة فيها إذ ذاك
تجعلها أصحح للحياة من غيرها هى أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين (دجلة
والفرات) . ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمة
العالم الأخرى لا تزال على الحالة البدائية .

والمراد بصلاحية أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين للحياة أكثر من
غيرهما أن أوربا وآسيا كانتا فى ذلك الوقت تهاجمهما سيول من الثلج تلجئ الإنسان

(١) دلت كشوف حديثة على أن هناك وادياً ثالثاً اشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة
فى هذه الميزة وفى نتائجها . وهذا الوادى هو وادى نهر الهندوس فى الهند . ويرى كثير من العلماء أن
الكلدانين الذين أنشأوا أول حضارة فى الكلدان كانوا من أهل هذا الوادى الهندى نزحوا إلى دجلة
والفرات وهم السومريون المعروفون فى تاريخ الكلدان .

فيهما إلى أن يعيش في مغارات الجبال وتمنعه من أن يفارق الحالة الوحشية؛ ويقال إن عدد السيول التي هاجمت أوربا أربعة وإن مدتها تستغرق ألفا من السنين . وكانت الأرض الوحيدة التي انقطعت منها هذه السيول هي الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط في أفريقيا وآسيا .

ولكن هذه الأرض لم تكن كلها في مستوى واحد من حيث الصلاحية للحياة بل كانت فيها بلاد تمتاز على بلاد . ومن هذه البلاد الممتازة وادي النيل ووادي ما بين النهرين .

قال العلماء أيضا : وكان الوجه البحرى كله غير موجود ، وكانت مياه البحر المتوسط تضرب في جبل المقطم حيث توجد القاهرة الآن . وكانت الأمطار غزيرة في صحراء أفريقيا الكبرى ، فكانت تجري في هذه الصحراء أنهار ، وكانت أرضها تزدحم بالغابات والأشجار والحيوانات ، وحدث بعد ذلك تحول في الأمطار فجعلت تقل شيئا فشيئا في الصحراء وتزداد شيئا فشيئا في وسط أفريقيا ، وحينئذ بدأ نهر النيل يوجد ويشق طريقا له من أواسط أفريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط .

ولما جرى النيل أخذت جموع من الإنسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع ، ولكن من المباحث التي بحثها برستيد أنه حفر في مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا في بعض النقط و ٣٠ مترا في بعضها الآخر ، فوجد أواني من الفخار وقوالب من الطوب ، ووجد على مثل هذا العمق بالقرب من دمياط جمجمة إنسان . ولما كانت طبقة الطمي التي يكسوها النيل أرض الدلتا كل سنة معروفة على وجه التقريب ، فقد حسب برستيد فوجد أن الإنسان الذي عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأواني والقوالب يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت . ولا يزال باب البحث في هذا الموضوع مفتوحا ، ولا تزال الكلمة الأخيرة فيه متروكة للمستقبل .

ومر إنسان وادى النيل بالعصر الحجري فكانت أسلحته التي يقاتل بها ويصطاد الحيوانات، من الحجر غير المصقول، ثم تقدمت فصارت من الحجر المصقول . وفي هذا العصر الأخير يشهد العلماء جميعا بأن تقدم الإنسان في مصر كان سريعا ، وكان يفوق مثله في أوربا . فألات الإنسان في مصر وأسلحته وأدواته تشبه آلات الإنسان في أوربا وأسلحته وأدواته ، ولكنها أتقن منه صقلا وأحسن صنعا . وفي هذا الوقت عرف الإنسان في مصر كيف يصنع الفخار الأحمر والأسود ، وكيف يصنع منهما أواني ، ثم استطاع أن يزين هذه الأواني برسوم السفن والحيوانات والنباتات .

وفي هذا يقول موري في كتابه ^(١) (Des Clans Aux Empires) في الصفحة ١٤٠ :
 "لم تجدد الطبيعة في ذلك الوقت على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لتتجمع أناسي كما جادت على مصر . ولهذا لا توجد في أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هي في إتقان الصناعة التي توجد من هذا النوع في مصر . على أنه لم يوجد في ما بين النهرين ، ولا في سوريا أي أثر للإنسان سابق على ٤ آلاف سنة قبل الميلاد ، ما خلا نقطة قليلة في فلسطين لم يحدد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول . وفي هذا الوقت أي في حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد نرى المصريين يدخلون في العصر التاريخي من عصور المدينة ^(٢) " .

(١) الأستاذ A. Moret كان الرئيس الشرقي لمتحف Guimet في باريس ومدير مدرسة الدراسات العليا فيها . وهو من كبار المصرولوجيين في العصر الحاضر وله فيها مؤلفات عدة . وقد توفي منذ سنتين .
 (٢) هذا شاهد من الشواهد التي تهدم نظرية القائلين بأن المدينة طرأت على مصر فجأة على يد غزاة من الكلدان . ولهذا يستمر الأستاذ موري في كلمته تلك فيقول :
 "يحسن إذن أن نعزو إلى عبقرية سكان مصر الأولين ، وإلى الخصائص الاستثنائية التي توافرت في وادى النيل ، تقدم هؤلاء المصريين المبكر . وليس هناك دليل على أن هذا التقدم راجع إلى غزاة أجنبية كانوا قد نالوا من المدينة أكثر مما ناله المصريون . فان وجود هؤلاء الأجانب ، أو على الأقل وجود مدينتهم ، أمر يحتاج إلى إثبات" .
 ونقول بعد ذلك إن الأستاذ موري كان من الذين جروا مع نظرية الغزاة الكلدانيين ولكنه عدل عنها في مؤلفاته الأخيرة .

ويقول برستيد في الجزء الأول من كتابه (A History of Egypt) في الصفحة ٢٩ من الترجمة الفرنسية المطبوعة في بروكسل سنة ١٩٢٦ :
 ”إن الأسلحة والأدوات التي وجدت في مصر من الحجر الصوان أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التي وجدت من هذا النوع في جميع بلاد العالم“ .

(١)
 ويقول جوستاف جيكيير :

”وصل العمل الفنى فى صقل الحجر فى عصر الحجر المصقول فى مصر حدّا من الاتقان والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى أى بلد آخر . وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضا“ .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر سكاكين ذات حدين كل منهما يماثل الآخر ، وأساور ، ورؤوس سهام ، كلها من الحجر الصوّان . ويشهد مورجان أنها ”ليست أدوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة أيضا ، تفوق جميع ما خلفه الانسان فى عصر الحجر المصقول فى جميع البلاد الأخرى“ (٢) .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود وألواح من العظام عليها رسوم مختلفة . ويرى مورجان أن وجود هذه الأشياء مضافا إليه الرسوم التى وجدت على الألواح العظمية يدلان على أن المصرى إذ ذاك لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات لىأكل من لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى غرض آخر أيضا هو اقتناص ما يمكن استخدامه منها كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار .

ووجدت مع هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح . ووجدت أسلحة محارث مصنوعة من الحجر الصوّان (٤) . فدلّت هذه وتلك على أن المصرى

(١) (Gustave Jequier) ص ٥٧ من كتابه (Histoire de la Civilisation Egyptienne) المطبوع فى باريس فى سنة ١٩٣٠ ، والأستاذ جيكيير هو الآن مدرّس علم المصنولوجيا فى جامعة نوشاتل فى فرنسا .

(٢) (J. de Morgan) فى كتابه (L'Humanité Préhistorique) ص ١٠٧ .

(٣) المصدر السابق من ص ٩٦ الى ص ١٠٠ .

(٤) سلاح المحراث هو الجزء الأمامى منه الذى يشق الأرض .

في عصر الحجر المصقول عرف الزراعة واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لغذائه من النباتات الوحشية ^(١) .

وهنا لا يفوتنا أن نقول إن نباتات الشعير والذرة والقمح لم يجدها الإنسان أول الأمر كما هي الآن ، بل وجدها نباتات وحشية فأخذ يعالجها قرونا وقرونا حتى استخلص منها الأنواع الصالحة لغذائه . ويرى كثير من العلماء أن الأدلة كافية على أن الإنسان في مصر هو أول من استخلص — على الأقل — القمح المعروف الآن ، من القمح الوحشي .

وقد قال شوينفورت الذي تقدّم ذكره إن القمح الوحشي يوجد الآن في بعض المناطق المرتفعة في فلسطين وإيران . وعنده أن هذا دليل على أن المدنية المصرية دخلت مصر على يد غزاة من الكلدان كانوا هم الذين حملوا إليها نبات القمح . ولكن برستيد يخالفه في هذا ويقول إن نبات القمح الوحشي وجد في وادي النيل كما وجد ولا يزال يوجد في بلاد أخرى . فوجوده في فلسطين وإيران ليس دليلا على أن المصريين لم يستخلصوا منه نبات القمح المعروف ^(٢) .

وتلا هذا أن اخترع الإنسان في مصر ^(٣) الكتابة وتدل إشارات ورموزها على أنها ولدت في مصر خطوة بخطوة ، وترقت فيها خطوة بخطوة . فهي اختراع مصري محض . ولم يصل هذا الاختراع إلى اللغة التي كانت معروفة في عهد الملك منا إلا بعد مئات ومئات من السنين . وبالكتابة يبدأ العصر التاريخي .

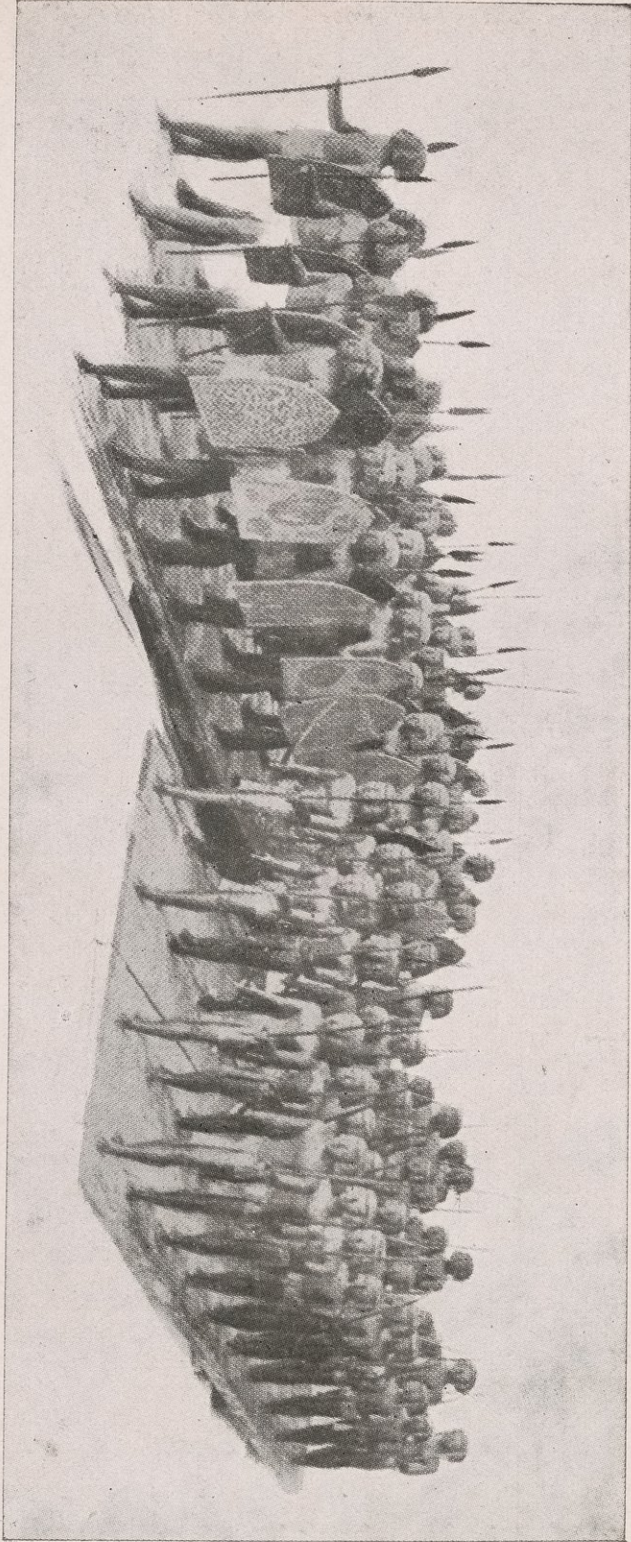


وقد قلنا فيما تقدّم إن النيل جمع سكان مصر الأولين حوله ، فهنا نقول إنه لم يجمعهم حوله فقط ، بل رباهم وعلمهم ، حتى أخرجهم من حالة الوحشية

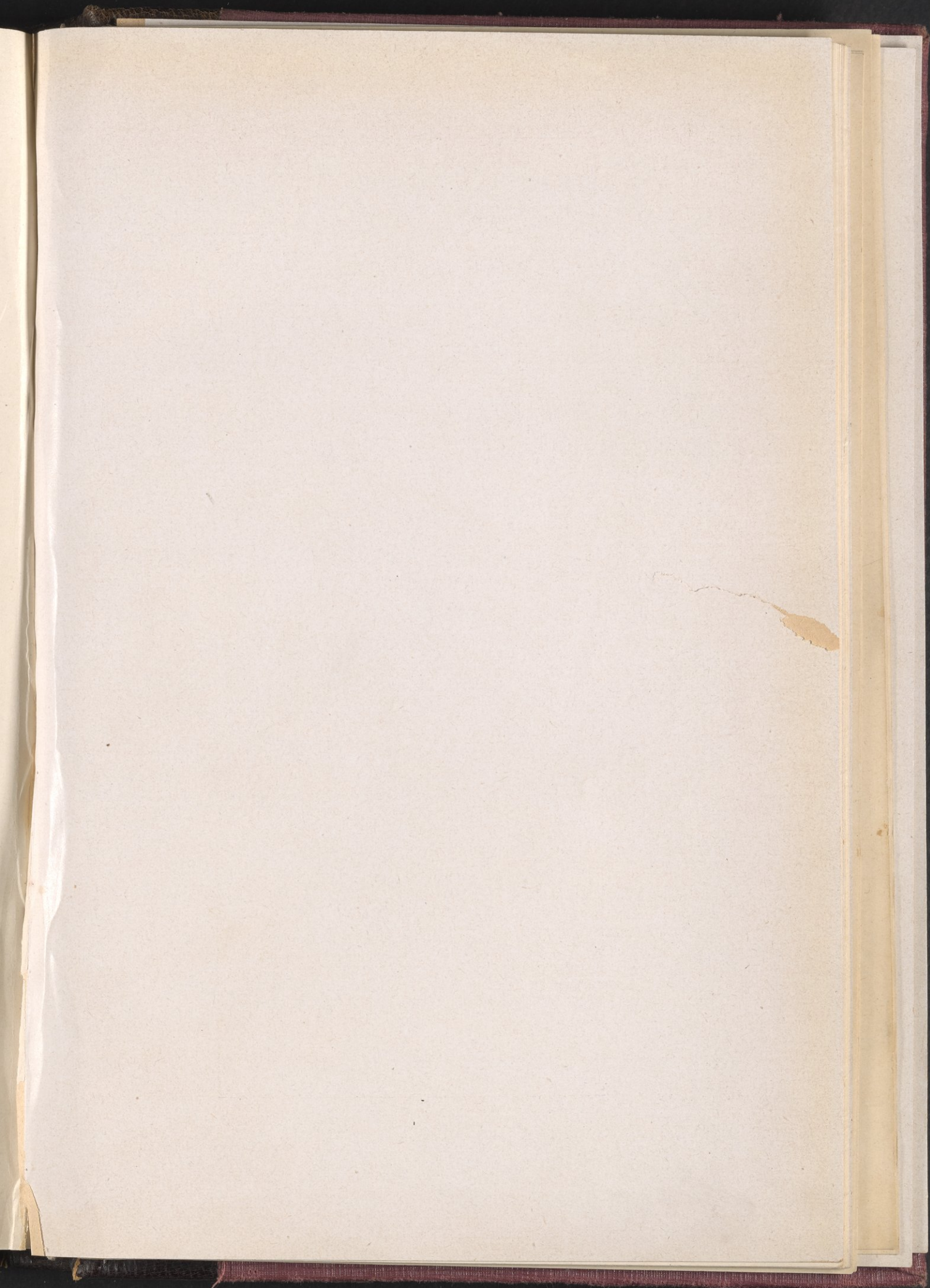
(١) كتاب (J. de Morgan) الذي مر ذكره — الفصل الثاني من الجزء الثاني .

(٢) كتاب (The Origins of Civilisation) المعاد طبعه في سنة ١٩١٩ ص ٣١٦

(٣) أكثر العلماء على أن الكتابة المصرية هي التي عمد الفنيقيون إليها فاختزلوا إشارات واستخلصوا منها الحروف الفنية . ومعروف أن هذه الحروف هي الأصل في الحروف الأوربية .



المائة الخفيفة والمائة الثقيلة من الجيش المصرى فى عهد الأسرة الحادية عشرة • وجدت هذه الصورة فى مقابر أسبوط وهى الآن فى المتحف المصرى)



إلى حالة المدنية . وذلك أن أولئك السكان رأوا النيل يفيض في وقت معين من السنة فيغرق مساكنهم ويلجئهم إلى الهرب منه إلى مناطق بعيدة عن الغرق . ثم ينسحب ويقل خطره فيعودون إلى حيث كانوا لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بعيدا عنه . فقادهم ذلك إلى إقامة حواجز بينهم وبينه ثم إلى تقوية جسوره .

وعند ما ينسحب النيل يترك الأرض التي يخسر عنها مكسوة بالطمي صالحة للزراعة . ولكن الزراعة تحتاج إلى محاريث لشق الأرض ، وإلى قنوات يجرى الماء فيها ، وإلى آلات للرى ، فصنع المصري المحاريث من الحجر الصوان وجرها بنفسه في مبدأ الأمر ثم جرتها الحيوانات المستأنسة . وفي الوقت نفسه شقت القنوات وجرى فيها الماء .

وكان سكان مصر يعيشون قبل الزراعة على صيد الحيوانات والأسمك ثم على الحشائش والنباتات المتوحشة وثمار الأشجار ونباتات البردى واللوتس التي كانت تنبت في المستنقعات . فلما عرفوا الزراعة وألفوا التغذية بمحصولاتها أدى بهم ذلك ، بعد تجارب استمرت قرونا وقرونا ، إلى استخلاص القمح والذرة والشعير من النباتات الوحشية .

وكان من الضروري لهم في حالتهم هذه الجديدة استخدام بعض الحيوانات فاستخدموا الحمار والخروف والثور .

وكان خطر الغرق لا ينفك يهددهم كل سنة ، وكان شره لا يقتصر على جماعة منهم دون جماعة ، فقادهم ذلك إلى أن يتعاونوا على دفعه وتنظم مجرى النيل .

وابتدأ هذا التعاون أول الأمر في حدود ضيقة بين كل جماعة تعيش في منطقة واحدة ، ثم امتد من منطقة إلى أخرى . ودعا هذا إلى أن تكون هناك سلطة تنظم التعاون بين أفراد المنطقة الواحدة ثم بين المناطق المتجاورة ، فوجدت الحكومات الإقليمية ، ثم الحكومة الواحدة في بضعة أقاليم ، ثم الحكومة الواحدة في كل من

الوجه البحرى والوجه القبلى ، ثم الحكومة الواحدة فى الوجهين معا ، وصارت مصر بلادا واحدة ومملكة واحدة .

فالنيل على هذا هو الذى علم سكان مصر الأولين تكوين الجماعات ، وبث فيهم روح التعاون ، فنقلهم من حالة الرجل الهائم على وجهه العائش مع الحيوانات وبين الغابات ، إلى حالة الرجل العائش فى وسط الجماعة من أمثاله المتعاون معهم الخاضع لسلطة حاكمة منظمة .

والنيل هو الذى علم المصريين الزراعة ، حينما كان غيرهم لا يزال يعيش على النباتات الوحشية ، وعلى صيد الحيوانات ^(١) . وهذا الانتقال من المعيشة على صيد الحيوانات وعلى النباتات الوحشية إلى المعيشة على الزراعة هو خطوة كبيرة فى تاريخ المدنية فى العالم . وهو الأساس الأول فى وجود المدنية المصرية .

وبهذا يعترف مورى فيقول إن المجهودات العجيبة المنظمة التى بذلها المصرى فى هاتيك القرون « هى التى هيات للندنية أن تظهر لأول مرة على وجه الأرض » ^(٢) .

ونحن نضيف إلى ذلك أن النيل هو الذى قاد المصرى فى مجهوداته هذه وغذاه بالعناصر الأساسية للندنية ، فالمدنية على هذا لم تطرأ على مصر من الخارج ، بل هى بنت النيل ، بنت مصر .



والآن نطن أن الحقائق العلمية التى مرت هدمت جانبا كبيرا من الفكرة القائلة بطروء المدنية على مصر مع غزاة من الكلدان ، ودلت على أن هذه المدنية نشأت

(١) يرى پيرى (M. Perry) فى كتابه : (The Growth of Civilization) ص ٣٠ أن مصر هى المهة الأول للزراعة لأن فيضان النيل وطميه الخصب كانا كافين لإنبات البذور التى تلقى على الأرض من غير أى عمل يعمل الإنسان .

قال : " ولقد كان يكفى حينئذ أن يوجد العبرى الذى يشق قنوات تجرى فيها مياه النيل لكى تنتشر هذه وتنتشر معها الزراعة فى سطح أوسع " .

(٢) كتاب (Des Clans Aux Empires) ص ١٤٥

في مصر ، وخطت فيها خطواتها واحدة بعد أخرى ، من العصر الحجري إلى عصر التاريخ . وظاهر أن على الذين يقولون بالغزو أن يقدموا دليلا تاريخيا ، وإلا كانوا يبنون قولهم على قرائن هي أدخل في باب الأمور الفرضية منها في باب الحقائق العلمية . والدليل التاريخي الوحيد الذي يلجأون إليه هو — كما تقدم — وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بأن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التي عبدها المصريون . هذا هو دليلهم التاريخي الوحيد ، ومن الذين يقيمون له وزنا كبيرا ماسيرو وأحمد كمال باشا . ولكن هذا الدليل يسقط بقليل من التأمل ، لأن كل ما فيه — إذا أخذ على علته وسيأتي أنه معلول — هو أن أتباع حوريس وفدوا على مصر من جنوبها ، وجنوب مصر قد يكون بلاد النوبة ، أو قد يكون أعلى النيل ، كما قد يكون إقليما من الأقاليم المصرية الجنوبية مثل وادي حلفا أو أسوان ، ولكنه لا يمكن أن يكون بلاد الكلدان ولا بلاد اليمن .

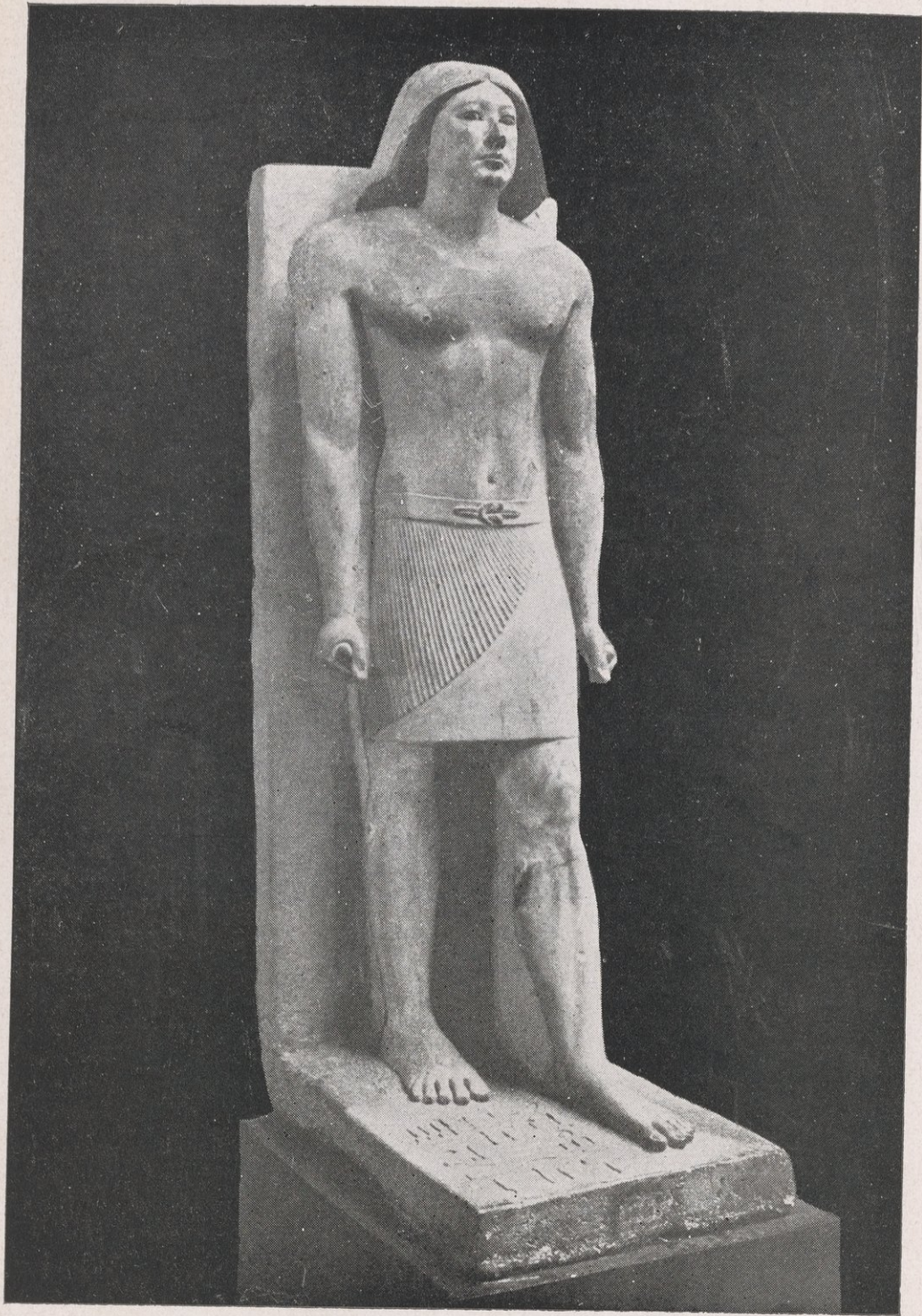
ثم إن قصة أتباع حوريس مطعون في قيمتها التاريخية لأنها لم تنقش على معبد إدفو في العصر الأول من عصور المدنية المصرية ليتمكن أن يقال إنها تريد لحادث تاريخي وقع قبل عصر الأسر ، ثم لما جاء هذا العصر كان أثره لا يزال ماثلا في الأذهان . بل نقشت القصة في عصر البطالسة ، لأن المعبد نفسه بنى في هذا العصر على أنقاض معبد قديم ، فبين الوقت الذي نقشت فيه القصة والوقت الذي يعزى فيه إلى أتباع حوريس أنهم وفدوا على مصر أكثر من ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف على الأقل .

(١) كتاب « الحضارة القديمة » من ص ٣٣ الى ص ٥٢ . ولكن كمال باشا يقول إن أتباع حوريس هم قوم وفدوا من جنوب بلاد العرب ولا يذكر الكلدان . ولا نعرف نحن أية مدنية كانت في جنوب بلاد العرب في العصر الحجري فنقلها أصحابها إلى مصر .

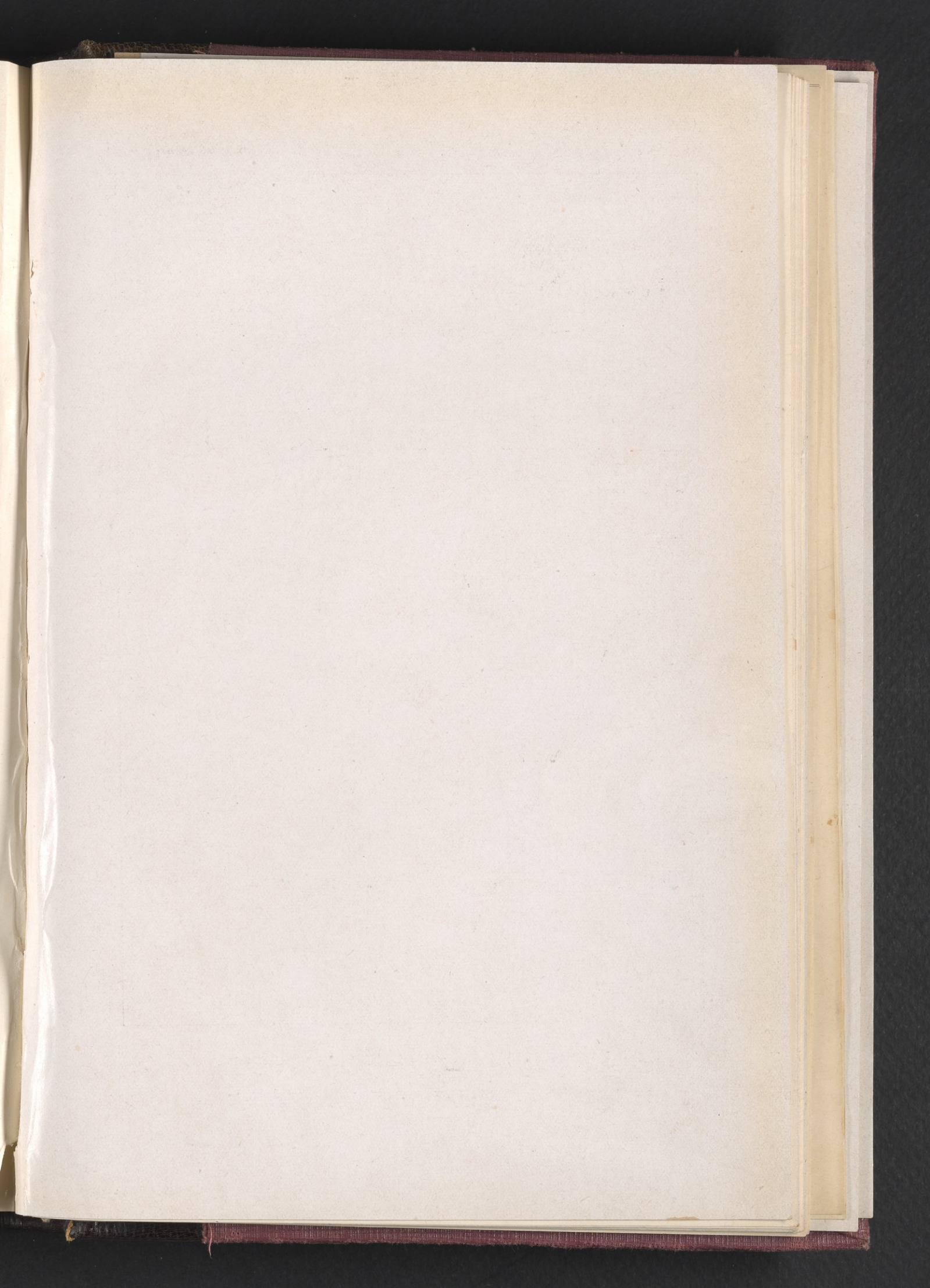
وقد يقال مع ذلك إن البطالسة حينما جددوا معبد إدفو نقشوا عليه تلك القصة نقلا عن المعبد القديم . وهذا غير بعيد ، ونحن لا نجادل فيه ، وخاصة لأن كلمتي « أتباع حوريس » وردتا في بعض نصوص الأهرام التي شيدت في عهد الأسرة الخامسة . ولكن موري أثبت^(١) أن حوريس المعنى بهذه القصة ليس حوريس إدفو القديم وإنما هو حوريس بن إيزيس ، وهما معبودان مختلفان . ونصوص القصة تدل على ذلك دلالة صريحة . وهذه القصة تذكر حوريس على أنه لقب ملكي ، وعلى أنه مندج مع رع ، لا على أنه معبود وكفى . وحوريس لم يصر كذلك إلا في نهاية الأسرة الثانية . وإذن ليس المعنى بالقصة حوريس إدفو الذي لا محل للشك في وجوده قبل وجود الأسر ، وإنما المعنى حوريس آخر ، هو حوريس بن إيزيس الذي خرجت قصته من الوجه البحري وسرت عبادته إلى الوجه القبلي ثم اندمجت في عبادة رع وصار الملوك — منذ الأسرة الثانية — كلما ارتقوا العرش حملوا أسماء مشتقة من اسمه بجانب أسمائهم الأصلية .

وقال موري إن السبب في هذا الخطأ راجع إلى أن ماسيرو أخطأ في قراءته إحدى كلمات القصة ، وهي كلمة (mesentiou) فذهب إلى أن المراد بها قبيلة كانت تسمى « قبيلة الحدادين » كانت تقيم في أعالي النيل ، لأن الكلمة تؤدي هذا المعنى في اللغة المصرية . ثم استنتج ماسيرو من ذلك أن هذه القبيلة هي التي وفدت على مصر بقيادة حوريس . وقد أرشد موري إلى هذا الخطأ فأثبت الكلمة على صحتها وهي (mesenou) ومعناها « حملة الخطاطيف » أي أهل الإقليم السابع من أقاليم الدلتا ، وكانوا يلقبون بذلك لأنهم كانوا معروفين بصيد عجول البحر من البحيرات المجاورة لهم بالخطاطيف . ولهذا كان الخطاف رمزا قديما لإقليمهم . وإذن تكون القصة منصرفة إلى حوريس بن إيزيس ، وإلى زحفه من الوجه

(١) كتاب (Le Nil et la Civilisation) ص ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧



الكاهن رع — نوفر (في عصر الأسرة الخامسة) ويعتبر تمثاله هذا من روائع الفن في العهد المنفي



البحرى الذى نشأ فيه، ثم إلى حروبه ضد سيت عدو أبيه أوزيريس، بعكس ما ذهب إليه ماسبيرو .

وغزو الوجه البحرى للوجه القبلى فى العصر الذى يسمى «عصر ما قبل الأسر» ، وهو الذى سبق عصر الملك منا ببضع مئات من السنين ، صار الآن من الأمور التى يسلم بها أغلب العلماء . ولهم على ذلك أدلة قوية لا محل هنا للافاضة فيها .



هذا هو الدليل التاريخى الوحيد، أو الشبيه بالتاريخى ، قد انهدم من جميع نواحيه ، فبقيت الأدلة الأخرى وهى استعمال معدنى النحاس والذهب ، واستخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدمها به الشعوب السامية ، وشئ من الشبه بين المباني فى عهد الأسرة الأولى والمباني فى الكلدان ، وزخرفة بعض الأدوات برسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة ، واستعمال « الخرطوش » فى كتابة أسماء الملوك ، فسند هنا على هذه الأدلة جملة وسنقف عند ما يستحق الوقوف منها .

لم تكن مصر حين بدأت تبشير المدنية تظهر فيها ، منعزلة عن الأمم المجاورة لها ، بل كانت على صلات مستمرة بها ، تجارية وغير تجارية . فكانت معاملاتها لا تنقطع مع قبائل النوبة جنوبا والشعوب الليبية غربا والبلاد الآسيوية شرقا وسكان جزائر البحر الأبيض شمالا . وكانت تأخذ من هذه الأمم المواد الأولية التى تنقصها وتعطيها مصنوعاتا ومنتجاتا . وكانت هذه الأمم نفسها تعرف أن مصر سبقتها فى الزراعة والصناعة والإنتاج وأنها صارت بفضل الزراعة بلاداً غنية تدر الخير على أهلها ، فكانت تلتمس عندها بعض هذا الخير من طريق المبادلات أو من طريق السطو على حدودها ونهب ما تصل إليه أيديها . ولم يحل دون هذا الاتصال وجود صحراء ليبيا وصحراء سيناء فى حدود مصر الغربية والشرقية ، كما لم يحل

دونه وجود البحر الأبيض في حدودها الشمالية . وقد ظن بعض العلماء إلى زمن قريب أن وجود هاتين الصحراوين والبحر الأبيض جعل مصر تعيش في عصر ما قبل الأسر منعزلة عن العالم ، كأنها في صندوق مقفل ، إلى أن اتصلت بالأمم المجاورة لها في عصر الأسر وأخذت تفكر في الغزو والفتوحات . وأصحاب هذا الرأي هم الذين يستغربون وجود شبه بين المباني وزخرفة الأدوات في مصر والمباني وزخرفة الأدوات في الكلدان . وهم كذلك الذين يستغربون استخدام الضمائر في اللغة المصرية على النحو الذي تستخدم به عند الشعوب السامية . ولا تفسير عندهم لهذا التشابه غير الذهاب إلى بعيد ، والقول بأن قبائل كلدانية غزت مصر وعلمتها أسباب المدنية ، في حين أن التفسير الصحيح هو اتصال مصر بجاراتها واتصال هذه الجارات بها ثم تأثر كل منهما بالأخرى . وقد أصبح هذا الاتصال الآن حقيقة مسلما بها لأن الأدلة المادية قامت عليه فلا حاجة لأن نتوسع فيه .

وفي هذا الاتصال لا بد أن تكون مصر قد نقلت أشياء عن الكلدان ، كما لا بد أن تكون الكلدان قد نقلت أشياء عن مصر . وهذا النقل إما أن يكون بطريق مباشر ، أو بواسطة القبائل السامية التي كانت هائلة إذ ذاك في سوريا وفلسطين وكانت على علاقات دائمة بالبلدين معا ، أو بواسطة جزائر قبرص ورودرس وكريت التي صار من الثابت الآن أنها كانت في عصر ما قبل الأسر على صلات مستمرة بمصر من ناحية وبالكلدان من ناحية أخرى . أو ربما كان الأصح أن هذه العوامل كلها كانت تعمل معا في سبيل النقل بين البلدين .

(١) كان المصريون يسمونه الأخضر الكبير لأن واضعي أسطورة أوزيريس قالوا إنه لما قتله أخوه سيت ثم وضعه في صندوق وألقاه في البحر سار الصندوق إلى البحر الأبيض المتوسط وعام فيه متجها إلى ميناء بيلوس (هو جيبيل الآن) . وحينئذ أخضر لون الجثة ثم اسود . ومن هنا سمي هذا البحر الأخضر الكبير (راجع في ذلك ص ٩٦ من كتاب (La religion des Eg.) تأليف أدولف إرمان (Adolf Erman) الذي كان أستاذا للصرولوجية في جامعة برلين وتوفي منذ بضع سنين . وقد نقل كتابه هذا من اللغة الألمانية إلى اللغة الفرنسية (Henri Wild) وطبعه في باريس في سنة ١٩٣٧ تحت العنوان الذي تقدم ذكره .

ولم نتصل مصر بالساميين والكلدانيين فقط ، بل اتصلت بالقبائل الأفريقية أيضا وأخذت منها ، فظهر أثر لغاتها في اللغة المصرية . وقد عرف العلماء هذا الأثر في السنين الأخيرة حتى لقد قالوا إن صلة اللغة المصرية باللغات الأفريقية أقوى من صلتها باللغات السامية . وبذلك يسقط البرهان المأخوذ من تشابه استعمال الضمائر في اللغة المصرية واللغات السامية .



والآن لم يبق من الأدلة غير استعمال معدني النحاس والذهب . والرأى عند أصحاب هذا الدليل أن الكلدانيين عرفوا استعمال النحاس والذهب قبل المصريين ، وأن الغزاة الذين غزوا مصر منهم هم الذين علموا أهلها هذا الاستعمال ، فننظر هل هذا صحيح . ويجب في بحثنا هذا أن يكون مائلا في أذهاننا أن الغرض الذي دعا إلى الأخذ بهذا الدليل هو القول الفاسد بأن المدنية وجدت في مصر فجأة ، وفي عصر سابق على عصر الأسر بقليل ، فهي لم تترب جذورها فيها ، وإنما انتقلت إليها على يد قوم مغيرين . وقد بينا في كل ما مضى فساد هذا القول وأثبتنا أن عناصر المدنية تربت كلها في مصر وأخذت تنمو فيها شيئا فشيئا منذ العصر الحجري ، وكان يحق لنا أن نكتفى بذلك ، لأن استعمال النحاس والذهب ليس أهم في بناء المدنية من الزراعة ، ولا من استخلاص النباتات الصالحة لغذاء الانسان من النباتات الوحشية ، ولا أهم من التعاون على تنظيم مجرى النيل ، ولا من إيجاد المناطق الإقليمية والحكومات الإقليمية ثم الحكومة الواحدة ، نقول ليس استعمال النحاس والذهب بأهم في بناء المدنية من هذه الأسس ، بل هو دونها ، ولكننا لا ندع هذا الدليل من غير تفنيد ، لأنه ليس من الحق في شيء أن يقال إن المصريين لم يعرفوا استعمال النحاس والذهب إلا على يد غزاة من الكلدانيين ، وقبل عصر الأسر بقليل .

(١) راجع في ذلك كتاب (Les Peuples de l'Orient Méditerranéen) تأليف (Et. Drioton) مدير مصلحة الآثار المصرية و (Jaques Vendier) ص ٤ و ٥ طبعة باريس في سنة ١٩٣٨

لا يزال العلماء يواصلون البحث في عصر ما قبل الأسر فمن المجازفة أن يقول قائل إن الكلمة الأخيرة قد قيلت فيه . ولكن هناك حقائق دلت عليها الحفائر في مناطق مختلفة عرف أن بعضها منها خلفه المصرى حينما كان قريبا من الحالة الوحشية وكان يعيش على صيد الحيوانات أكثر من عيشه على الزراعة، وبعضها آخر حينما صار أكثر عيشه على الزراعة وبدأ يستخدم الحيوانات، وبعضها ثالثا حينما خطا خطوة إلى الأمام بعد ذلك ، وبعضها رابعا حينما خطا خطوة أوسع وأخذ يمهّد لعصر الأسر .

فالحالة الأولى تمثلها حفائر دير تاسا ويسمى عصرها عصر تاسا أو حضارة تاسا . والثانية تمثلها حفائر البدارى ونقادة وتسمى حضارة البدارى . والثالثة تمثلها حضارة العمرة . والرابعة تمثلها حضارة جرزة . وهذه المناطق كلها قائمة في الوجه القبلى . أما في الوجه البحرى فقد وجدت حفائر مرمدة بنى سلامة وحفائر المعادى وهما أرقى من حضارة البدارى ، ولكن لم توجد حفائر يمكن ترتيبها على النحو الذى رتب به الحفائر في الوجه القبلى ، لسبب ظاهر هو أن الأرض في الوجه البحرى رخوة فالنيل وطميه يجعلانها أقل من أرض الوجه القبلى احتفاظا بما فيها .

ففى حضارة البدارى ، أى عند الدرجة الثانية من درجات سلم الصعود إلى المدنية المصرية ، عرف المصريون النحاس واستعملوه . وقد وجدت أدوات منه فى قبورهم . وفى ذلك يقول جوردن شيلد^(١) بعد أن تكلم عن حضارة تاسا ثم شرع يتكلم عن حضارة البدارى .

(١) (V. Gordon Childe) هو أستاذ علم الآثار فى جامعة أدنبره ، وقد اشتهر بحفرياتة فى الهند والعراق ومصر ، ثم بمؤلفاته فى عصور ما قبل التاريخ لهذه البلاد جميعا . ويعتبر كتابه عن « الشرق فى ما قبل التاريخ » زبدة بحوثه هذه . وقد وضعه بالانجليزية ونقله (J. Lévy) الموظف بمتحف (Guimet) بباريس الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٩٣٥ تحت عنوان : (L'Orient Préhistorique) . وعن هذه الترجمة ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ نقلت ما نقلته هنا .

”... .. وحينئذ بدأ يشتد البحث عن مواد أولية ، فأدى ذلك إلى استخدام عنصر اقتصادي جديد هو عنصر المعاملات التجارية . ومن المؤكد أن معدن الدهنج الذي كان يستعمل إذ ذاك في تكحيل العيون كان يجلب من سيناء والنوبة . وقد وجدت في قبور عصر البدارى مواقع كثيرة من البحر الأحمر وقطع من خشب الأرز وخشب الراتنج ، مما يفهم منه وجود علاقات بين مصريي البدارى وبين سوريا . وفي هذا الوقت عرف البداريون خواص معدن النحاس ، فعرفوا قابليته للطرق ولكنهم لم يهتدوا إلى قابليته للانصهار“ .

ويستمر جوردن شيلد فيقول بعد ذلك بقليل :

”كان البداريون يلبسون ملابس من جلود الحيوانات وكانوا يكحلون عيونهم بمعدن الدهنج (٢) وكانوا يضعون في أعناقهم وأوساطهم عقوداً أو أحزمة فيها قطع من النحاس“ .

أما برستيد فقد قال في كلامه عن مصر البدائية (٣) :

”كان المصريون البدائيون يصنعون ويستعملون أسلحة وأواني من البرنز . ويمكن وضع العصر الذي كانوا يعيشون فيه إذ ذاك في زمان الانتقال بين عصر الحجر وعصر استعمال النحاس . وكانوا يعرفون الذهب والفضة والرصاص ، ولكنهم لم يكونوا يستعملونها إلا قليلاً“ .

وتكلم دريوتون عن حضارة البدارى فقال (٤) :

”... .. وكان النحاس في ذلك الوقت قليلاً فكان استعماله مقتصرًا على الأدوات الصغيرة كالدابيس التي تستخدم لتعليق الجلود أو كالأبر أو أسنان الخطاطيف أو المكاشط أو أزاميل النجارة . وقد عرف المصريون منذ ذلك الوقت أنه قابل للانثناء ، وأنه قليل الصدا ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، ولكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية وبطريقة الطرق والصقل“ .

ذلك في حضارة البدارى ، أما في حضارة العمرة التي تلتها فقد تقدمت صناعة

النحاس والذهب وجلب المصريون اللازود من سوريا .

(١) قلنا فيما تقدم إن المصريين في عصر ما قبل الأسر كانوا على اتصال بجيرانهم في فلسطين وسوريا

وجزائر البحر الأبيض وليبيا والنوبة فهذا هو بعينه الذي يقوله جوردن شيلد هنا .

(٢) الدهنج هو المعدن الذي يسمى باللغة الفرنسية (malachite) .

(٣) ص ٢٩ من الترجمة الفرنسية لكتابه (A History of Eg.) وقد سبق ذكرها .

(٤) ص ٣٧ من كتاب (Les Peuples de l'Orient Méditerranéen)

هؤلاء إذن هم المصريون عرفوا النحاس والذهب منذ حضارة البدارى .
ولم يكونوا يجلبونهما من الكلدان ، ولا من بلاد قريبة من الكلدان ، بل كانوا
يستخرجونهما من سيناء والنوبة ومن مناجم لهما في مصر . وبين حضارة البدارى
وعصر الأسر بضعة ألوف من السنين عاشت فيها حضارة العمرة ثم حضارة جرزة ،
فعلى الذين يزعمون أن المصريين لم يعرفوا النحاس والذهب إلا بعد أن دخل بهما
الكلدانيون ، أن يثبتوا أن هؤلاء الكلدانيين جلبوهما قبل عصر الأسر بألوف من
السنين ، وليس إلى هذا الإثبات من سبيل .

ويحسن أن ننقل هنا كلمة كتبها في ذلك مورى ودافى^(١) فقد قال :

”حينما كان المصريون قبل الميلاد بنحو ٤٥٠٠ سنة^(٢) ، يستخدمون النحاس ويصنعون الأدوات
المعدنية ، كان غيرهم من أمم العالم لا يزال يستخدم الأدوات من الحجر ، أو هذا على الأقل هو ما وصلت
إليه معلوماتنا إلى الآن . ولذلك تفوق سكان وادى النيل تفوقا لم يكن فى استطاعة الأمم الأخرى أن
تقاومه . وفى هذا الوقت نفسه أخذ جيران مصر يظهرون على الآثار المصرية الأولى ، وبهذه الآثار صرنا
نستطيع درس العلاقات الأولى التى كانت متبادلة بين أمم الشرق القديم“ .

وإليك كلمة أخرى كتبها جوردن شيلد فقال فيها إنه إن كانت توجد وجوه
من الشبه بين مصر والكلدان فليس معنى ذلك أن الكلدانيين جلبوا المدنية إلى مصر ،
ولا أن مصر أخذت منهم ، وإنما قد يكون معناه الأصح أن الكلدان وبلاداً أخرى
هى التى أخذت من المدنية المصرية . قال بعد أن فرغ من شرح الحضارات المختلفة
فى عصر ما قبل الأسر^(٣) :

”... إلى هنا كان من الممكن تفسير التقدم الذى تقدّمته المدنية فى وادى النيل بعوامل متواصلة
مستقلة عن الخارج . ومع أن هناك أكثر من عنصر عالمى كان له أثر فى هذا التقدم ، ومع أننا نستطيع

(١) (A. Moret, G. Davy) فى كتابهما : (Des Clans Aux Empires) ص ١٩٣

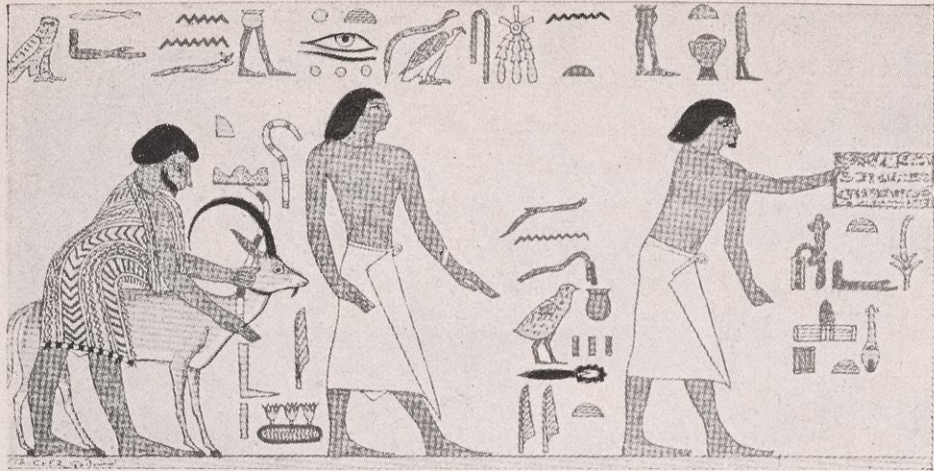
(٢) يلاحظ هنا أن مورى ودافى يأخذان بالتاريخ القصير الذى يجعل الملك منا فى نحو سنة ٣٢٠٠
قبل الميلاد .

(٣) ص ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها .

تميز حضارتين ، فإن جميع الكشوف والمخترعات ذات الأهمية هي بنت حوض النيل . نعم إن حضارة جرزة تحتوى على مظاهر شبه بينها وبين آسيا ، ولكن ليس هناك ما يدل على أن مصر مدينة لآسيا في هذه المظاهر . ومن الممكن ، نظريا على الأقل ، تفسير مظاهر الشبه هذه بين مصر وبلاد النهرين (يريد الكلدان) بأنها نتيجة تيار من المدنية صادر من مصر“ .

ثم استمر جورد شيلدن فأخذ يثبت أن جميع العوامل الطبيعية كانت تجعل من وادى النيل أرضا صالحة للزراعة منذ أقدم العصور، وأن المصريين عرفوا في حضارة البدارى وحضارة العمرة صنع السفن قبل أن يعرفه سواهم ، وأنهم شرعوا حينذاك يعرفون مبادئ الكتابة ، وأنهم اتصلوا بالبلاد المجاورة لهم فحلبوا منها الخشب ومواد أولية أخرى . ثم قال إن المخلفات التي وجدت في قبور المصريين في حضارة البدارى وحضارة جرزه ” تدل على أنهم كانت لهم علاقات تجارية تمتد إلى بلاد العجم وأرمينيا وسوريا الشمالية . ومن هذا الاتصال وجدت الفرصة لاحتذاء مثال الكشوف والمخترعات المصرية في هضاب إيران ، وفي آسيا الصغرى ، وفي جزيرة كريت“ .

فنظن بعد ذلك أن ما كان باقيا من نظرية جلب المدنية إلى مصر على يد الكلدانيين قد انهدم . ونظن أيضا أنه صار واضحا أن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر، في مصر تكونت عناصرها الأولى ، وفي مصر نمت وتطورت حتى صارت نورا يرسل أشعته إلى القريبيين والبعيدين من الأمم .



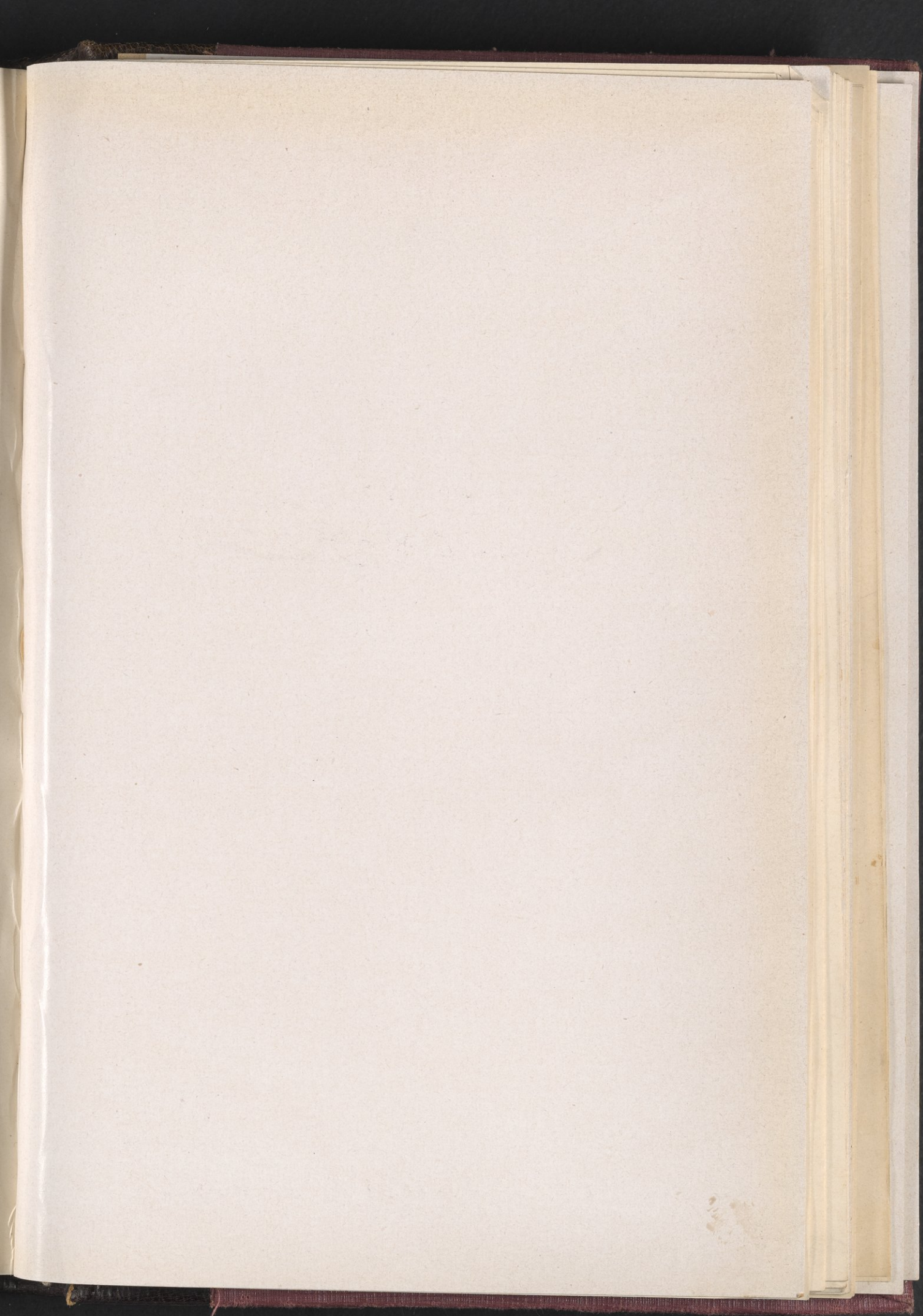
رئيس القبيلة (إلى اليسار) يتقدمه موظفان مصريان



بعض رجال القبيلة



بعض سيدات القبيلة (اقرأ تفسير هذه الصور الثلاث في ص ٢١٢)



الْبَيْتُ قَوْلُ الْمُصْطَرَفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما بدأ المصريون يقسمون الزمن كان من البديهي أن يعتمدوا في تقسيمه على القمر، لأنه يبدو في أول ظهوره صغيرا، ثم ينمو ليلة فليلة حتى يصير بدرا، ثم يتضاءل ليلة فليلة حتى يبلغ المحاق . فهو علامة بارزة كان من الضروري أن يلتفت الانسان إليها وأن يجعلها قبل غيرها قاعدته في تقسيم الزمن . ومن هنا وجد الشهر القمري ووجدت الشهور القمرية .

وقد وجد التقويم القمري في مصر، كما وجد في البلاد الأخرى ، ثم أخذ المصريون يدركون ما فيه من العيوب، وأغلب الظن أن البلاد الأخرى أدركت هذه العيوب أيضا ، ولكن المصريين وحدهم هم الذين استطاعوا أن يخرجوا منها إلى تقويم آخر يصالحها ، ليس الحساب فيه قائما على الدورة القمرية ، بل على الدورة الشمسية ، وهذا التقويم هو الذي وجدته يوليوس قيصر حينما جاء مصر فعمله منها إلى روما ، وهو بعينه الذي يستعمله العالم الآن باسم التقويم الجريجورى بعد تعديل طفيف فيه .

أما كيف اهتدى المصريون إلى هذا التقويم الشمسى ، فذلك أنهم لا حظوا أن الشهور القمرية التي تقع في إحدى السنين في زمن الفيضان ، أو زمن بذر الحبوب في الأرض ، أو زمن حصاد الزرع ، تقع بعد سنين قليلة في أزمنة أخرى ، فقام البرهان المادى لديهم على أن هذه الشهور لا يمكن التعويل عليها في ضبط مواسم الزراعة ، وهم قوم كانت الزراعة همهم الأول ، وكان ضبط أزممتها ومواعيدها ضرورة لهم قصوى . ففكروا في إيجاد تقويم يضبط لهم هذه الأزمنة والمواعيد . وكانوا قد لاحظوا أن كوكب الشعرى اليمانية يسقط في الأفق قبيل شروق الشمس في يوم معين من السنة — هو يوم ١٥ يونيه في التقويم الجريجورى

المستعمل الآن — ثم يمضى حول كامل حتى تعود الشعري اليمانية إلى الظهور قبيل شروق الشمس . فحسبوا هذا الحول فوجدوه ٣٦٥ يوما ، فجعلوه سنتهم ، وقسموه إلى ١٢ شهرا ، كل شهر منها ٣٠ يوما . ثم أضافوا إليها خمسة أيام هي التي سميت بعد ذلك أيام النسي^(١) .

وقسموا السنة إلى ثلاثة فصول هي فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد ، كل واحد منها أربعة أشهر .

وقسموا الشهر إلى ثلاثة أثلاث ، كل ثلث منها عشرة أيام . وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها ليل ونصفها للنهار .

أما الأشهر فهي بعينها الأشهر القبطية المعروفة الآن وهي توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبه وأمشير وبرمهات وبرموده وبشنس وبؤنه وأبيل ومسرى .

وحينما وضعوا هذا التقويم ، اتفق أن وصل فيضان النيل إلى ايلفتين في اليوم الذي ظهرت فيه الشعري اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أى أول شهر توت ، لأنه اليوم الذي اجتمعت لهم فيه ظاهرتان : ظهور الشعري اليمانية قبيل شروق الشمس ووصول الفيضان إلى ايلفتين .

وكان حسابهم هذا صحيحا ، لا يدخله غير خطأ طفيف مقدره ٦ ساعات وبضع دقائق في السنة ، في حين كانت الشهور القمرية تختلف عن الدورة الشمسية

(١) صاغ المصريون حول هذه الأيام الخمسة اسطورة مؤداها أن المعبود جب أى الأرض بنى بالمعبودة نويت أونوت أى السماء على غير رغبة الأله الأعظم رع . ثم حملت نوت فصنع لها رع طلسم يمنعها من التناسل في أى شهر من شهور السنة . ولكن المعبود توت كان يحب نوت فلعب بالزهر مع القمر فكسب منه الجزء المتمم لكل ستين يوما من أيام السنة فتكونت من ذلك خمسة أيام زائدة على شهور السنة ، وفيها استطاعت نوت أن تضع معبودا في كل يوم . وهذه المعبودات الخمسة هي أوزيريس وسيت وإيزيس ونفتيس وحارويريس . وحارويريس هذا هو حوريس الكبير وقد سمي بذلك تمييزا له عن حوريس بن إيزيس . وكان يعبد في مدينة ليتوبوليس على أنه إله للحرب .

بما لا يقل عن أحد عشر يوما في السنة ، ولذلك كان اهتداؤهم إلى هذا التقويم القائم على دورة الشعري اليمانية بالنسبة للشمس عملا بارزا جليلا .

وظهر في السنين الأولى من وضع هذا التقويم أن الفصول ومواعيد الزراعة تقع في شهور هي بعينها في كل سنة . ولكن ذلك الفارق القليل بين التقويم ودورة الشعري اليمانية أخذ يحدث أثره على مر السنين ، فصارت سنة التقويم تنقص عن دورة الشعري يوما في كل أربع سنوات . ثم توالى السنين فصارت الفرق يزداد ، وصارت الفصول ومواعيد الزراعة تقع في شهور غير التي قدرت لها . ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم في السنة ، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه ، واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله ^(١) .

وبما أن السنة تنقص ربع يوم فمن البديهي أن يتوالى هذا النقص بمقدار أيام السنة مضروبة في أربعة ، أي $365 \times 4 = 1460$ تضاف إليها السنة التي نقصت في هذه المدة فيكون المجموع ١٤٦١ ، ومعنى هذا أنه كلما مضت ١٤٦١ سنة اعتدل الحساب من جديد ، وعادت الشعري اليمانية تظهر قبيل شروق الشمس في أول توت . ولكنها لا تظهر فيه إلا لمدة أربع سنوات ثم تنقص السنة يوما .



ويستطيع الفلكيون الآن أن يعرفوا دورات الشعري اليمانية ودورات الشمس في الماضي كما يعرفونها في الحاضر والمستقبل . فهم يعرفون جميع السنين التي

(١) من الكتابات الطريفة التي وصلت إلينا خاصة باختلاف الفصول عن الشهور التي قدرت لها في التقويم كلمات دعابة كتبها طالب علم في زمن الأسرة التاسعة عشرة في كراس تمرينه على الكتابة والإنشاء ، هذا تعريها :

« إلى يا أمون . اتقذني من السنة المختلة . فالشمس لا تسطع ، والشتاء يأتي في وقت الصيف . والشهور تمشي القهقري » .

ويؤخذ من قوله « فالشمس لا تسطع » أنه كتب كلماته هذه في يوم غيم في فصل الشتاء .

ظهرت فيها الشعري اليمانية في أفق مصر قبيل شروق الشمس ، ويعرفون أيضا أنها لا تظهر كذلك إلا في منطقة تقع في الدرجة الـ ٣٠ من خطوط الطول ، وهذه المنطقة هي منطقة الوجه البحري حيث كانت مدينتا منفيس وهليوبوليس . وبما أن منفيس لم تكن قد أنشئت حينما وضع التقويم المصري ، فلا بد أن يكون أساس الحساب ظهور الشعري اليمانية في أفق هليوبوليس ، ويغلب على الظن أن يكون علماء هذه المدينة ، أي كهنتها ، هم الذين وضعوا التقويم . وهذا يتفق مع المعروف عن هذه المدينة ، إذ الأدلة قائمة على أنها كانت في عصر ما قبل الأسرات نفوذ علمي وديني واسع . وقد استمر نفوذها هذا في عصور الأسر ، واستمرت عبادة معبودها رع إلى أن انتهت المدينة المصرية .

ومما اشتهرت به هليوبوليس (وتسمى في اللغة المصرية أون) على وجه خاص أن كهنتها كانوا في كل وقت يعنون برصد الشمس والنجوم . وكانوا يدقون نتائج مشاهداتهم سنة بعد أخرى ، ولهذا أطلق على رئيس كهنتها لقب « المبصر الأعظم » أو « رئيس الذين يبصرون الشمس ، والوحيد الذي يراها وجها لوجه » .^(١)



وننتقل بعد ذلك إلى ما تركه لنا المصريون عن الفروق بين التقويم ودورة الشعري اليمانية .

كان المصريون يجعلون للشعري اليمانية مقاما دينيا ، وكانوا يقيمون لها احتفالا حين ظهورها كل سنة ، ففي عهد تحوتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) نقشوا على أحد الصخور في ايلفتين أن الشعري ظهرت قبيل شروق الشمس

(١) وجدت لوحة لأحد رؤساء الكهنة وصف نفسه فيها كما يأتي : « القارئ الذي يعرف وجه السماء ، والمبصر الأعظم في قصر الأمير » . وقد ترك المصريون عدة خرائط محفورة على الحجر لأجزاء من السماء . منها خريطة في معبد الرمس في الأقصر . وخريطة في معبد دندره . وسيأتي بحث خاص بها وبالضجة التي أثارها نقلها إلى باريس . وخريطة في مقبرة سيتي الأول .

في يوم ٢٨ من شهر أبيب بدل اليوم الأول من شهر توت . وهذه البيانات تكفي علماء الفلك في وقتنا هذا لكي يعرفوا أن ذلك الفارق وقع في المدة من سنة ١٤٧٤ إلى سنة ١٤٧١ ق م . ومن الضروري أن نذكر هنا أربع سنوات لأن الفرق في السنة الواحدة ربع يوم كما تقدم ، فلا بد أن تكون الشعري قد ظهرت في يوم ٢٨ أبيب أربع سنوات متواليات . وليس من المعروف أى يوم من هذه الأيام الأربعة هو الذي أريد بما نقش على صخرة ايلفتين في عهد تحوتمس الثالث . وإذن تبين أن تحوتمس الثالث كان جالسا على عرش مصر في الوقت الذي سلفت الإشارة إليه .

وجاء في ورقة من أوراق البردى الطبية تسمى « ورقة ايبرس » أنه في السنة التاسعة من حكم الملك أمينوفيس الأول (ثاني ملوك الأسرة الثامنة عشرة) ظهرت الشعري قبيل شروق الشمس في يوم ٩ أبيب . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث لا بد أن يكون قد وقع في المدة من سنة ١٥٥٠ إلى سنة ١٥٤٧ ق م . ومن هنا يمكن أن يقال إن الأسرة الثامنة عشرة جلست على العرش في نحو سنة ١٥٨٠ ق م .

وفي ورقة من البردى تعرف باسم ورقة اللاهون أنه في عهد الملك سنوسريت الثالث (أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة) ، وفي السنة السابعة من حكمه ، ظهرت الشعري في ١٦ برمودة بدلا من أول توت . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث

(١) (Georg Ebers) هو عالم ألماني ولد في سنة ١٨٣٧ وتوفي في سنة ١٨٩٨ وقد شغف بعلم الآثار المصرية فانصرف إليها أغلب أيام حياته وزار مصر عدّة مرات واشترى فيها ورقة من أوراق البردى وترجمها فأتضح أنها تبحث في الطب عند المصريين ، فداعت شهرتها عند علماء الآثار المصرية . ووضع إيبرس كتباً عدّة عن مصر بعضها بحوث علمية وبعضها الآخر روايات تخيلها وجعل موضوعاتها تدور حول مصر القديمة .

وقع في المدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٧٩ ق م . ومن هذا يؤخذ أن ابتداء
جلوس الأسرة الثانية عشرة على العرش يقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م ^(١) .



وهنا سؤال لا بد منه ، وهو هل ترشدنا هذه البيانات إلى الوقت الذى وضع
المصريون فيه تقويمهم هذا ؟

فعلى هذا السؤال يجيب علماء الفلك فيقولون إن التقويم ابتداءً في يوم
ظهرت فيه الشعري في أول توت ، والحساب الفلكي يدل على أن هذا الحادث
وقع قبل سنة ٢٠٠٠ (التي تقدم أن الأسرة الثانية عشرة جلست فيها على العرش)
في المدة من سنة ٢٧٨١ إلى سنة ٢٧٧٨ ، ثم قبل ذلك بـ ١٤٦١ سنة أى في المدة
من ٤٢٤١ إلى ٤٢٣٨ . فالتقويم لا بد أن يكون قد وضع في إحدى هاتين المدينتين
أو قبلهما . فأما المدة الأولى فيجب طرحها جانباً ، لأن نقوش أهرام سقارة تذكر ،
فيما تذكره ، الأيام الخمسة التي تضاف إلى الشهور الاثني عشر لتكملة السنة ، فمعنى
ذلك أن التقويم كان مستعملاً في وقت بناء الأهرام ، ومعناه أيضاً أن الفرق
بين ابتداء الأسرة الثانية عشرة وهذه المدة ، وهو نحو ٧٨١ سنة ، لا يمكن أن
يكون كافياً للأسر التي حكمت مصر من وقت بناء أهرام سقارة إلى وقت ارتقاء
الأسرة الثانية عشرة إلى عرش الحكم .

وإذن لا بد من الرجوع إلى المدة الثانية ، وهى كما قلنا من سنة ٤٢٤١ إلى
سنة ٤٢٣٨ . وإذن تكون هذه المدة أقرب زمن يمكن أن يقال إن التقويم كان موجوداً
فيه . أما وضع التقويم فلا يعرف زمنه . ومن المرجح أن يكون قبل هذه المدة .

(١) يرى بعض العلماء في المصردولوجيا أن هذا الحساب ينقص دورة كاملة من الدورات التي
يعتدل بها التقويم . وعلى هذا فالأسرة الثانية عشرة عندهم تبدئ في سنة ٣٥٧٩ ق م . والأسرة الأولى
تبدئ في سنة ٥٥٤٦ ق م . وهذا هو ما يسمى عند العلماء بالتاريخ الطويل . أما التاريخ القصير الذي
يأخذه أغلب العلماء في الوقت الحاضر فانه يجعل ابتداء الأسرة الثانية عشرة في سنة ٢٠٠٠ ق م . وابتداء
الأسرة الأولى في نحو سنة ٣٢٠٠ أو ٣٤٠٠ ق م .

فاذا نحن أخذنا بالتاريخ القصير الذى يقول إن الملك منأ حكم فى نحو سنة ٣٢٠ ق م . فالتقويم المصرى كان موجودا قبل هذا الملك بأكثر من ألف سنة . ومن البديهي أن المدنية المصرية لم تستطع وضع هذا التقويم إلا بعد أن كانت قد وصلت إلى درجة من الحضارة مكنتها من رصد دورة الشمس ودورة الشعري اليمانية وجعلهما أساسا للسنة .

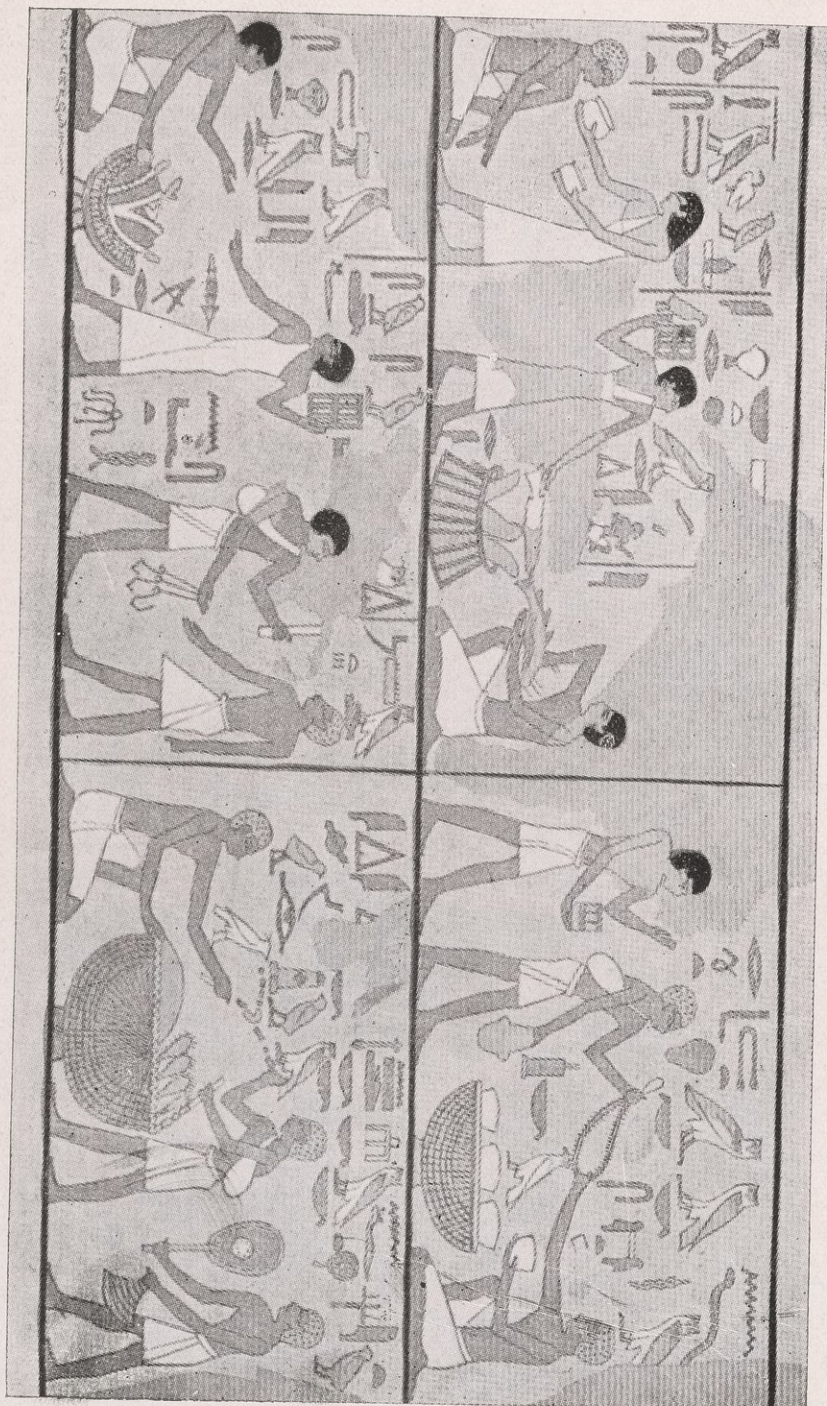
ولا نختم هذه الكلمة قبل أن نذكر أن برستيد كان من المعجبين بقدره المصريين على وضع هذا التقويم فى ذلك الزمن القديم فقال :^(١)

« إن هذا التقويم العظيم الذى كان يستعمل فى عصر بعيد ، هو بعينه الذى يستعمل فى أيامنا هذه . فقد حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما فاستعمل فيها على أنه أفضل تقويم . ثم ورثناه نحن عنها . وبذلك يكون قد استعمل بغير انقطاع أكثر من ستة آلاف سنة . وقد كان المصريون من أهل الوجه البحرى ، الذى عاشوا فى نحو القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، هم أصحاب الفضل علينا فيه . ومن المهم أن نلاحظ أنه خرج من أيدي واضعيه الأولين ، بشهوره الاثنى عشر ، والى كان كل شهر منها ثلاثين يوما ، أفضل مما صار إليه بعد أن عدله الرومانيون » .

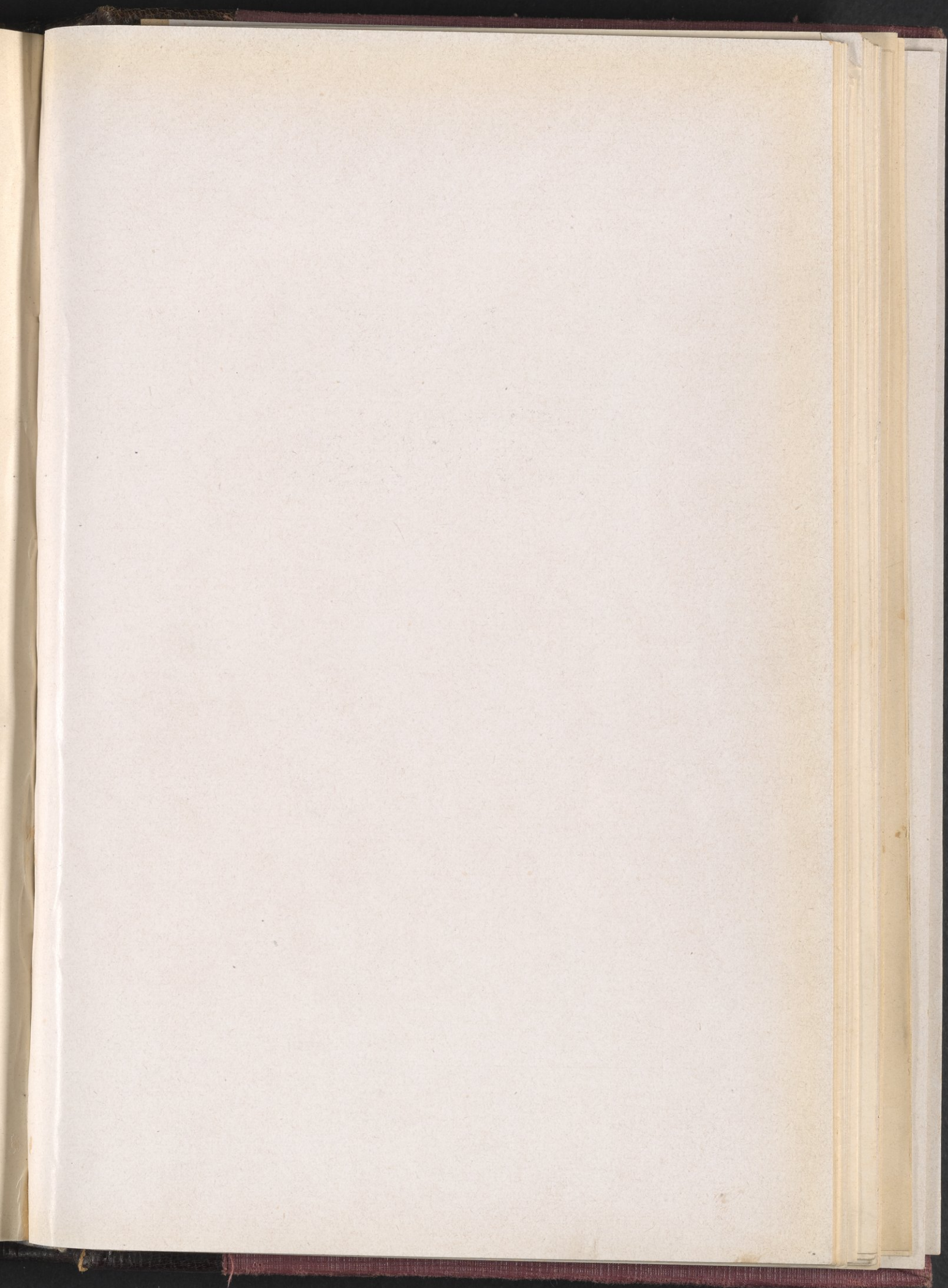
وقد كان الذى فعله يوليوس قيصر أنه لما جاء إلى الاسكندرية وجد فيها التقويم المصرى ، وكانت روما لا تزال تستعمل التقويم القمرى ، فلما عاد إليها حمله معه ، فأخذه الرومانيون وأضافوا إليه يوما كل أربع سنوات ، فتكون كل سنة من السنوات الثلاث الأولى ٣٦٥ يوما ثم تكون السنة الرابعة ٣٦٦ يوما ، وسموا الثلاث السنوات الأولى بسيطة والسنة الرابعة كبيسة .

وفى سنة ١٥٨٢ قرّر مجمع الكرادلة برياسة البابا جرجوار الثالث عشر إدخال تعديل طفيف على التقويم الرومانى ، فسعى تقويمه التقويم الجريجورى ، وهو الذى يستعمله العالم الآن ، وهو التقويم المصرى معدّلا تعديلا طفيفا .

(١) ص ٣٥ من الترجمة الفرنسية لكتابه عن تاريخ مصر . وقد مرت الإشارة إليها .



في سوق البيع والشراء (اقرأ تفسير هذه الصورة في ص ٢١٥)



مَعْرِكَتْ

بِزَالِ كُنْيَسِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الْمُسَيَّرِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل القرآن
مكتوباً

قامت بين سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوروبا في هذه المدة الطويلة . وكان منشأها أن الكنيسة وقسمها وقعوا في خطأ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من أنكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين . وكان كثير من البحث العلمى فى ذلك الوقت واقعاً فى أيدي القسس ، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهى عنده من الحقائق الثابتة التى لا يرقى الشك إليها . وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية ، فثار بهبوه غبار ، ثم اشتد هذا الغبار فتحول إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسمها فى جانب وتقف الآثار المصرية فى جانب آخر ، إلى أن انهزمت العقيدة بعد حوالى تسعين سنة ، وحينئذ أفاق قسسمها فاعترفوا جميعاً بأنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين .



وموضوع هذا الخطأ أن فى التوراة ، أو « كتاب العهد القديم » ، نصوصاً عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم (عليه السلام) إلى نوح (عليه السلام) . وقد ذكرت التوراة فى هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحداً بعد الآخر ، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحددوا الزمن الذى مضى على خلق الانسان . ونذكر هنا شيئاً من نصوص التوراة على سبيل المثال .

ففى « الاصحاح الخامس » من « سفر التكوين » ما نصه :

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الانسان على شبه الله ، عمله ذكر وأنثى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثمانى مئة سنة . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ومات .

« وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش . وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانى مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنى عشرة سنة ومات ... الخ ... الخ » .

وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل إلى نوح ثم إلى إبراهيم . فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الانسان على الأرض . ثم لما كانت هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعاً لذلك تاريخ خلق الانسان . وذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة كل واحدة منها اعتبرتها الكنيسة مقدسة : نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبعونية . ففي الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفي الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة . وفي الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة . أما المدة من إبراهيم إلى عيسى (عليه السلام) فهي ٢٢٠٠ سنة . وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان إلى رسالة عيسى هي ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلماً بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة ، فانتشرت في المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التي ألفها القسوس . وهذا هو الخطأ الذي أخذ العلم المصري يصدمه منذ سنة ١٧٩٣ ، فثارَت الكنيسة وثار معها أنصارها في أوروبا كلها على مصر والعلم الذي يأتي منها ، فتغلبوا في بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ، فكان العلم المصري ينهض يوماً ويكبو يوماً ، وبلغ من حمو المعركة أن اشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين واشتغل بها رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة ، لا بل اشتغل بها البابا ليون الثاني عشر نفسه . وأخيراً انتصر العلم المصري ففضى على الخطأ واعترف بانتصاره الذين حاربوه . والآن فلنتخض ميدان المعركة ولنتتبع أطوارها واحداً بعد واحد .



في سنة ١٧٩٣ كان عالم فرنسي يسمى ديوي (Dupuis) قد درس البروج التي وجدت في بعض المعابد المصرية فألف كتاباً استنتج فيه من علامات في هذه البروج ومن حساب حسبه أولاً أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج ،
(١) هذه البروج هي رسوم مستديرة على المباني تمثل مناطق من السماء والكواكب والبروج الفلكية .

وثانيا أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل ميلاد المسيح . ثم قال :
« وبما أن شعبا من الشعوب لا يستطيع أن يخترع هذه البروج في مستهل حضارته
فالحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من ١٥ ألف سنة » .

وكان ديموى ذا سلطان بين العلماء فدوت كلمته هذه عندهم ورأى كل واحد
منهم فيها تحديا لنصوص التوراة وللعقيدة التي قدّستها الكنيسة ، ولكنهم تركوها
تمتركا تتمر الأشياء التي تستحق الإهمال .

وبعد ذلك بضع سنوات ، أى فى سنة ١٧٩٨ ، غزا نابليون بونابرت مصر
وزار العلماء الذين كانوا يرافقونه الصعيد فشاهدوا برجين فى سقوف معبد دندرة
وبرجين آخرين فى معبدين بالقرب من إسنا . ولاحظوا أن قواعد التقسيم فى هذ
البروج كلها واحدة ولكن العلامات ومناطق الكواكب مختلفة ، ففى إسنا تبتدى
البروج بالعدراء وفى دندرة تبتدى بالأسد ، فاستنتجوا من ذلك أن الغرض هو
الدلالة على الوقت الذى بنيت المعابد فيه ، وأن معبدى إسنا بنيا حينما كانت
الشمس فى فلك العدراء وأن معبد دندرة بنى حينما كانت الشمس فى فلك الأسد .
وهذا معناه أن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة وأن معبد دندرة يرجع إلى
٤ آلاف سنة .

ونشرت جريدة المونيتور (Moniteur) التى كانت الحملة الفرنسية تصدرها
فى القاهرة هذا الخبر فى عددها الصادر فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٠٠ ، وقالت إن
معابد إسنا ودندرة تعتبر مع ذلك من أحدث المعابد المصرية . ووصل هذا الخبر ،
ووصلت جريدة المونيتور ، إلى دوائر أوربا الدينية والعلمية ، فأحدثا فيها رجة ،
وأخذ المتسائلون يتساءلون : ماذا ؟ ٤ آلاف سنة و ٧ آلاف سنة ؟ ! ... ومعابد
إسنا أحدث المعابد ؟ ! ... والبلاد التى تعرف بروجا كهذه البروج وترسمها بهذه
الدقة الفلكية يجب أن تكون حضارتها قد استمرت قبل ذلك ألوفاً أخرى من
السنين ؟ ! ... فالمصريون الذين هم أهل هذه البلاد متى وجدوا ، وكم من الزمن قطعوا

حتى خرجوا من الهمجية إلى المدنية ؟ ! ... وهل يصح حينئذ قول ديوى إن الحضارة المصرية ترجع إلى أكثر من ١٥ ألف سنة ... ؟ ! وأى شىء يبقى من نصوص التوراة إذا كانت الحضارة المصرية والآثار المصرية فى هذا القدم ؟ ! ... ولكن لا ، ثم لا ، فإن التوراة مقدسة ، فهى صادقة ، أما مصر وآثارها والريح التى جاءت تهب من ناحيتها ، فهى كلها زور وخداع .

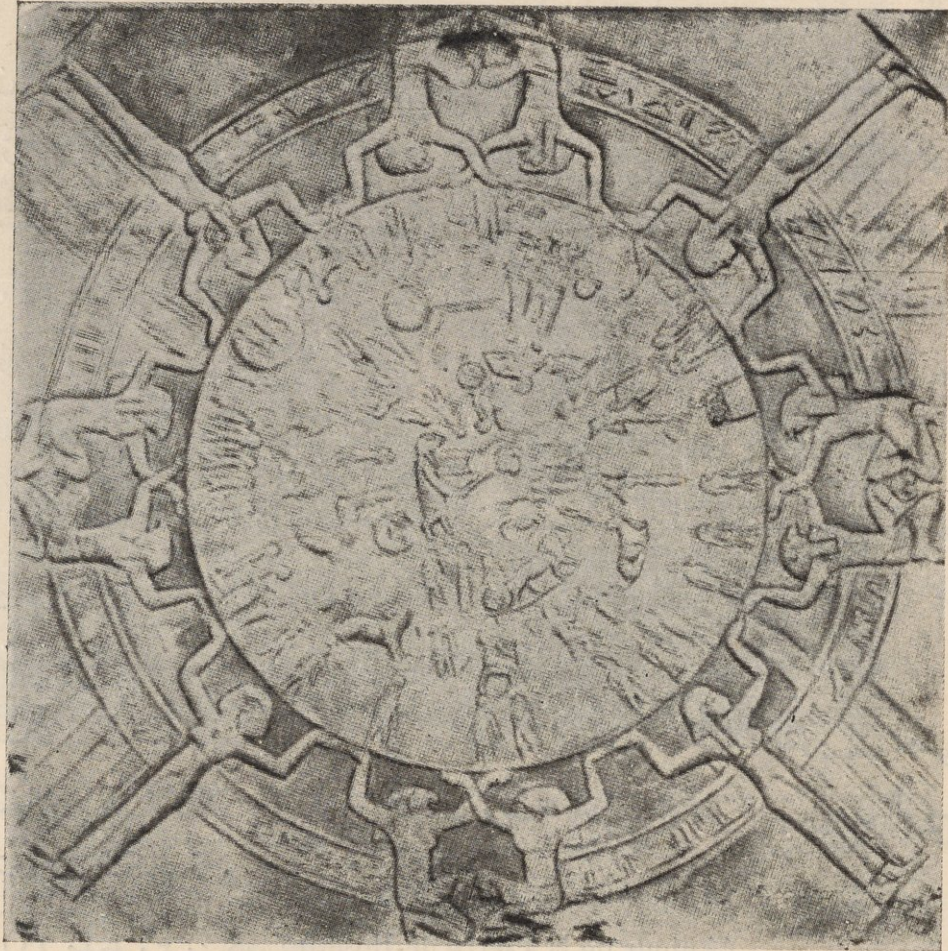
تلك هى الضجة التى ثارت فى الدوائر العلمية والدينية على أثر ديوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة . وحينئذ انقسم العلماء فريقين ، فريقا يقول إن الآثار المصرية تثبت أن خلق الإنسان أقدم من الزمن الذى حددته له التوراة ، وفريقا يتمسك بالتوراة ويدافع عنها . فمن الفريق الأول ديوى الذى مر ذكره ، وبورخارت (Bourckhardt) ورعى ريج (Remi Raige) وفورى (Forrier) وجولوا (Jollois) وديفليز (Devilliers) . أما الفريق الثانى فكانت تقوده الكنيسة وكان يتولى زعامته الأب تيستا (Testa) سكرتير البابا فى روما ويعاونه فيسكونتى (Visconti) والأب جريو (Greppo) والقسيس هالما (Halma) وليترون (Letronne) وغيرهم .

وحيت المعركة بين هذين الفريقين من العلماء ، وكانت نظرية الفريق الثانى أن البروج التى وجدت فى إسنا ودندرة لا ترجع إلى أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد وأنها لذلك لا تقدح فى التوراة . وإنما نادى الفريق الثانى بهذه النظرية لأنه رأى أن التشبث بأرقام التوراة من غير الطعن فى قدم البروج المصرية لا يفيد . واستمرت المعركة على هذا المنوال ٢٥ سنة أخرج فيها كل واحد من هؤلاء العلماء عدة كتب كان موضوعها كلها البروج المصرية والحضارة المصرية .



وبينما المعركة عند هذا الحد إذا بقائل يقول إن برج دندرة وصل إلى مرسيليا ، فسرى الخبر مسرى الرق ، ووقع فى النفوس كما تقع الأعجوبة . وكان الخبر صحيحا ،

وكانت جليته أن ابن أحد أعضاء مجلس النواب في فرنسا أخذته نشوة المعركة الناشئة حول البروج المصرية فذهب بنفسه إلى دندرة واستطاع أن ينزع برجها من مكانه وأن ينقله إلى فرنسا بعد أن اتخذ جميع المعدات لصونه من أن يصاب بسوء . فلما وصل البرج إلى مرسيليا في يناير سنة ١٨٢٢ لم تبق في أوروبا كلها جريدة لم تنشر خبر وصوله . وكانت للذي جلبه — وهو يسمى ليلورين — ولأصدقائه الذين ساعدوه مصلحة شخصية في أن يدقوا حول البرج طبولا ضخمة فدقوا منها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وكان الناس مستعدين لأن يسمعوا هذه الطبول فأقبلوا عليها وجعلوا يمثلون حول البرج المصري ، والحضارة المصرية ، والعلوم المصرية ، ما لا يتسع له إلا الخيال الواسع .



البرج الذي نزع من معبد دندرة ونقل إلى باريس

ولحظ رجال الكنيسة هذا الأثر في الناس فانزعجوا ، ولحظه خصومهم الذين كانوا في ميدان المعركة فتشجعوا واغبطوا .

ونقل البرج إلى باريس ، واخترق شوارعها في موكب كموكب الكوكب الغازي المنتصر ، وضمن به أصحابه عن أن يبتذل ، فلم يعرضوه للجمهور ، ولم يقبلوا أن يدخل عليه إلا الغطاء . وكتب كاتب فرنسي هو كاميل لاچي (Camille Lagier) يصف شغف باريس حينئذ بالبرج فقال :

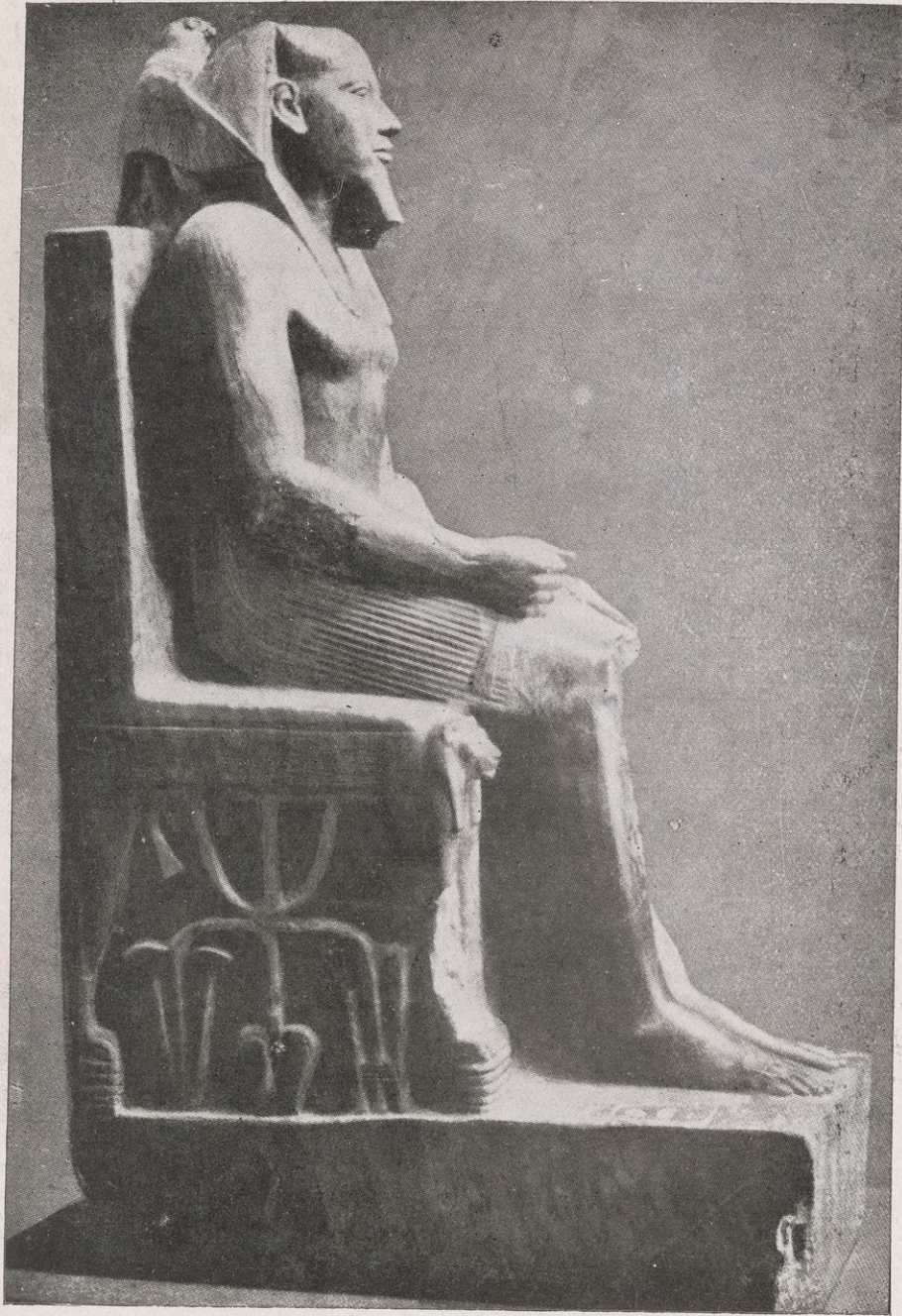
« إن هذا البرج الذي كان يظهر ويختفي في آن واحد صار معبود المتحدثين في الصالونات ، وفي أماكن الرياضة ، وفي كل مكان . فاكنت تسمع غير سيدة تقول لصاحبها : « أرايت البرج يا عزيزي » . أو رجل يقول لصاحبه : « ما رأيك يا أخى في البرج » . أو ما يجري هذا المجرى من الحديث ^(١) . »

وأذاعت الصحف على أثر ذلك أن الحكومة الفرنسية ألقت لجنة من ثلاثة من العلماء لفحص البرج ، وهل هو زائف أو ذو قيمة علمية . ثم فخصته اللجنة فقررت أنه غير زائف . وكان أصحابه ينتظرون هذا التقرير ، فلما قدّم إلى الحكومة كتبوا إليها يطلبون أن تشتريه منهم ، ويقولون إن دولة أجنبية دفعت لهم فيه ٢٠٠ ألف فرنك فرفضوا لأنهم يؤثرون أن لا يفوت بلادهم الاحتفاظ ب ذخيرة مثله . واشترته حكومة لويس الثامن عشر ودفعت فيه ١٥٠ ألف فرنك (أى نحو ستة آلاف جنيه) ووضعت في متحف اللوفر وسمحت للجمهور بأن يراه فيه .

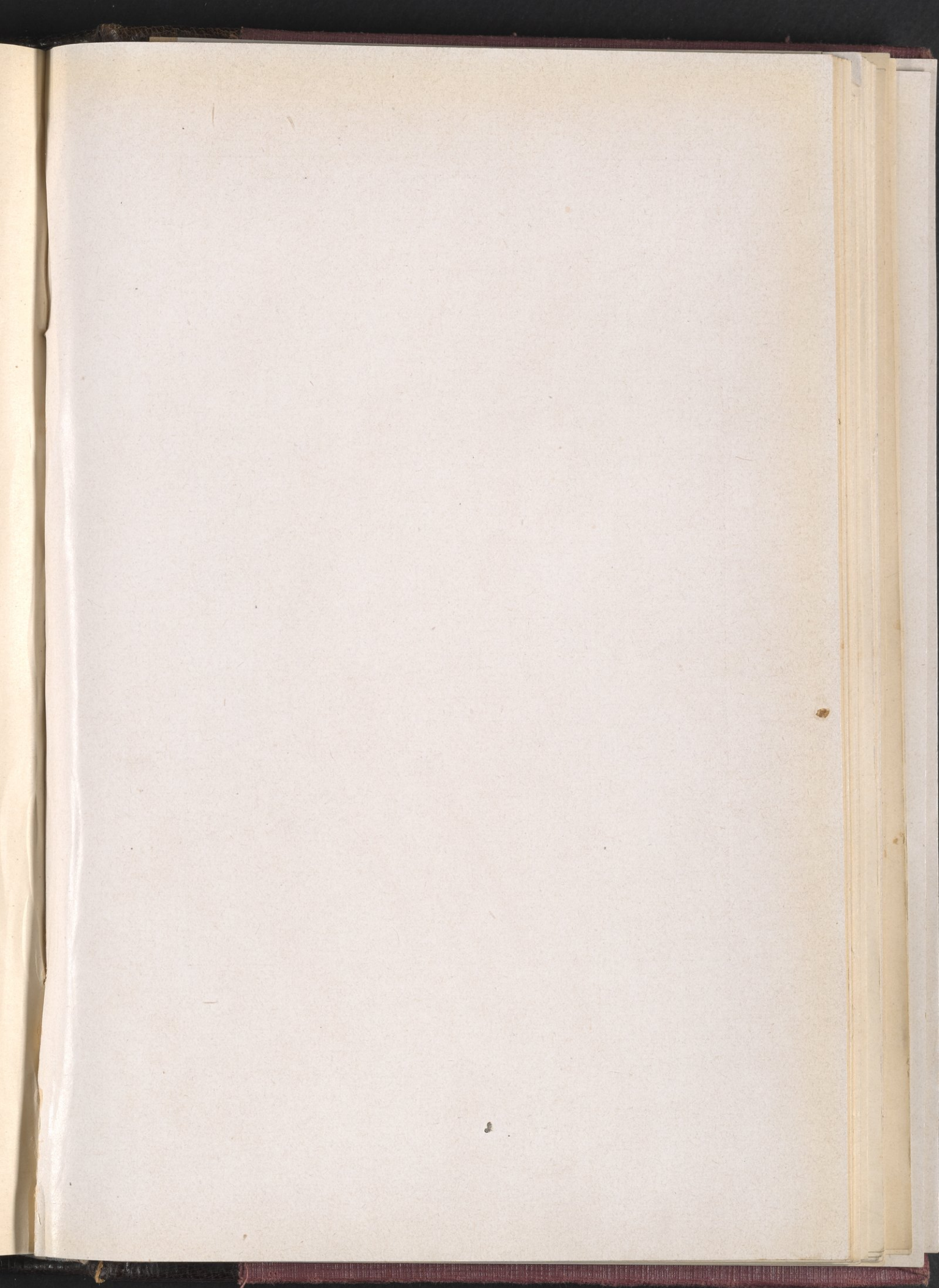
واشتدّ في هذا الوقت حنق رجال الكنيسة ، واشتدّ معه حنق المؤمنين الغيورين على نصوص التوراة ، فكانوا جميعا " يلعنون الحجر الأسود الحقير " ^(٢) بينما كان بعض أعضاء مجلس النواب في فرنسا يشيرون الثوار عليه لأنه " أداة لبث الألداء وإنكار الدين " ^(٣) وهذه الكلمات كافية للدلالة على أن المعركة وصلت في هذا الدور إلى أقصى شدتها . وبعد ذلك يأتى الدور الثالث وفيه انقلب الأمر فانهمزمت البروج وانتصرت الكنيسة .

(١) صفحة ٣٠ من كتاب (Autour de la Pierre de Rosette)

(٢ و ٣) صفحة ٣٢ من المصدر السابق ذكره .



الملك خفرع ومن خلف رأسه حوريس في شكل صقر يبسط جناحيه حول عنقه إشارة إلى أنه يحميه .
وهذا التمثال مصنوع من حجر الديوريت الذي هو من أصلب الأحجار حتى لقد قال العلماء إنهم لا يستطيعون
أن يعرفوا أية آلات هي التي استخدمها المصريون في نحته . وصنع هذا التمثال بهذه الدقة يعتبر دليلا
على أن فن النحت بلغ الذروة في العهد الممفيسي



*
*
*

بقى الأب تيستا يناضل نضالا عنيفا، وجعل أساس نضاله أن يدرس البروج نفسها ليهدمها . وكان العلماء الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت قد عادوا إلى فرنسا ونشروا الرسوم والصور التي جلبوها معهم لكثير من الآثار المصرية، ومنها معابد إسنا ودندرة . وكانوا قد نشروا أيضا أوصاف هذه المعابد في مؤلفهم العلمي الذي سموه "وصف مصر" (Description de l'Egypte) فلاحظ الأب تيستا ولاحظ معه فيسكونتي أن على معابد إسنا ودندرة كتابات يونانية فقالا إن هذه الكتابات سترشد على الأرجح إلى التاريخ الصحيح لهذه المعابد وللبروج التي وجدت فيها .

وتتبع ليترون هذه الفكرة فلاحظ أن اسمي الامبراطورين الرومانيين أنطونين وادريان موجودان على معبد إسنا . وقرأ على معبد دندرة عبارة باللغة اليونانية كتبت تكريما للامبراطور تيسير بن الامبراطور أغسطس .

وفي هذا الوقت كان شامپوليون الشاب قد فك حروف الخط الهيروغليفى فاطلع على جميع الأوصاف والرسوم الخاصة بمعابد دندرة وإسنا فأثبت أن جزءا من معبد دندرة بنى في عهد كليوباترة وابنها قيصرين وأن جزءا آخر منه بنى في عهد الامبراطور أغسطس .

أما معبدا إسنا فأثبت أنهما بنيا في عهد الامبراطور كومود . وأثبت في الوقت نفسه أن البروج حديثة وأنها صنعت في الوقت الذي بنيت فيه المعابد أى في حكم الرومانيين لمصر . وبذلك سقطت دعوى قدم البروج وانتصرت الكنيسة .

*
*
*

انهزمت البروج وانتصرت الكنيسة، فكان معنى هذا أن عمر الإنسان على الأرض لا يتجاوز ٣٣٨٩ سنة على أكثر تقدير قبل النبي إبراهيم، وكان المعنى أيضا

ان كل قدم تدّعيه الحضارة المصرية لنفسها أبعد من هذا الحدّ زور وخداع .
وهذه المدة التي تحددها التوراة هي المدة التي يجب أن يكون المصريون قد انتقلوا
فيها من حالة الوحشية الأولى إلى حالة المدنية، ثم من حالة المدنية إلى الحضارة
الراقية، فحضارتهم على هذا لا تتجاوز قرونا تعدّ على الأصابع قبل النبي إبراهيم .

ولكن هذا الحساب فيه تسامح أيضا، لأن من المفروض أن الطوفان جاء على
عهد نوح فأهلك في مصر — كما أهلك في غيرها — كل حي ودمر كل عامر^(١) .
فالمدة التي بين آدم ونوح يجب إسقاطها من الحساب . وفي النسخة السبعينية من
نسخ التوراة — وهي النسخة التي يزيد رقمها على رقمي النسختين الأخريين — أن
المدة من آدم إلى نوح ٢٢٤٢ سنة ومن نوح إلى إبراهيم ١١٤٧ سنة فقط .
فهذه المدة الأخيرة هي وحدها التي يجب أن تكون قاعدة الحساب وهي التي عمرت
فيها مصر بالمصريين، ووصل المصريون فيها إلى الحضارة التي وجدهم عليها إبراهيم
حينما جاء مصر . فالحضارة المصرية حديثة إذن، وليس لها أن تتيه على حضارات
الأمم الأخرى بدعوى القدم .

هذا كان مؤدى انتصار الكنيسة على البروج المصرية . ولهذا لم يكد الانتصار
يتقرّر في الأذهان حتى بدأت حملة عنيفة على مصر وتاريخها، وقاد هذه الحملة
الأب جيرين دى روشى (Guérin du Rochet) وكان قد ألف قبل ذلك ببضع
سنين كتابا عنوانه "التاريخ الصحيح للعصور الخرافية" هاجم فيه مصر وتاريخها
وحضارتها ، فأعاد طبعه وزاد عليه . وكان الأب دى روشى من العلماء الواسعى
الاطلاع البارعين فى صناعة القلم فاستطاع أن يصوغ كتابه هذا فى شكل يلبس فيه
الحق بالباطل . فزعم أن التاريخ المصرى من أوله إلى آخره، ليس سوى تخليط

(١) يقول بعض العلماء الآن إن الطوفان لم يعم الأرض كلها بل اقتصر على بلاد الكلدان وأرمينيا ،
ولكن هذا القول لم يكن شائعا فى الوقت الذى نشبت فيه معركة البروج .

في الحوادث التي تسردها التوراة . فالملك (منا) الذي يذكره المؤرخ المصري مانيتون^(١) ويقول إنه أول ملك حكم مصر ليس سوى نوح . والملوك الذين يعدهم مانيتون^(٢) ثلثمائة وثلاثة وثلاثين خلفاء لمنا ، ليسوا سوى أولاد نوح الثلاثة . والفرعون مورييس ليس سوى مصرام حفيد نوح . وما زال الأب دى روشى يمضى في السلسلة على هذا القياس حتى جرد مصر من تاريخها وحوله كله إلى التوراة والقصاص التي فيها . وعنده أن المؤرخين مانيتون وديودور الصقلي وهيرودوت لم يفعلوا غير أن وضعوا التوراة أمامهم ثم جعلوا يأخذون منها ويخترعون .

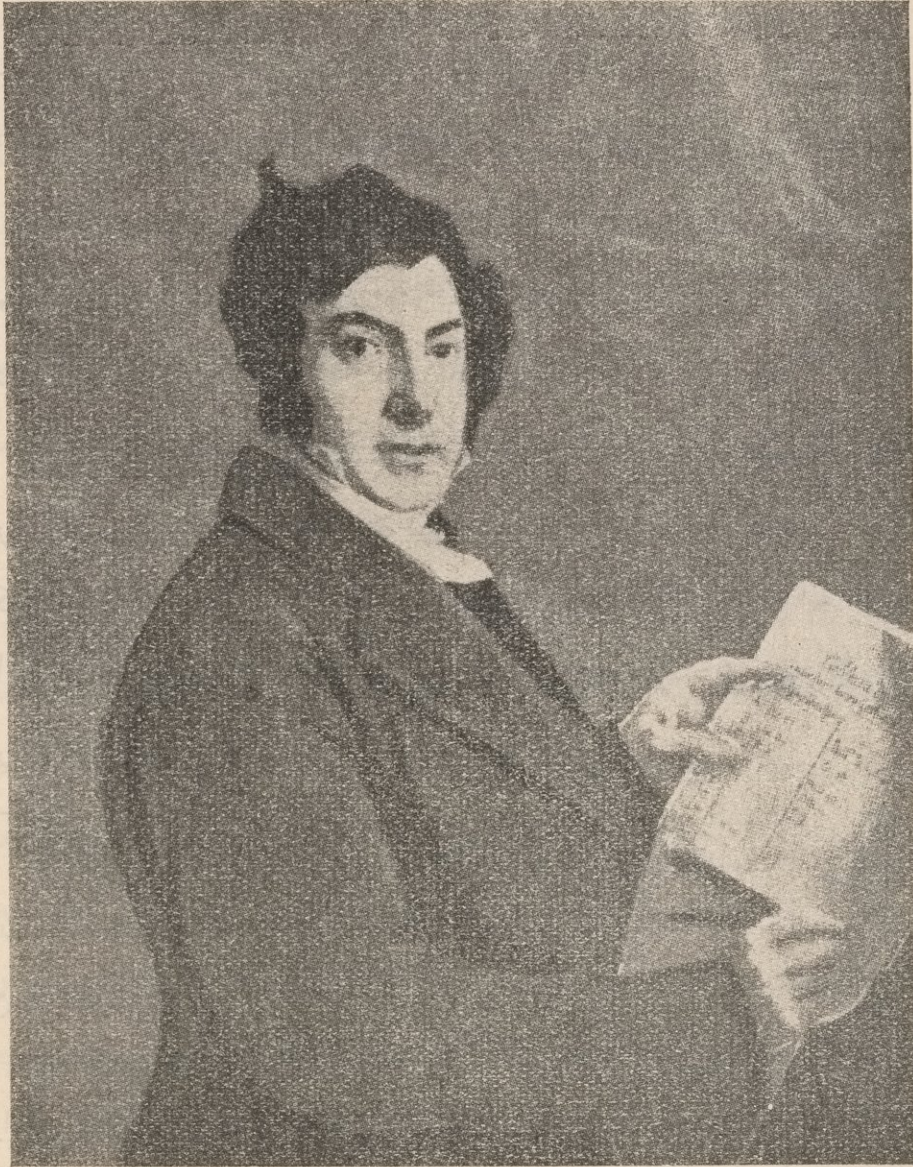
وهذا القول يظهر لنا الآن غاية في السخف ، ولكنه راج في ذلك الوقت على أنه حقيقة تاريخية ودينية . واستقر في الأذهان أن كل ما وراء إبراهيم من الزمن يجب أن يؤخذ تاريخه من التوراة . فما أثبتته فهو الحق الذي وجد ، وما لم تثبتته فهو الباطل الذي لم يوجد .

ولكن هذا الانتصار للكنيسة لم يدم طويلا لأن المعركة عادت تتجدد في شكل آخر . وعادت تتجدد في هذه المرة بشيء غير البروج ، وعلى يد عالم هو الذي نصر الكنيسة على البروج ، وهذا العالم هو شامپوليون الشاب الذي تقدم أنه أثبت من كتابات على معابد دندرة وإسنا أنها هي وبروجها بنيت في عصر كليوباترة والرومانيين .

(١) مانيتون (Manéthon) هو أبو التاريخ المصري بحق . وكان كاهنا مصرياً من كبار العلماء ، وكان قد عاش في زمن حكم البطالسة مصر فطلبوا إليه أن يضع تاريخاً لمصر باللغة اليونانية فوضعه وعليه اعتمد جميع المؤرخين من بعده .

(٢) الفرعون مورييس هو الفرعون الذي زعم المؤرخون اليونانيون والرومانيون ولا سيما المؤرخ سترابون ، أنه أنشأ بحيرة مورييس (بحيرة قارون) في الفيوم لتكون خزاناً للنيل . ولكن الآثار دلت بعد ذلك على أن هذه البحيرة أنشئت في عهد أمنمحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة وأنه لا يوجد فرعون مصري يسمى مورييس .

وذلك أن شامبوليون كان قد كشف الخط الهيروغليفى كما قلنا، وعرف الخطين المصريين الآخرين الديموتيقى والهيراتيقى، فصار فى استطاعته أن يقرأ جميع الكتابات التى تركها المصريون على المعابد وفى أوراق البردى . فبدأت الكنيسة تحس قلقا من هذه الناحية على الرغم من أنها كانت قد ارتاحت لعمل شامبوليون فى هدم قدم البروج . وقد كانت على حق فى هذا القلق ولكن شامبوليون كان سياسيا بارعا فأخذ



شامبوليون الشاب كاشف الحروف الهيروغليفية

يهدي روعها حتى لا تحول بينه وبين بحثه العلمى . فنجح واستنامت له الكنيسة ،
ثم لم تفق إلا بعد أن صار كل نضال لها في المعركة لا يفيد .

وكان شامپوليون محتاجا في أول أمره لرعاية ملك فرنسا لويس الثامن عشر
فسعى له الدوق دى بلاكاس Duc de Blacas حتى حصل له عليها وعلى إذن
بأن يزور متحف تورين والمتاحف الإيطالية الأخرى ليدرس مجموعات الآثار
وأوراق البردى المصرية فيها . وكان الدوق من أنصار الكنيسة ومن محبي شامپوليون
معا . فلما حصل لشامپوليون على الإذن بدراسة الآثار المصرية في متاحف إيطاليا
اعتراه الخوف من أن يكون في هذه المتاحف ما يخالف التوراة أو الديانة المسيحية ،
نظرا به ورجا منه أن لا ينشر شيئا يخالفهما إذا آتفق له أن عثر على شيء مخالف .
ففعل شامپوليون وأعطى على نفسه عهدا بالذى يطلبه منه الدوق .

وهنا يقول المدافعون عن شامپوليون إنه أعطى هذا العهد ، لا لأنه كان ينوى
الغش ، بل لأنه كان يعتقد بنية حسنة أن جميع الآثار والأوراق العريقة في القدم
دمرت بفعل الزمن أو بفعل المغيرين الذين أغاروا على مصر . ولكن نحن نرى
أن شامپوليون في غنى عن هذا الدفاع ، وأن ليس عليه من حرج في إعطائه ذلك
العهد لأنه لم يؤذ به أحدا ولم يفعل غير أن فتش به الطريق أمامه للبحث العلمى
ولتبديد الخرافات من الأذهان .

وسافر شامپوليون إلى تورين وقرأ فيها كثيرا من الكتابات المصرية ولا سيما سلسلة
الملوك الذين حكموا مصر . ثم أنتقل إلى روما وفيها قابله الأب تيستا الذى تقدم
ذكره في معركة البروج فرحب به ترحيبا وصفه شامپوليون نفسه في أحد كتبه فقال :
« استقبلنى باسطا ذراعبه وهنأتى بأن كنت مرسل الضربة الأخيرة للبروج » .

ثم قابل شامپوليون البابا ليون الثانى عشر ووصف هذه المقابلة في أحد كتبه
أيضا فقال :

« تكرم قداسه بمقابلتى على الرغم من أنه مريض . وكان في حديثه ظاهر العطف والملاطفة . وقد قال لى
بلغة فرنسية فصيحة ثلاث مرات متواليات إننى أديت بكشوفى خدمة جميلة ، وكبيرة ، وطيبة ، للديانة » .

ويرى من هذا أن الكنيسة ورجالها كانوا سعداء حقاً بأن تخلصوا من كابوس
البروج المصرية. ويرى منه أيضاً أن شامبوليون نجح إلى الغاية القصوى في طمأنتهم
من ناحيته .

وبعد هذا النجاح مع الأب تيستا ومع البابا جعل أعيان روما يتسابقون لمعرفة
شامبوليون والحديث معه عن مصر والكتابات المصرية. واقترحوا عليه اللقاء محاضرات
فألقاها. وصارت للحديث عن مصر في صالونات روما ومجالسها لذة لا تعادلها لذة .
وأطلق على شامبوليون لقب «المصرى» وتنافس الناس في تلقيب علماء آخرين
في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا بمثل هذا اللقب فلقب العالم جومار «المصرى
بمعنى الكلمة» ولقب العالم الانجليزي ينج Young^(١) «المصرى بالتراكم» . ولقب العالم
جوليونوف «المصرى بالالهام» . ولقب العالم الألماني سيفارت «المتشبه بالمصرى» .



وبينما شامبوليون يتمتع بكل هذا المجد المصرى في روما، وبينما الكنيسة مطمئنة
إليه ، إذا بصيحة خطيرة ترتفع آتية من مدينة تورين . وكان هذا الصائح أمين
المتحف فيها . وكانت صيحته أن « دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس
التي تقوم عليها الديانة وتدمر سلطان التوراة » .

وفي الوقت نفسه برز الأب ميشيلانج لانسى في روما ينذر بأن العلم المصرى
الذى يعلمه شامبوليون للناس يخالف التوراة خاصة وتعاليم الكنيسة على العموم .
وكان لانسى هذا قد تعلم اللغتين العربية والعبرية وعين أستاذا لهما في إحدى كليات
روما ، فأثرت صيحته بعض التأثير . وتشجع لانسى بذلك بفعل يطبع كراسات
يلعن فيها مصر وعلومها لأنها شوشت الأذهان وأوقعت أوروبا في حرب فكرية كانت

(١) العالم الانجليزي ينج عاج كشف الحروف الهيروغليفية قبل شامبوليون بسنوات قليلة فنجح
في أربعة حروف أو خمسة وأخفق في الباقي . وقد قام في ذلك جدال بينه وبين شامبوليون . والانجليز
يتعصبون له . وقد احتفلوا في لندن سنة ١٩٣٢ بمرور مائة سنة على وفاته ووصفوه حينئذ بأنه كاشف
الحروف الهيروغليفية . وهذا غير صحيح إلا في أربعة حروف أو خمسة كما تقدم .

في غنى عنها . ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ووصف الطريقة التي وضعها شامبوليون لقراءة الكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

ولكن شامبوليون كان ماهرا، وكان حريصا على أن لا يفقد ثقة البابا به وبالعلوم المصرية . وكان البابا لا يستطيع أن ينسى أنه هو الذي هدم البروج، فأقنعه شامبوليون بأن صيحة الأب لانسي ناشئة من حسد في نفسه لكشف الحروف الهيروغليفية التي أدى كشفها إلى هدم البروج، وحينئذ أمر البابا بفصل الأب لانسي من منصبه، فتقدم إليه شامبوليون يطلب العفو عنه ورده إلى منصبه، فأجابه البابا إلى طلبه . وعلى أثر ذلك كتب سفير فرنسا في روما إلى وزير خارجية الحكومة الفرنسية يصف هذا الفوز الذي فازه شامبوليون فقال :

« لقد شافني البابا بأنه يشكر لشامبوليون أعماله لأنها خدمت الديانة خدمة ذات أهمية . ومن قوله لي في ذلك إن شامبوليون أسقط كبرياء تلك الفلسفة التي كانت تزعم أنها عثرت في برج دندرة على تاريخ خلق الانسان أقدم من تاريخ الكتب المقدسة » .

ثم استمر السفير فقال :

« وقد استدعى البابا الأب تيستا وعرف منه جميع البراهين التي يثبت بها شامبوليون أولا أن برج دندرة صنع في عهد الامبراطور كلود والامبراطور نيرون .

وثانيا أنه لا يوجد أي أثر مصري يمكن أن يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ عام قبل ميلاد المسيح أي قبل عصر إبراهيم . وبهذا يبقى نحو ١٨٠٠ سنة لا يمكن الوصول إلى معرفة شيء عنها إلا من الكتب المقدسة » .

ومن هذا يستطيع القارئ أن يعرف كيف كانت الكنيسة ترى أن النجدة التي أنجدها بها شامبوليون لهدم البروج كانت ذات قيمة كبيرة . ويستطيع القارئ أن يعرف أيضا أن مما كانت تحرص الكنيسة عليه أن لا يوجد أثر من الآثار المصرية يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح لأن هذه هي المدة التي كانت تقدر للزمن الذي بين المسيح وإبراهيم .



ورحل شامبوليون بعد ذلك إلى مصر ليرى بعينه ما فيها من الآثار ويقرأ ما على هذه الآثار من الكتابات .

وقبل أن نخوض في هذه الرحلة يحسن أن نعرف ماذا كان رأيه الداخلى
في اعتقادات الكنيسة . ويكفى بياننا لهذا أن نقول إنه لما قرأ في متحف تورين
بعض الأوراق البردية ، ورأى فيها سلسلة الملوك الذين حكموا مصر ، وعرف من
هذه السلسلة أن عدد الملوك الذين سبقوا الأسرة الثامنة عشرة يزيد على المائتين
كتب في سنة ١٨٢٥ إلى أخيه شامپوليون فيجالك^(١) كتابا يقول فيه :

« ... لقد قام الدليل القاطع على أن المصريين كانوا في عصور بعيدة في القدم يعدون أكثر من مائتى
ملك حكموا بلادهم قبل أن تحكمها الأسرة الثامنة عشرة ... فهذا هو الدستور الذى يجب تقديمه
للجمهور ، ولكن في قفاز ملون بلون خاص^(٢) » .

فهو إذن لم يكن يقول في سريره بقول الكنيسة . وإنما كان يصانعها حتى
لا تضع العقبات في سبيله . وكان يرى أن قدم المدنية المصرية إلى أبعد مما فهمته
الكنيسة من التوراة ، هو :

« الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن في قفاز ملون بلون خاص » .

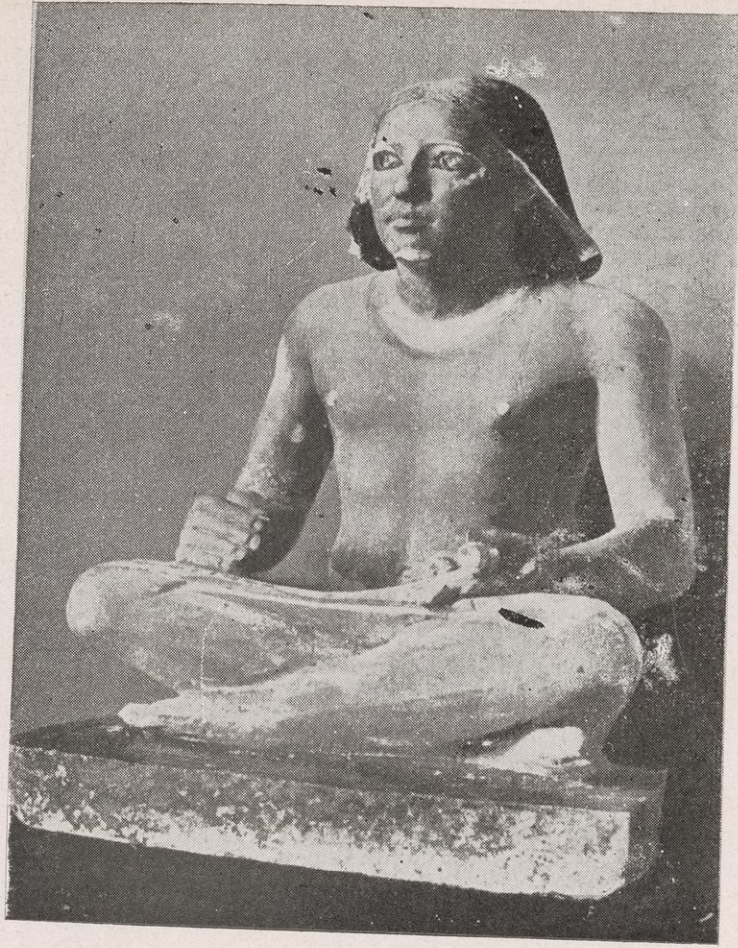
ومن ألطف ما يذكر من مصانعة شامپوليون للكنيسة أنه لما كان على وشك
الرحيل إلى مصر خاف الدوق دى بلاكاس أن تؤدى رحلته هذه إلى ما ينافى عقيدة
الكنيسة ، فكتب إليه في ٦ يولييه سنة ١٨٢٦ يذكره بأن خصومه ما زالوا يدعون
أن العلوم المصرية تهدم الديانة . قال الدوق :

« حينما أبلغنى الدوق دى دودوفيل القرار الصادر بشأنك لم يخف عنى المعارضة التى كان عليه أن
يقاومها لكى يحصل لك على هذا القرار . فسيكون عليك أنت أن تكذب ، بالأدلة المادية لا بالأقوال ،
كل ما حاول ذوو النيات السيئة أن يحيطوا به عمالك من ناحية والمبادئ السياسية التى تدين بها من
ناحية أخرى » .

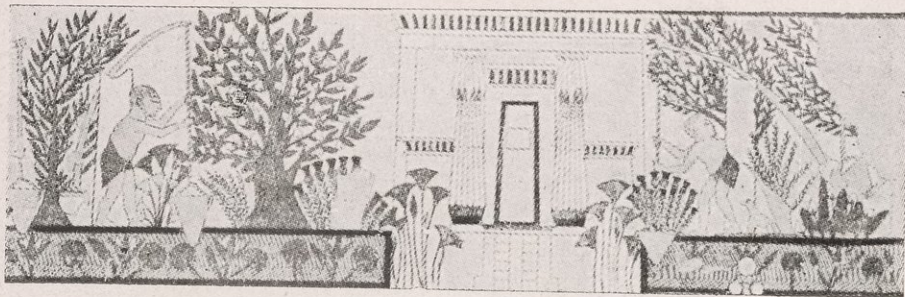
فرد عليه شامپوليون في ٢٥ يولييه من السنة نفسها بكتاب قال فيه :

(١) Champollion Figeac

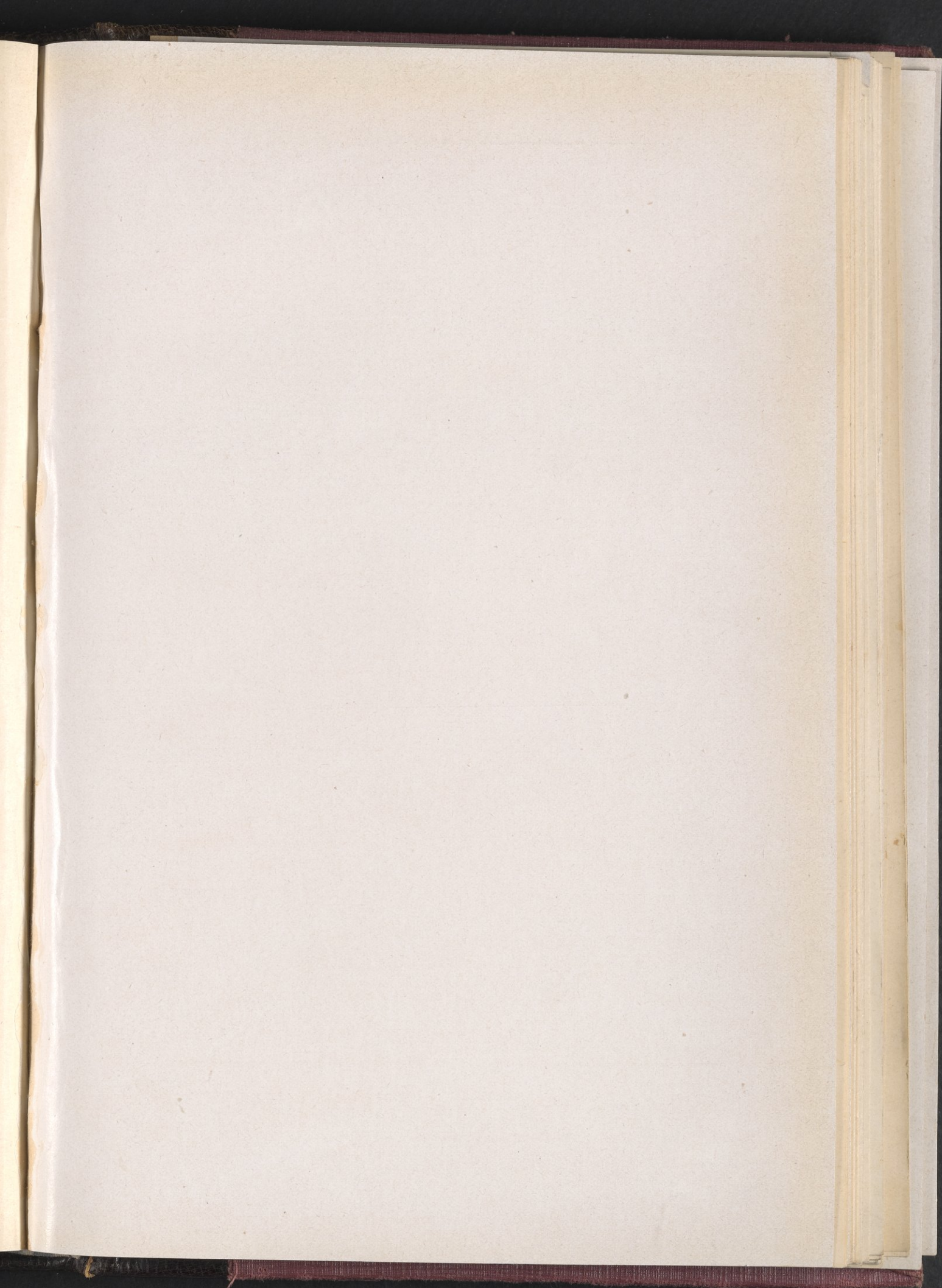
(٢) ص ١٢٨ من كتاب Autour de la Pierre de Rosette



الكاتب المصري وقد تربيع ونشر أمامه ملفا من البردى وتأهب للقراءة أو الكتابة . وقد وجد هذا التمثال في مقابر صقارة التي ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة وهو يوجد الآن في المتحف المصري



فلاحان يرويان حديقة بالشادوف الذي لا يزال مستعملا إلى الآن



« اسمح لى ياسيدى الدوق أن أقول لك إننى سأسارع إلى استخدام كل الوسائل التى ستعرض لى ، لىكى أهدم ما حاول ذوو النيات السيئة أن يذيعوه ، لغرض لا أريد أن أبحث فيه ، حول النتائج التى يؤدى إليها كشفى للحروف الهيروغليفية بازاء الديانة ، ثم حول مبادئ السياسية . فأما الحروف الهيروغليفية فأمرها تاريخى محض ولن يكون لها مساس قط بالاعتقاد الدينى . وأما مبادئ السياسية فقد أرشدتنى من تلقاء نفسها إلى ما يجب على احترامه وتأيينه ، حتى من قبل أن يقوم فى نفسى شعور الاعتراف بالجميل لمسيديه (١) فيجعل ذلك الواجب أعظم قوة وأشد تقديسا . فساكون دائما عندما يمليه هذا الشعور بلا أدنى تحفظ » .



(٢) ونعود بعد ذلك إلى رحلة شامبوليون إلى مصر ، فنقول إنه طاف فيها ، وقرأ الكتابات التى على آثارها ، ولا يهمنا هنا أن نعرض لطوافه هذا إلا من ناحية واحدة هى التى تمس الكنيسة وعقيدتها فى عمر الإنسان . فنقول إنه لما طالت تأملاته فى الآثار والكتابات التى عليها ، لم يبق لديه شك فى أنه أمام مئات من البراهين كل واحد منها يهدم عقيدة الكنيسة ، ويثبت أن الحضارة المصرية أقدم من التاريخ الذى ترى الكنيسة أن التوراة حددته لخلق الإنسان ، ولنوح ، ولإبراهيم . ولكنه (١) هذان الكتابان المتبادلان بين الدوق دى بلاكاس وشامبوليون فى ص ١٢٦ و ١٢٧ من المصدر السابق .

(٢) لما جاء شامبوليون إلى مصر كان من الضرورى له أن يستأذن والى مصر إذ ذاك محمد على باشا الكبير فى زيارة آثارها القديمة ، فسعى حتى قابله وأخذ منه الإذن الذى يريده . وقد كتب بعد ذلك إلى أخيه شامبوليون فيجاءك يصف هذه المقابلة فقال :

« نزلنا فى الدرج الكبير للديوان ، ثم دخلنا قاعة كبيرة مملوءة بالموظفين ، ومنها أدخلنا القاعة التى كان صاحب السمو (يريد محمد على باشا) فيها . وكان جالسا فى إحدى زوايا القاعة ، بين نافذتين ، وفى ملابس بسيطة ، وفى يده « شبق » مطعم بالماس . وقد بدت لى قامته عادية ، وبدأ لى فى مجموع مظهره ما يبعث انشراحا يدعو إلى الغرابة من عظيم مثله مشغول بأعمال عظيمة . وعيناه تتقدان ذكاء . ولحيته بيضاء ، جميلة ، تغطى صدره . فبعد أن سألنا عن أحوالنا تكرم فرحب بنا ، ثم سألنى عن خطى فى رحلتى فشرحها لى بايجاز ، وطلبت الفرمانات التى لا بد لى منها ، فنحنى إياها فى التوأعطانى اثنين من قواصيه لمرافقتى فى كل مكان أذهب إليه . وبعد ذلك أمر لنا بالقهوة فشربناها ، ثم استأذنا من سموه فى الانصراف ، فودّعنا مسلما علينا بيده ، مظهرا لنا كثيرا من العطف » .

وطلب محمد على باشا من شامبوليون أن يقدم له مذكرة عن تاريخ مصر القديم وعن الوسيلة التى يقترحها للحفاظ على الآثار المصرية القديمة فقدمها له .

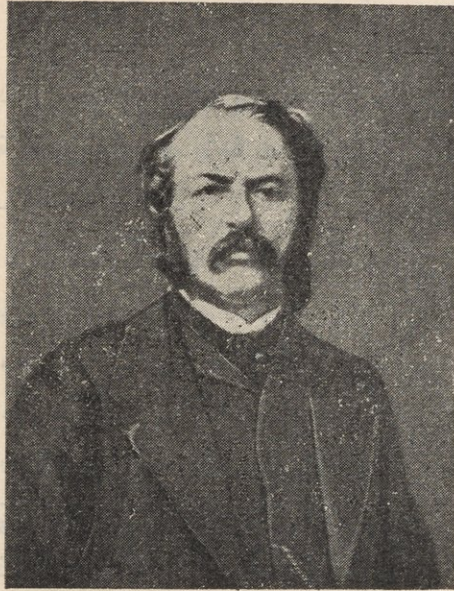
شاور نفسه في هل يعلن هذه الحقيقة أو يسكت عليها . فرأى بعد كثير من التفكير أن يطوى جوائحه على ما فيها ، وحينئذ كتب إلى أخيه في ٢٥ مارس سنة ١٨٢٩ يقول :

« أقول لك ، فيا بني وبينك ، إنني حصلت على نتائج ، هي مربكة لي إلى الحد الأقصى من وجوه عدة ، ولهذا يجب إبقاؤها في الكتمان . وهذه النتائج لم تخالف في شيء ما كنت أتوقعه وما كان يتوقعه معي « فوري » ، وقد جلت أمامي أشياء أخرى كثيرة كانت تتردد في نفسي تردداً مبهماً فصارت الآن عندي من الحقائق التي لا يتطرق الشك إليها » .

ثم عاد شامپوليون إلى فرنسا ، وكان من المنتظر أن يكتب تاريخاً لمصر فلم يكتبه ، وعاجله الموت في سنة ١٨٣٢



وبعد أن مات شامپوليون مضت فترة هدوء ظن فيها كثيرون أن الأسرار التي طواها الموت بطيه لن تعرف . ولكن اسم إيمانويل دي روجي ^(١) سطع في سنة ١٨٤٦ عالماً كبيراً من علماء المصردولوجيا . وكانت الحقائق العلمية قد تقدمت ، وكانت عقيدة الجماهير في أرقام الكنيسة قد بدأت تزعزع ، فلم يتردد دي روجي في أن



إيمانويل دي روجي

• (١) Emmanuel de Rougé

يذيع في سنة ١٨٦٣ ترجمة لبعض الأوراق البردية التي في متحف برلين وأن يجعل بعض عنوانها « قصص منذ ٤ آلاف سنة » . فلما ظهرت هذه الترجمة هاج قسوس الكنيسة وجعل بعضهم يكتبون إليه يتهمونهم بالمرور من الدين فرد على واحد منهم في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٣ بكتاب قال فيه :

« لقد وجدت في الإنجيل أسبابا قوية للاعتقاد بتقديس المسيح ، وهي في نظري أسباب كافية ، فلست أجد معها محلا للبحث عن أسباب أخرى . ولكن العلم يستطيع أن يسلك طريقه من غير أن يمس عقيدتي المسيحية » .

وكتب أيضا فقال :

« يستخدم بعضهم كتابات المصريين القدماء من غير أن يفهموها ، وهم لذلك يظنون أنهم واجدون فيها قصصا من التوراة مشوهة تشويها مكشوفاً^(١) . فالتقديس السليم قد قضى منذ زمن طويل على المؤلفات التي من هذا النوع والتي قامت على أساس الرغبة في مسايرة الأوهام . وهناك غير هؤلاء قوم لا يترددون في أن ينكروا صراحة قواعد علمنا ويقولوا إنه وهم أو أقل^(٢) .

وبعد أن يخلصوا بهذه الطريقة من هذا العنصر المربك لهم يؤكدون بجرأة أنه لا يوجد في مصر أي بناء أثري يمكن أن يكون أقدم من سنة ١٠١٢ ميلادية^(٣) . فعلى هؤلاء نرد بالكلمة التي كتبها مصرولوجي^(٤) انجليزي كبير وهي : « ما أبعد الجاهل عن سبيل العذر في جهله إذا كانت الوسائل لمحو هذا الجهل في متناول يده » .

ثم أشار دى روجي إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لا يصح تخطيه ، ثم قال :

(١) لعل دى روجي يشير بذلك إلى الأب جيرين دى روشي الذي تقدم أنه زعم أن الملك منا هو نوح ، وأن ملوك مصر الذين ذكرهم مانيتون هم أولاد نوح الثلاثة ، وأن الفرعون مورييس هو مبراهيم حفيد نوح .

(٢) يريد بقوله « علمنا » علم الآثار المصرية .

(٣) يشير بذلك إلى كاتب انجليزي كان اسمه كرنوال وكان قد وضع كتابا في سنة ١٨٦٢ ذهب فيه هذا المذهب .

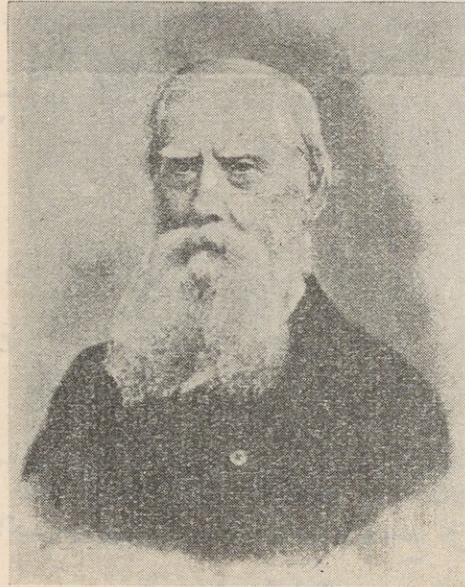
(٤) يريد لى بيچرينوف (Le Page Renouf) وسيأتي ذكره .

« إن مبادئنا لا تسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تزعم أن أركانها من جراء تقدم علم أيا كان . ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم الذي تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها في العلم الحديث ، بجانب العلم الذي يبحث في القوانين الخاصة بسير الكواكب ، وبجانب العلم الذي يبحث في كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئاً إلى الإيمان المسيحي » .

وبينما كانت هذه الصيحة تدوى في فرنسا كانت صيحة مثلها تدوى في إنجلترا على يد لي بيچ رينوف ، وكان لبيسيوس قد حمل علم المصروولوجية في ألمانيا . ثم ظهر لينورمان في فرنسا في سنة ١٨٨٠ فعزز الحملة . وحينئذ لم تقو عقيدة الكنيسة على الثبات فانهارت البقية الباقية منها .



ولما بلغ الأمر هذا الحد عادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها ، وفكرت وفكرت ، ثم اهتدت بخفاة إلى أنها أخطأت في اعتبارها تلك الأرقام التي فيها مقدسة وفي استخراجها منها الحساب الذي استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التي بنت الكنيسة عليها نظريتها في هذا الخطأ ، فيكفي أن نذكر منها سببين :



لي بيچ رينوف

الأول : أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيها عن الأخرى في جملتها وفي تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة .
والثاني : أن التوراة حينما تقول إن فلانا ولد فلانا لا يكون مرادها أن الثاني ولد للأول من غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال ، بل المراد فقط أن الثاني نسل للأول بحيث قد يكون حفيدا له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ أن تجمع الأرقام التي في التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذي انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال في النهاية إن هذا هو الزمن الذي انقضى على خلق الانسان .

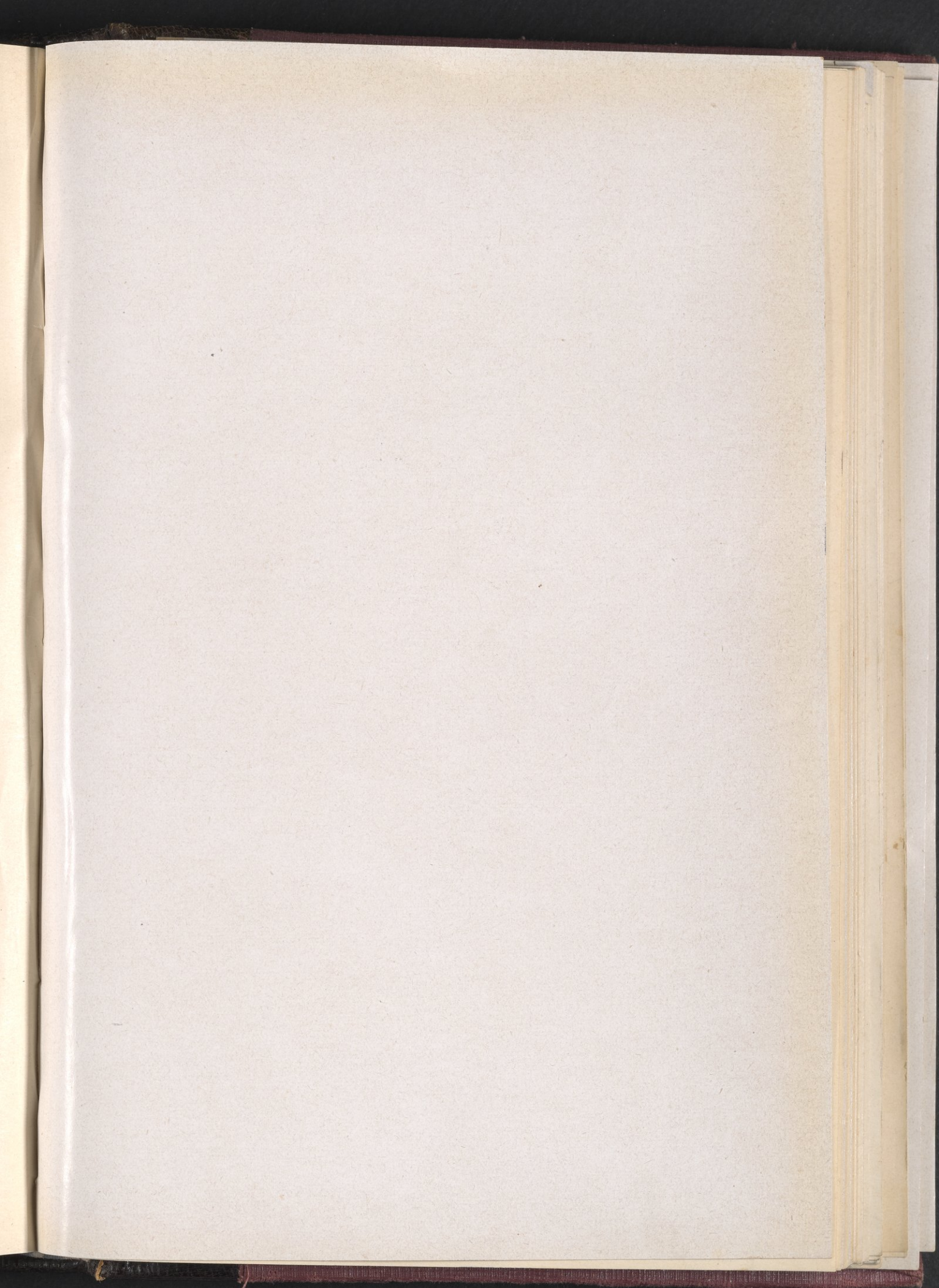
وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصري . وبه أيضا أعلنت أنها كانت على خطأ في تحديد السنين التي كانت تحددها لخلق الإنسان . وبه أخيرا اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠ .



ونقول بعد ذلك إن العلم الحديث دل على أن وجود الإنسان على الأرض يرجع إلى بضع عشرات ألوف من السنين . فبعضهم يقدر هذه المدة بنحو أربعين ألف سنة والبعض الآخر يقدرها بنحو خمسين ألف سنة . وهناك من يقدرها بأكثر .



السكراب المصرى وقد نشر ورق البردى أمامه وأخذ القلم فى يده وتأهب للسكرابة
(مصحف الووفر)



AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CHICAGO

عَقِيدَةُ

الْحَيَاةِ وَجَدَّ الْمَوْتِ



قَلْبِيَقِدْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

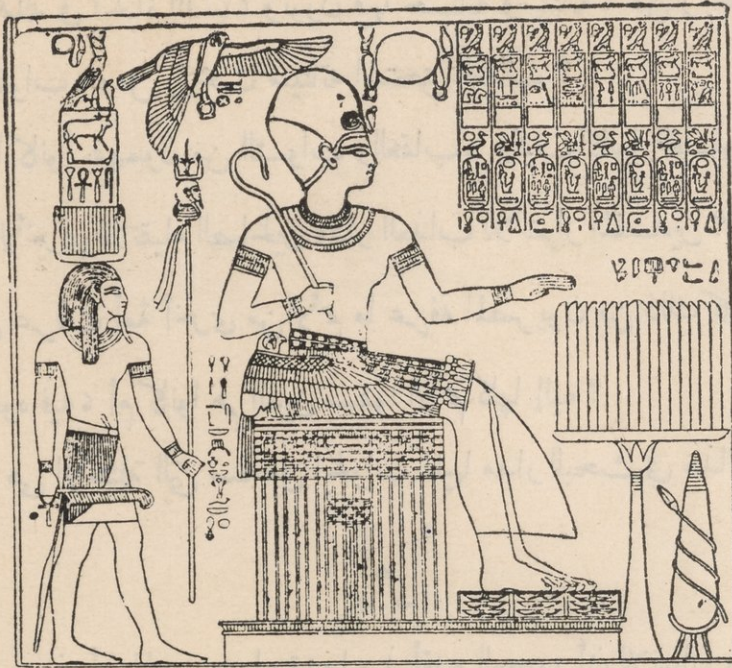
هل كان المصريون يعتقدون أن للإنسان روحا ؟
وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لا يموت بموت الجسم ؟
وهل كانوا يرتبون على ذلك أن الإنسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله في الحياة الدنيا ، وتوزن فيها حسناته وسيئاته ، فمن رجحت حسناته استحق الثواب ، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟
وماذا كانوا يفهمون من الثواب والعقاب ، وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم في الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟
وهل عرفت أمة أخرى من الأمم ما عرفه المصريون من ذلك كله ، في الوقت الذي عرفوه فيه ، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟
هذه هي الأسئلة التي سنجعل الجواب عليها مدار البحث في هذا الموضوع .



لا ريب في أن المصريين اعتقدوا منذ أقدم العصور أن للإنسان روحا ، وأن هذا الروح لا يموت بموت الجسم ، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى ، وقد كان اعتقادهم هذا هو السبب الأول في أنهم عنوا عنايتهم الكبيرة ببناء القبور المتينة ، وتشيد الأهرام الضخمة ، وتحنيط الجثة ، والإثثار من التماثيل الحجرية مع الميت في قبره . فقد كان الغرض الأول من هذا كله حفظ الجثة من الفناء لكي يجدها الروح كلما دخل عليها القبر ، فإذا تعفنت مع ذلك وأكلها البلي فالتماثيل يقوم مقامها ، وإليه يرتاح الروح . وقد يفنى تماثيل ويبقى آخر ، ولهذا استكثروا من التماثيل في القبور ، حتى إذا فنى بعضها بقى البعض الآخر .

ولا نطيل في هذا فهو معروف مشهور .

وكانوا يقولون إن لكل انسان شبيها به ، يولد معه ، ولا يرى ، ويسمى « كا » . ويبقى هذا الكا لباسا جسمه ما دام حيا ، فاذا فارقه مات . ولم يكن الإنسان وحده هو الذى له كا ، بل الآلهة أيضا . وكانوا يرمزون لهذا الكا بذراعين مرفوعين لأنه قيل في أساطيرهم إن الإله رع حينما بدأ بمخلق الإلهين الأولين شو وتفنيت وضع ذراعيه خلفهما فسمهما الكا الذى فيه ، فسرت فيهما الحياة^(١) .



الملك سبتي الأول جالسا وأمامه مائدة القترايز ومن خلفه روحه المسمى كا —
وقد وجدت هذه اللوحة في أبيدوس حيث توجد الآن العرابية المدفونة

وللعلماء بحوث طويلة في هذا الكا وطبيعته ، وهم يرون فيه معانى مختلفة عدها بعضهم أربعة عشر^(٢) . ومن أبرز خصائصه أن اتصاله بالجسم يعطيه الحياة ، وأن انفصاله منه يؤدى به إلى الموت ، وأنه لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت في قبره .

(١) ص ٢٤٦ من كتاب (La Religion des Eg.) لأدولف أرمان الذى مر ذكره .

(٢) ص ٢٠٩ من كتاب (Les Mystères Egyptiens) تأليف (A. Moret) .

هذا نوع أول من الروح . وهناك نوع ثان كانوا يسمونه « با » ، وكانوا يعتقدون أنه هو أيضا يفارق الجسم عند الموت ، ويطير في الجو ، ويصعد إلى السماء ، ويمكنه أن يتشكل في أشكال مختلفة . وكانوا يجعلون له وجه صاحبه وجسم طائر . وهو أيضا لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردد على الميت في قبره . فقد اعتقد المصريون إذن أن للإنسان نوعين من الروح باقيين بعد موته . ولا نخوض هنا في طبيعة كل منهما ، لأن لذلك بحثا ما زال المتخصصون يعالجونه ، والذي يهمنا نحن في بحثنا هذا هو أن المصريين لم يجعلوا الإنسان يفنى بموته بل جعلوا له روحين باقيين ، فننتقل بعد ذلك إلى البحث في هل وقفوا عند هذا الحد أو مضوا إلى نتيجته الضرورية فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الإنسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله في دنياه ، فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات .



في سنة ١٩٠٠ عثر المصردولوجي الانجليزى جريفث (F. L. L. Griffith) في المتحف البريطانى على ملف من ملفات البردى المصرية فترجمه إلى اللغة الإنجليزية فاذا هو قصة طويلة تلخص في أن فرعونا من فراعنة مصر اسمه أوزيماريس كان له ولد يسمى ساتنى أو ساتمى تفقه في العلوم حتى كان الملوك يوجهون إلى أبيه أسئلة يطلبون منه الجواب عليها ، فإن أجاب فذاك ، وإن عجز كان عجزه دليلا على تفوق بلادهم على مصر . فكان ساتنى يجيب على هذه الأسئلة ويجعل لمصر التفوق على جميع البلاد . وتزوج ساتنى فلم يرزق ولدا فحزن وذهبت امرأته إلى المعبد فصلت ودعت الله أن يرزقها بولد ، ثم نامت ليلتها في المعبد فرأت في نومها أن دعوتها ستجاب ، ثم رأت في ليلة أخرى هاتفا يخبرها بأن ابنها سيكون صاحب كرامات ويطلب منها أن تسميه سينوزيريس .

ثم جاء هذا الولد فحذق علوم الحكمة والسحر وهو لا يزال صبيا . وتطلع ساتنى ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غنى تسير من ممفيس إلى الجبل في موكب

حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم، ثم رأى في الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج في حصير، ولا موكب معه ولا مشيعين، فالتفت إلى ولده وقال إنه يرجو أن يكون له في الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغنى لا كمصير هذا الفقير. فقال سينوزيريس إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغنى. فامتعض الوالد، ولحظ الولد ذلك فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الاثنين. ثم قرأ صيغا سحرية وذهب بأبيه إلى مكان في جبل ممفيس فنزل به إلى الدار التي يحاسب فيها الأموات^(١) فاذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بناس من جميع الطبقات، فاجتازا ثلاثا من هذه الدور ثم دخلا الرابعة فاذا ناس يذهبون ويحيئون بينما حمير تأكل من خلفهم، ثم ناس غيرهم يثبون إلى طعام معلق فوق رؤوسهم فلا يدركونه، فيثبون ويثبون، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة ما بينهم وبينه. ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحا من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه بينما في الباب أرواح متهمة فهي واقفة تضرع. ثم رأيا رجلا منطرحا تحت الباب على ظهره، ومحور هذا الباب مركز في عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل، وهو لا ينفك يفتح ويقفل، والرجل لا ينفك يصيح من الألم.

ثم دخلا القاعة السابعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات واحدة بعد أخرى، والإله الكبير أوزيريس جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذى الريشتين بينما الإله أنوبيس واقف إلى يساره والإله

(١) هذه الدار ليس لها اسم معين في النص المنشور في كتاب (Les contes populaires de l'ancienne Egypte) أو « القصص الشعبية لمصر القديمة » تأليف ج. ماسبيرو من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٨ من الطبعة الثالثة. ولكن هذه الدار تسمى « الجحيم » في النص الآخر المنشور في كتاب (Causeries d'Egypte) تأليف ج. ماسبيرو أيضا من ص ٢١٣ إلى ص ٢٢١.

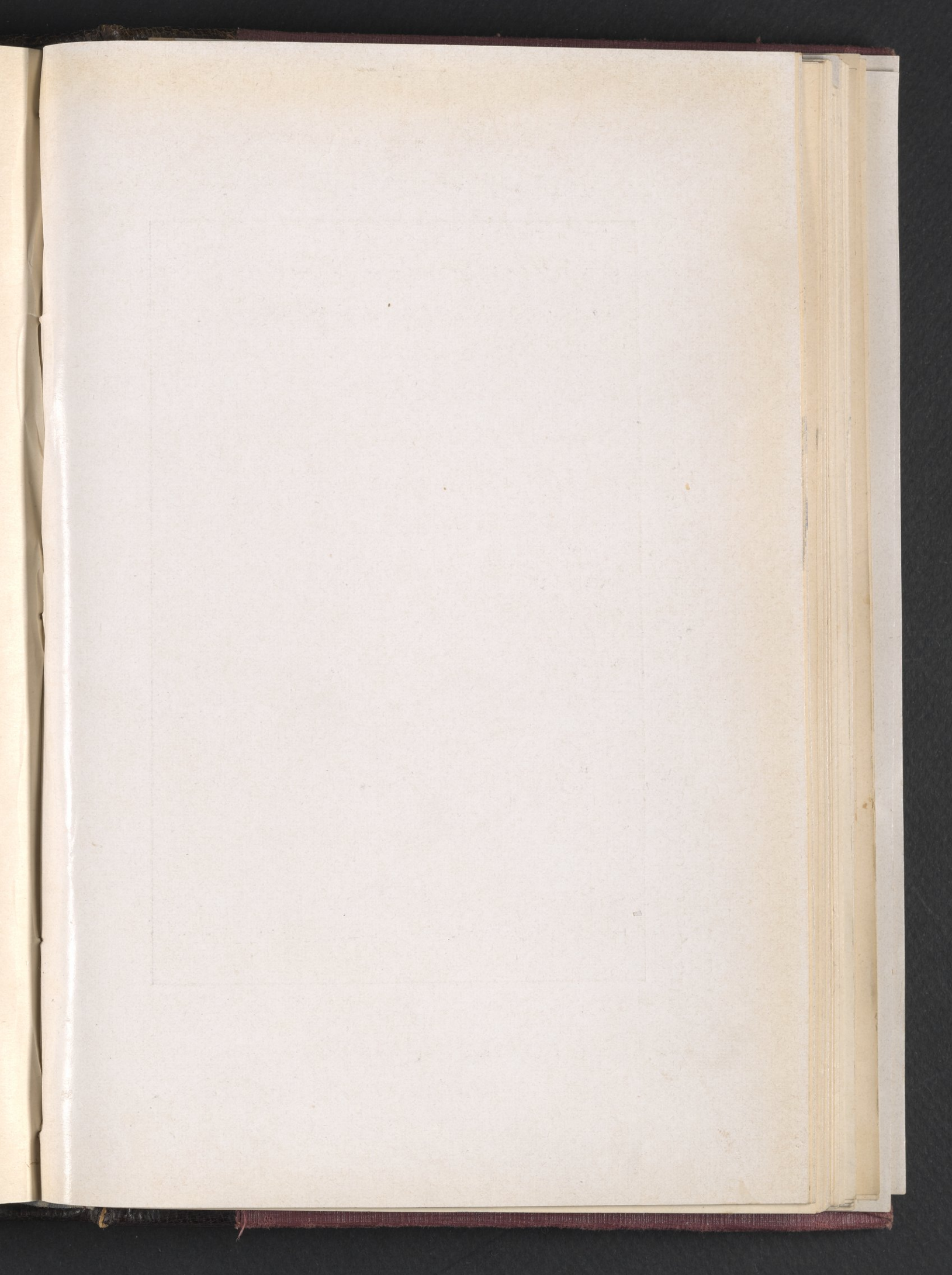
(٢) هؤلاء المنادون يشبهون محضرى المحاكم الآن.

(٣) يقول ماسبيرو في الحواشي التي وضعها لهذه القصة إن المصريين كانوا يسمون هذا التاج "ياتف أو يوتف" وأنه مكون من قلنسوة بيضاء ومن ريش النعام إحداهما في الجهة اليمنى والثانية في الجهة اليسرى.

(٤) أنوبيس هو مدير دفن الأموات ودليلهم في الدار الآخرة.



الملكة قنطرة زوجه رسميتين الثاني ، ترى إلى اليسار جالسة في قبرها تتسل بلعب الشطرنج . وأمام القبر روحها المسمى « با » رأسه كراسها
وجسمه جسم طير . وأمام هذا الروح يوجد روحها الثاني المسمى « كا » وقد تقض يديه من لعب الشطرنج وخرج من القبر وركع ليصل للشمس
(أخذت هذه الصورة بالوانها هذه من قبر الملكة في وادي الملكات)



(١) توت إلى يمينه ، والآلهة الآخرون الذى يتألف منهم مجلس دار الحساب واقفون
يميناً ويساراً والميزان منصوب يزن السيئات والحسنات . فمن رجحت سيئاته حسناته
ألقى إلى الوحش أما بيت (سيأتى تعريف هذا الوحش) يفترسه ، ومن رجحت
حسناته سيئاته قيد إلى حيث الآلهة وصعدت روحه إلى السماء ، أما من تعادلت
حسناته وسيئاته فلا يفترسه الوحش ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة .

ونظر ساتى فرأى على مقربة من أوزيريس رجلاً حسن البنة مرفوع المنزلة .
فالتفت إلى أبيه وقال : « أترى هذا الجالس بجانب أوزيريس ؟ إنه الفقير الذى
شاهدته مدرجاً فى حصير وليس فى جنازته أحد من المشيعين . لقد جرى به إلى
هنا ثم وزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانية الأولى . وكان الإله توت قد سجل
له فى سجله أنه لم يتمتع على الأرض بسعادة كافية فأمر أوزيريس أن يعطى كل
ما كان مجهزاً به ذلك الغنى الذى رأيت جنازته مشبعة بمظاهر التكريم وأن ترفع
منزله بين الآلهة ، أما الغنى فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح الثانية
فقيد إلى الجزاء ، وهو الذى رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى وسمعته يصيح
من الألم » .

وعلى هذه القاعدة ، قاعدة وزن الحسنات والسيئات ، جعل الولد يفسر لأبيه
كل ما رآياه من المناظر ثم أخذ بيده وعاد به إلى وجه الأرض من حيث جاء .
(٢)

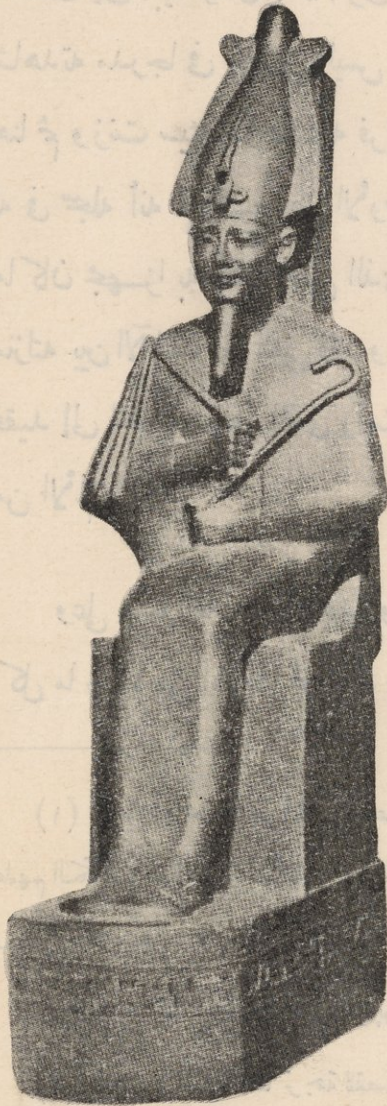
(١) توت أو تحوت هو المعروف عند اليونانيين باسم هرمس . وكان المصريون يزعمون أنه هو الذى
عليهم الكتابة والقوانين والحكمة وجميع المعارف . وهو الذى يقيد وزن قلب الميت فى محكمة أوزيريس
ويقدم تقارير عن أعمال الميت إلى قضاة المحكمة .

وهو المعبود الأكبر فى مدينة هرموبوليس أو الأشمونين .

(٢) ليس ما أثبتناه هنا ترجمة للقصة بل هو تلخيص لها كما قلنا . والقصة طويلة فنأرادها فليطلبها
فى المصدرين اللذين أشرنا إليهما من قبل .



وروى ديودور الصقلي فيما رواه عن محاكمة الأموات في مصر أن المصريين كانوا كلما مات لهم ميت أبلغوا موته ويوم دفنه لأقاربه ومعارفه ولقضاة مكلفين أن يحاكموه ، فإذا جاء يوم الدفن حملت الجثة في قارب يجتاز بها بحيرة ، وجلس القضاة والمعارف ينتظرونها عند الشاطئ الثاني ، فإذا وصلت إلى المرسى أبيع لكل مدّع على الميت أن يتقدم للقضاة بدعواه ، فإذا ثبت أن الميت أساء في حياته حكم القضاة بحرمان جثته من مدفنه ، أما إذا لم يتقدم أحد أو إذا ثبت أن المدعى كاذب



فأهل الميت يخلعون حدادهم ويثنون على ميتهم ، فيجيب الجمهور بالتصفيق ويتمنى للميت الخلود مع الأبرار . والعقاب الذي ينزله القضاة بكل مدّع كاذب في هذه الحالة عقاب شديد رادع .

هكذا روى ديودور ، وهو مخطئ وقد التبس الأمر عليه ، فأخذ ما كان المصريون يعتقدونه حسبا يؤديه الميت في الحياة الأخرى أمام قضاة من الآلهة ، على أنه حساب يؤديه أمام قضاة من الأحياء قبل أن يدفن . فما كتبه ديودور في هذا يجب أن يضاف إلى الأشياء الكثيرة التي أخطأ المؤرخون اليونانيون والرومانيون فهمها في ما كتبوه عن المصريين . ولكن خطأ ديودور لا يمنع من أن في روايته حقيقة بارزة هي أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت محاسب بعد موته على سيئاته وحسناته ، معاقب على الأولى مثاب على الثانية ، وهذه العقيدة هي بعينها التي رأيناها في قصة ساتي وابنه سينوزيريس .

أوزيريس الإله الأكبر لمحاكمة الأموات



ونقول بعد ذلك إننا لم نسق هنا قصة ساتني وولده ، ولا رواية ديودور ، لأنهما الدليل على عقيدة الحساب بعد الموت ، كلا فان الدليل على هذه العقيدة نصوص صريحة وجدت في قبور المصريين منذ أقدم العصور . وما ذكرنا قصة ساتني وولده ^(١) إلا للدلالة على أن هذه العقيدة لم تكن فلسفية يتلقاها الكهنة في المعابد أو يطلبها طلابها في مصادرها الخاصة ، بل كانت شائعة في سواد الشعب تدبج حولها القصص والأحاديث .

فقد وجدت هذه العقيدة في نصوص الأهرام التي ترجع إلى الأسرتين الخامسة والسادسة ^(٢) . وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم في الكثير منها عن عقائد وتقاليد تذهب في قدمها إلى أبعد من هاتين الأسرتين ، بل إلى ما قبل عصر الأسر . ففي هذه النصوص أن الملك بعد وفاته يصعد إلى السماء ثم يأخذ مكانا له في سفينة رع ^(٣) ليجوب السماء معه ^(٤) ، ولكنه لا يحصل على هذه المرتبة ولا تفتح أمامه أبواب السماء إلا بعد أن يؤدي حسابا أمام محكمة رع عن أعماله في الحياة الدنيا ، وبعد أن تصدر المحكمة حكمها بأنه أحسن في أعماله هذه وصار يستحق الثواب .

(١) هذه القصة وضعت في العصور الأخيرة للدنية المصرية فهي حديثة .

(٢) نصوص الأهرام هي التي وجدت في أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة . والذي وجدها هو ماسبيرو في سنة ١٨٨١ ثم ترجمها إلى الفرنسية في سنة ١٨٨٢ . ومن بعده ترجمها إلى الألمانية العالم الألماني سيت (Sethe) في سنة ١٩٠٨ . ثم ترجمها أيضا العالم سبيليرز (L. Speleers) وعلى هاتين الترجمتين الأخيرتين اعتمد موري فترجم إلى الفرنسية ما اقتبسه منها . واعتمدت أنا على ترجمة موري .

(٣) الأسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ إلى نحو سنة ٢٥٤٩ ق م (بحساب التاريخ القصير) والأسرة السادسة حكمت من نحو سنة ٢٥٥٠ إلى نحو سنة ٢٣٦٠ ق م .

(٤) سفينة رع هي السفينة التي كانت الأساطير القديمة تقول إن الإله رع (الشمس) يخترق بها السماء كل يوم .

(٥) الفقرة ١١٧١ من نصوص الأهرام في ص ١٥٣ من الجزء الثاني من كتاب

(Histoire de la Nation Eg.) لموري .

وهنا يقول موري إن نصوص الأهرام صريحة في ذلك ، وهذه هي
الفقرة ١٢٣٨ منها :

« إن أتوم يدعو الملك إلى السماء ليحيا فيها ... لقد فحست أعمال الملك فلم يوجد فيها سوء . وهذه
شهادة ذات معنى كبير أمام وجهك يا رع » .

ويمضي موري بعد ذلك في ذكر النصوص في هذا الموضوع ، ومؤداها أن
الملك أوناس ^(١) يطلب حكم الآلهة على أعماله في الدنيا ، فتجتمع المحكمة وتصدر حكمها ،
وهو يقضى ، كما تقدم ، بأن « أعمال الملك فحست فلم يوجد فيها سوء » . وبناء
على هذا صار الملك يستحق أن تفتح له أبواب السماء وأن يأخذ مكانا له في سفينة رع .

وفي الفقرة ٣١٦ من هذه النصوص أنه لما مثل أوناس أمام الوحش الرابض
في المحكمة اعتراه الخوف ، ولكنه نرج بعد ذلك ومعه إلهة الحق والعدل ، ولم يلق
في النيران . فمعنى ذلك أنه لو كانت المحكمة قد حكمت ضده لكان العذاب الذي
ينتظره أن يترك للوحش يفترسه أو يلقى في النيران .

فهناك إذن ، منذ أقدم العصور ، حساب ثم ثواب أو عقاب . وهذا العقاب
قد يكون في عذاب افتراس الوحش أو عذاب النار .

الميت فعلا لا

وقد قال بعض الباحثين في نصوص الأهرام هذه إنها ذكرت محاسبة الملك
على أعماله في الدنيا وصعوده إلى السماء ، ولكنها لم تذكر شيئا مثل ذلك لأحد غير
الملك . فكان الملك هو وحده الذي يحاسب ويصعد إلى السماء ، أما من عداه
من أفراد الرعية فلا . ولكن إرمان أثبت من نصوص الأهرام نفسها أن هذا
القول خطأ ^(٢) ، لأن النصوص تذكر بالعكس في فقرات منها « الميت الذي يرقد تحت
الأرض والتراب والرمل » ، فميت كهذا ليس له ضريح مبني بالطوب ولا هرم مشيد

(١) الملك أوناس هو آخر ملوك الأسرة الخامسة . وقد ذكر اسمه في هذه النصوص لأنها منقوشة في هرمه ،
ولأنها نقشت فيه من أجله . (٢) ص ٢٤٥ من كتاب (La Religion des Eg.) لإرمان .

بالجسارة ، فهو ليس ملكا . وهناك فوق ذلك فقرة أخرى تذكر من مآثر هذا الميت أنه «لم يسب الملك قط» ، فبديهي أنه لا بد أن يكون شخصا غير الملك .

ولهذا يرى إرمان أن عقيدة الحساب كانت تشمل غير الملك .

على أنه في هذا الوقت نفسه كانت عبادة أوزيريس قد أخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية تقبل الطبقات كلها عليها . ونقول « في هذا الوقت نفسه » لأن نصوص الأهرام أشارت إليها ، فدلّت بذلك على أن هذه العبادة كانت قد بلغت شأنارأى معه كهنة هليوبوليس أن من الخير لهم أن يحموها على عبادة رع وأن يمزجوهما معا . وعبادة أوزيريس ، أساسها الأول أن كل إنسان ، ملكا كان أو فردا عاديا ، مسئول بعد الموت عن أعماله في الدنيا أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزيريس نفسه ، ويساعده فيها توت وأنوبيس وحوريس ومعات واثنان وأربعون قاضيا . فإذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفى بالنعيم الخالد وصار مثل أوزيريس . أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء في حياته فجزأوه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقي في النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب .

وقد راجت هذه العقيدة وراجت معها عبادة أوزيريس في زمن الدولة الوسطى ، ثم راجتا أكثر في زمن الدولة الحديثة ، لأن كل أحد صار يرجو أن يكون مثل أوزيريس في الحياة الأخرى . وكان أوزيريس قد نشأ في مدينة بوزيريس (وهي الآن بوصير أو أبو صير بمديرية الغربية) فانتقل إلى مدينة أبيدوس (وهي الآن العرابة المدفونة بمديرية جرجا) فاعتبرت عاصمة له ومدينة مقدسة يرغب الملوك والأمراء وقواد الجيش والأعيان وغيرهم من سواد الأمة في أن يدفنوا فيها للتبرك بترابها ، فإذا لم يجدوا أرضا لهذا الغرض اكتفوا بأن يقيموا لأنفسهم في مقبرتها لوحة تذكارية من الألواح الحجرية التي تقام على القبور .

وفما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما سمي «بكتاب الموتى» حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت . وهذا الكتاب

يشتمل على فصول مختلفة بعضها في خلق الكون ، وبعضها في بيان الأخطار التي يستهدف لها الميت بعد موته ، وبعضها تعاويذ سحرية كان الذين وضعوها يزعمون أنها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار ، وبعضها - وهو ما يهمنا في موضوعنا هذا - في محاسبة الميت على أعماله في الدنيا أمام محكمة أوزيريس .

وكانوا يحسمون هذه المحاسبة فيضعون لها في كتاب الموتى ، وعلى التوابيت رسم محكمة ومحكمة وميزان . وفي هذه المحكمة يجلس أوزيريس على عرشه حاملا عصاه وكرباجه ، ومعه اثنان وأربعون قاضيا من الآلهة . ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى اثنتين وأربعين إقليما فكان كلا من القضاة يمثل إقليما من هذه الأقاليم . فإذا جرى بالميت تسامحه انوبيس وأخذ قلبه فوضعه في أحد كفتي ميزان . ووضع في الكفة الأخرى تمثال الإلهة معات (إلهة الحقيقة والعدل) أوريشتها ثم وقف الإله توت بجانب الميزان وفي يده اليمنى قلم وفي يده اليسرى سجل يدون فيه نتيجة الميزان ثم يرفعها إلى أوزيريس . ويقف بالقرب من توت الوحش «أماييت» ، وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد ، متأهبا لأن يلتهم الميت الذي يصدر الحكم بالتهامه . وفي بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة في مكان خاص منها ، ليلقى فيها المذنبون . والقلب في الميزان يمثل أعمال الميت في حياته . وهو الذي يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر .



وكتاب الموتى يدلنا على نوع الأعمال التي كان الميت يحاسب عليها أمام أوزيريس ، فقد وجد في هذا الكتاب تضرع من الميت إلى قلبه حينما يؤخذ منه ليوضع في الميزان . وهو يقول فيه :

« أيها القلب الذي أخذته من أمي ، وولدت به ، وعشت معه على الأرض ، لا تشهد علي . لا تكن خصمي أمام القوى المقدسة . لا تكن ثقیل الوزن ضدي » .

ثم وجد في كتاب الموتى أيضا دفاع يدافع به الميت عن نفسه حينما يأخذ أنوبيس في وزن أعماله . وهو دفاع فيه معان سامية من معاني الأخلاق الفاضلة المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت . في هذا الدفاع يقول الميت كلمات تقديس يوجهها إلى أوزيريس والقضاة الذين معه :^(١)

« لقد جئت إليك أجلب الحقيقة وأطرد الخطيئة .

« إنني لم أقارف الشر ، ولم أعتد ، ولم أسرق ، ولم أقتل غدرا ، ولم أمس القرايين ، ولم أكذب ، ولم أسل دموع أحد ، ولم أتدنس ، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم أتلغ أرضا مزروعة ، ولم أقذف ، ولم أترك الغضب يخرجني إلى غير الحق ، ولم أزن ، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ، ولم أسيء الظن بالملك ولا بأبي ، ولم ألوث الماء ، ولم أحمل سبدا على أن يسيء إلى عبده ، ولم أحلف كاذبا ، ولم أغش في الميزان ، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع ، ولم أصد طيور الآلهة ، ولم أرد ماء حين الحاجة إليه ، ولم أسد قناة رى على غيري ، ولم أطفئ نارا يجب أن تشعل ، ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة ، إنني طاهر ، طاهر » .^(٢)

وهذا الدفاع يسميه شامبوليون "دفاعا إنكاريا" لأن الميت يعزوفه لنفسه الحسنات والفضائل في صورة إنكار للسيئات والذائل .

(١) ترجمت هذا الدفاع عن كتاب (Le Nil et la Civilisation Eg.) ص ٦٥ لمؤلفه موري . وقد قال موري إن هذا النص تلخيص وليس ترجمة حرفية . ويوجد في كتاب (La Religion des Eg.) ص ٢٦٤ و ٢٦٥ لمؤلفه إرمان نص يماثله ولا يختلف عنه إلا قليلا .

(٢) مما يستحق الملاحظة هنا أن هذه السيئات التي يتبرأ منها الميت تنقسم إلى أنواع . فنوع منها خاص بالآلهة وهو مس القرايين ، وذبح الحيوانات المقدسة ، وصيد طيور الآلهة ، والاستخفاف بالآلهة . ونوع خاص بالملك وبالأب وهو سوء الظن بهما . ونوع خاص بالسلوك مع الناس وهو مقارفة الشر ، والاعتداء ، والسرفرة ، والقتل غدرا ، وإسالة الدموع ، وإتلاف الأرض المزروعة ، والقذف ، والزنى ، والامتناع من سماع كلمة العدل ، وتلوث الماء ، وحمل السيد على أن يسيء إلى عبده ، والغش في الميزان ، ومنع اللبن عن أفواه الرضع ، ورد الماء حين الحاجة إليه ، وسد قناة الرى على الغير ، وإطفاء النار التي يجب أن تشعل . وهناك نوع ثالث خاص بهتذيب النفس قبل أن يكون خاصا بالغير وهو التدنس ، وترك الغضب يخرج الإنسان إلى غير الحق ، والكذب ، والحلف كذبا . ويختتم الميت دفاعه بكلمة هي جماع الفضائل النفسية وهي قوله « إنني طاهر ، طاهر » .

ثم يخاطب الميت القضاة الاثني والأربعين فيقول :^(١)

”لکم الحمد أيها القضاة . إنني أعرفکم وأعرف أسماءکم . لست أسقط أمام سيفکم . إنکم لا تعلنون شيئا ضدي لهذا الإله الذي أتم حاشيته . لا شأن لکم بي . إنکم تقولون الحقيقة في أمري أمام سيد كل شيء . لأنني اتبعت الحق والعدل في مصر ، ولم أجدف في حق الإله ، ولم يجد الملك المعاصر لي شيئا يأخذه علي . لکم الحمد أيها الآلهة الجالسون في قاعة الحقيقتين^(٢) والذين ليس فيهم أثر من كذب ، وهم يعيشون من الحقيقة أمام حوريس المستقر في شمس . أنقذوني من «باباي»^(٣) الذي يأكل أحشاء العظام في يوم الحساب الكبير . هاكم أنظروا : إنني آت اليکم بلا خطيئة ولا سوء . وقد فعلت ما يرضى الناس والآلهة . وأرضيت الإله بما يحب . وقد أعطيت خبزا للجائع ، وماء للعطشان ، وثيابا للعاري ، وزورقا لمن ليس له مركب . وقد قدمت قرابين للآلهة ، وهدايا جنائزية للمجدين^(٤) .

« أنقذوني واحفظوني . إنکم لا تهملوني أمام الإله العظيم . إنني رجل ذو فم طاهر ، و يدين طاهرتين ، والذين يرونني يقولون لي : مرحبا بقدمك ، مرحبا بقدمك »^(٥) .

فذلك الدفاع الإنكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه ، وهذا الخطاب الذى يوجهه الميت إلى القضاة ، هما نتيجة مباشرة لعقيدة الحساب ، وفيهما الدليل القاطع على أن الميت يتقدم إلى الحساب وهو ممتلئ خوفا من أن تكون أعماله في الدنيا مؤدية به إلى العقاب . ومن هذا الخوف تكون عقيدة الحساب أساس عمل الخير وتهذيب النفس والاستقامة في معاملة الغير .



ويحسن هنا أن نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة في نفوس المصريين ، فلنستعرض شيئا مما كتبوه في ذلك ، في قبورهم ، تعريفا بأشخاصهم وبسلوكهم في الحياة .

- (١) هذا الخطاب مترجم من كتاب (La Religion des Eg.) ص ٢٦٦ و ٢٦٧ لمؤلفه إرمان .
- (٢) المراد بالحقيقتين حقيقة الوجه القبلى وحقيقة الوجه البحرى . وكانت محكمة أوزيريس تسمى قاعة الحقيقتين .
- (٣) فسر إرمان كلمة «باباي» هذه فقال إن المراد منها رفيق لإله الشرسيت أو سبت نفسه .
- (٤) المجدون هم الأموات الذين كانوا صالحين في الدنيا وينالون هذه المنزلة في الآخرة .
- (٥) في هذا الخطاب فضائل دينية وأخلاقية غير التى مرت في الدفاع الإنكارى . وهذا يدل على أن هذا الدفاع الإنكارى لم يجمع كل ما كان المصريون يعتبرونه فضيلة وتهذبا نفسيا . وسنأتى شواهد أخرى تؤيد هذه الحقيقة .

ففى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة ، أى فى الوقت الذى كانت تنقش فيه
نصوص الأهرام ، نقش أحد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسيء إلى أحد فى حياتى ، لأننى أريد أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما أكون أمام
الإله الكبير ^(١) » .

وظاهر من رغبته فى أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما يكون أمام الإله
الكبير ، أنه يريد أن تجد محكمة أوزيريس أنه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم إقليم من أقاليم الوجه القبلى يقول :

« أطعمت الجائعين وكسوت العارين ولم أمس قط شيئا لغيرى بحيث لم يشكنى أحد قط إلى إله مدينتى
... ولم يحدث فى عهدي أن شكأ أحد إلى الآلهة من اعتداء قوى عليه » ^(٢) .

وكتب حاكم لإقليم أسيوط يقول :

« كانت عندى غلال وافرة فلما حلت بالبلاد المجاعة وزعت منها على المدينة مكايل مكايل . وسمحت
لكل إنسان بأن يأخذ غلالا من عندى وأعطيت الزوجة والأرملة والولد . وأعفيت الأهالى من
جميع الضرائب المتأخرة عليهم والى كان أبائى قد سجلوها فى دفاترهم » ^(٣) .

وكتب حاكم لإقليم إدفو يسمى بيبى نيفر قصة حياته فذكر أن أباه أرسله
إلى بلاط الملك بيبى الأول ليتربى فيه مع أبناء حكام الأقاليم ثم عينه الملك مرنرع
(هو أحد ملوك الأسرة السادسة) أمينا لمحصولات الوجه القبلى ثم مديرا للمعابد
فى إقليم إدفو . وبعد ذلك أخذ بيبى نيفر يصف أعماله فى مناصبه وسلوكه فى حياته
الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الإقليم (إقليم إدفو) أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ، ووزعت أقذاح
اللبن . ومن غلال الأوقاف الأبدية ^(٤) أعطيت الجائع وأصلحت شأن كل رجل وجدته عائشا من غلال

(١) ص ٦٨ من الترجمة الفرنسية لكتاب (A History of Egypt) لمؤلفه برستيد .

(٢) المصدر السابق جزء أول ص ٦٧ من الترجمة الفرنسية .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٤) الأوقاف الأبدية هى الأملاك التى كانت محبوسة على المعابد والآلهة وغير ذلك من الأغراض الدينية

غيره وجهزت للدفن كل ميت ليس له ولد ... وقد أنقذت الفقير من يد الغنى وأصلحت بين الأخوة
(١)
المتنازعين» .

كل هذا في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . فنطوى الآن هذا العهد وننتقل
إلى عهد الأسرة الثانية عشرة (من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد) .

ففى عصر هذه الأسرة وفى عهد الملك أمنمحت الأول كان حاكم الإقليم
السادس عشر (حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيا) أميرا يسمى
أمينى . وقد حدثنا هذا الحاكم فقال إنه كان قائدا لجيش هذا الإقليم ثم قائدا
لحملة حاربت فى النوبة ثم لما عاد عين حاكما للإقليم وحينئذ أخذ يحدثنا بسيرته
فى محكميه فقال :

« بينما كان الأقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العيم ، وبينما كان زمام السلطة فى يدي ، لم أعتد على
بنت من بنات الشعب ، ولم أضطهد أرملة ، ولم أرد زارعا ، ولم أحبس راعيا ، ولم يقع قط أن أجبرت
عمالا على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندي .

« لم يوجد فى زمني بأس ولا جائع . وقد كنت فى سنى الجذب أحرث جميع أرض الإقليم إلى حدوده
الجنوبية والشمالية وأحرص على أن أجعل أهله يعيشون ، وأسعى فى إيجاد العيش لهم حتى لم يوجد جائع .
« وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة . ولم أحاب كبيرا لأظلم صغيرا فى كل ما أعطيته .
وفى السنين التى كان النيل يأتى فيها كبيرا (أى على الفيضان) فيحمل للناس المحصولات والغنى لم أطلب
(٢)
بالتأخرات من الضرائب » .

وعند هذا الحد من نقل الشواهد نقف ، لأن ما نقلناه منها يكفى للغرض
الذى نرمى إليه . وبحسبنا أن نقول إن هناك عشرات من أمثال ما نقلناه هنا
يستطيع من يشاء أن يطلبها فى مصادرها .

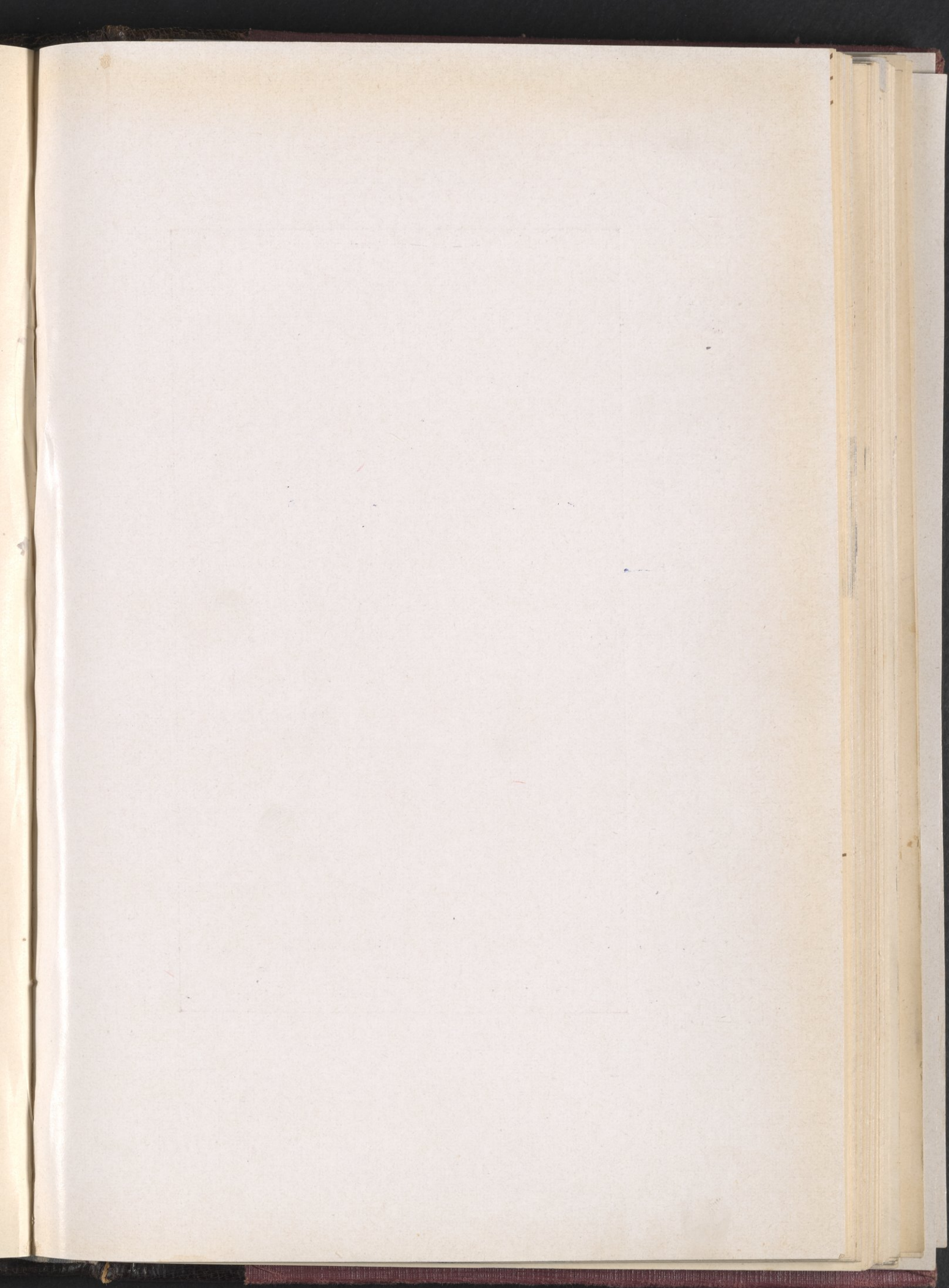
(١) كتاب Le Nil et la Civilisation Egyptienne ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٨ . وكتاب A History of Eg. لبرستيد ص ١٦٣ من الترجمة
الفرنسية مع اختلاف فى كلمات قليلة .

حكاية الأموات في محكمة أوزيريس



هذه الصورة مأخوذة من ورقة بردية موجودة في المتحف المصري وهي تصور عقيدة الحساب عند المصريين . ويرى فيها الميزان والآلهة أوزيريس
 يحسره . وفي إحدى الكفتين قلب الميت وفي الكفة الأخرى ريشة إله توت وفي يده قلم وفي اليد
 الأخرى لوح أو سجل وهو يقدم لأوزيريس تقريرا عن ميت تمت عملية وزن قلبه . بجانبه الوحش أمايت في جسم كلب ورأس حوت مستعدا
 لالتهام الروح الذي يصدر الأرض بعقابه . ويرى أوزيريس جالسا على عرشه . وفي صور أخرى مماثلة لهذه يرى ٢ قاضيا يشهدون المحاكمة



* *

لم نقصد من هذه الشواهد أن نقول إن المجتمع المصرى كان فى العصور التى كتبت فيه مجتمع فضيلة كله ، بل لم نقصد أن هذه الشواهد نفسها خالية من الرغبة فى الزهو والتمدح ، لم نقصد هذا وليس يخطر فى بالنا إلا أن المجتمع المصرى كان كغيره من المجتمعات يعرف الفضيلة والرييلة ، ويعرف العدل والظلم ، ويعرف البغى والتقوى ، ولكن الذى نقصده ، والذى لم يبق فيه ريب بعد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصرى كان يدين بعقيدة الحساب بعد الموت ، ويدين بأن من وراء هذا الحساب ثوابا وعقابا ، وكان يتأثر بهذه العقيدة إلى حد بعيد ، وفى ذلك يقول برستيد :

لقد كان المصريون يدينون بعملهم فى الآخرة

« إن هذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدا بعيدا . وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا فى الحياة الدنيا ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن يتوه به لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون والاسرائيليون فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون إلى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات فى مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » .

* *

وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر من جوانب هذا البحث ، وهو مصير الميت بعد محاسبته على أعماله فى الدنيا .

لقد ظهر أن هذا المصير إما أن يكون الثواب أو العقاب ، فعلى أية صورة من الصور كان المصريون يفهمون الثواب ، وعلى أية صورة أخرى كانوا يفهمون العقاب ؟

(١) لعله يقصد أجداد الاسرائيليين .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦

تقول نصوص الأهرام إن الثواب هو الصعود إلى السماء بعد رحلة جمعة المخاطر، للإقامة فيها مع الآلهة، أو للإقامة مع الإله رع في سفينته . وهؤلاء الذين يثابون بالإقامة في السماء يسمون «المجدين» أو «السعداء» . والمكان الذي يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقى أو جانبها الشرقى البحرى ، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا في هذين الجانبين نجوما ثابتة فأطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة ، وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون إلى السماء .

ولم تكتف نصوص الأهرام بهذا الإجمال في تصوير دار النعيم ، بل مضت إلى التفصيل فذكرت أن المجدين يقيمون في جزر في السماء فيها حقل يسمى «حقل الطعام» . ومن هذا الحقل يتناول المجدون أطعمة شبيهة مختلفة تتجدد ولا تنفذ . وهناك حقل آخر يسمى «حقل يارو»^(١) ، وشجرة جميز عالية تسمى «شجرة الحياة» يجلس إليها الآلهة ويأكلون منها ، هم والمجددون .

وليس هذا كل ما في النعيم السماوى ، بل فيه إلى جانب ذلك أن السماء (نوت) والثعبان الذى يحمى الشمس يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله إليها ، نديهما ليرضع منهما ، فتى رضع عاد صبيا .

وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر . وصحته تزداد تحسنا على مرّ الأيام ، فهى اليوم أحسن منها أمس ، وتكون غدا أحسن منها اليوم .

هذا موجز ما ذكرته نصوص الأهرام عن النعيم الذى يشأب به المحسنون فى الدنيا . أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب أن الميت يجلس فى قاعة أمام أوزيريس ، ويخرج إلى حقل يارو ، ويأكل خبزا وفطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، وخدام حوريس يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه . وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه . وله أن يقيم فى حقل

(١) يقول إرمان فى ص ٢٥١ من كتابه (La Religion des Eg.) إن كلمة « يارو » معناها فى اللغة المصرية نبات الخيزران . ويرى علماء آخرون أن هذا الحقل يسمى « حقل يالو » .

يارو أو في حقل الطعام، وفيهما يكون ممجدا يزرع ويحصد، وتكون له نساء يتمتع بهنّ، ويعمل كل ما كان يعمل على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من أنواع السعادة في الحياة الأخرى فقال أحدهم، ويسمى « ناخت — مين » في لوحة محفوظة في متحف اللوفر، إنه يتمنى أن يدخل قبره ويخرج منه، وأن يشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت له، وأن يطير روحه فوق الأشجار التي زرعها، وأن يستنشق النسم العليل تحت شجر الجميز الذي زرعه، وأن يأكل من ثمر هذا الشجر، وأن يكون له فم يتكلم، وأن يصعد إلى السماء ويتزل إلى الأرض من غير أن يقف في سبيله عائق، وأن لا تسجن روحه، وأن يكون من المكرمين الممدوحين، وأن يحرق أرضه في حقل يارو، وأن يصل إلى حقل الطعام، وأن يأتيه الخدم بأنواع الخبز والشراب وجميع الماء كولات التي يأكل منها رب الأبدية، وأن يأكل من اللحم الذي على مائدة الإله العظيم .

وكتب أقارب رجل يسمى « با — هيرى » كان أميراً لمدينة الكاب يتمنون له في الحياة الأخرى : « أن تكون له يد طولى على الخبز والماء والهواء، وأن يتحول كما يريد إلى عنقاء أو قطاة أو باشق أو مالك الحزين وأن يتكلم فيه، وتمشى قدماه، وتتحرك يده وأن يكون قلبه قريباً منه، وأن يصعد إلى السماء » .

وفي تمنيات أخرى يتمنى الميت أن تكون له حقول وقطعان وعبيد من الرجال والنساء، وأن يبعث في الحياة الأخرى شاباً موفوراً بالقوة والصحة .
هذه بالإجمال هي الصورة، أو الصور، التي كان المصريون يتصوّرون بها دار الثواب، أى الجنة .

ويلاحظ أنها تميل في كثير من جوانبها إلى جعل الجنة على مثال السعادة التي يتمتع بها المصري لنفسه في الدنيا . فحقل الطعام ذو الأطعمة الشهية التي تتجدد ولا تنفد،

(١) المراد بالعنقاء طير خرافي كانت الأساطير تزعم أنه يعيش مئات من السنين .

وشجرة الجيز التي تسمى شجرة الحياة، والخبز، والفطائر، وحقل القمح والشعير الذي يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع، هذه كلها صور متفرعة من الحياة المصرية . ولم يكتف « ناخت — مين » بهذا، فجعل يتنى أن يجد في الآخرة كل ما كان له في الدنيا من شجر وثمر وبحيرة وحقل وخبز وشراب . يضاف إلى هذا كله أن تكون لليت نساء يتمتع بهن وأن يبعث شابا وأن يكون دائما في صحة جيدة . ولا نحتاج أن نقول إن كثيرا من هذه الصور لا يزال باقيا إلى اليوم .

أما العقاب فقد تقدم أن من صورته وحشا له رأس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، ونارا يلقى المذنب فيها . وهناك صورة أخرى هي أن يبقى المذنب في قبره فريسة للجوع والعطش ، محروما من رؤية الشمس . وفي بعض الأحيان يكون مع القضاة الإثنيين والأربعين الذين يجلسون مع أوزريس في محكمته سيوف ي ضربون بها المذنبين ^(١) .

وتدل قصة ساتني وولده التي أشرنا إليها من قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه أيضا للعذاب ، منها تعذيب الميت تعذبا دائما بتركيز محور باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت يصيح من الألم كلما فتح أو أقفل . ومنها تعليق طعام فوق رؤوس المعذبين ، وهؤلاء المعذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه ، فكلما قفزوا بعد الطعام عنهم .

ونصوص الأهرام ونصوص كتاب الموتى صريحة في أن النعيم الذي ينعم به المستحقون للثواب في الجنة هو نعيم خالد ، فلسائل أن يسأل وهل العذاب الذي يعذب به المذنبون خالد أيضا ؟

والجواب على هذا أن قصة ساتني وولده تقول إن الميت يصيح من الألم كلما أقفل الباب أو فتح على عينه . فمن البديهي أن استمرار الميت على الشعور بالألم يجب أن يفرض معه أن عينه تتجدد بعد كل دورة للباب أو دورات .

(١) سبقت الإشارة إلى هذه السيوف في خطاب الميت للقضاة في الصفحة ١٠٤ من هذا الكتاب .

واستمرار العذاب مفهوم بسهولة في حالة الميت الذي يترك فريسة للجوع والعطش محروما من رؤية الشمس ، ومفهوم في حالة الميت الذي يعلق الطعام فوق رأسه فكلما قفز ليتناوله بعد عنه . أما الحالات التي تحتاج إلى شيء من الوضوح من هذه الناحية فهي حالة الميت الذي يلتهمه الوحش ، والميت الذي يلقى في النار ، والميت الذي يضربه القضاة بالسيوف . وعندى أن العذاب في هذه الحالات يجب أن يكون متجددا بعد رأيناه في النص على خلود النعيم في الجنة ثم النص على تجديد العذاب في كثير من الحالات .



وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذي بذله المصريون في القول بخلود الروح ، وبالثواب والعقاب بعد الموت ، فلا يسعنا إلا أن نعتف بأنه مجهود جبار خطأ بالإنسان خطوة واسعة في سبيل تهذيب النفس ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله ، في وقت كان الإنسان فيه لا يزال قريبا من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار ، والعلماء الأجانب كلهم يعترفون به ، ويقدرّون فضل مصر فيه ، ولكن هل كان ممكنا أن يسلم هذا المجهود من نقص يعلق به إلى أن يحصه الزمن فيسقط ويبقى الجوهر سليما ؟

ليس من سنن الأشياء أن تخلص الحقائق الكبيرة للإنسان من غير أن يتعثر في سبيل البحث عنها . بل التعثر هو السنة الطبيعية ، وقد جرت هذه السنة على المصريين ، فقام فيهم قوم يقولون إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع المخاوف التي يستهدف لها بعد مماته ، وتستطيع أن تؤتيه الحكم بالبراءة من محكمة أوزيريس مهما تكن ذنوبه ، وتستطيع أخيرا أن تعطيه النعيم الخالد ولو كان لا يستحقه . وكانت الأمم كلها في ذلك الوقت تؤمن بالسحر وتكاد تراه في كل شيء . وكانت تجعل للساحر قدرة على تسخير الآلهة لإرادته .

وكانت الصيغ السحرية التي من هذا النوع قليلة في نصوص الأهرام، فصارت كثيرة في كتاب الموتى، وصارت النسخ التي توضع مع الأموات في هذا الكتاب كثيرة أيضا، فدل ذلك على أن تجارة هذا النوع من السحر راجت .

ولا نزاع في أن هذا السحر الذي يسحر الآلهة ، ويعطى الميت حكما بالبراءة لا يستحقه ، ونعيا خالدا لا يستحقه ، معطل للقوة التهذيبية التي لعقيدة الحساب بعد الموت . ولكن هل عطلها في الواقع ، فأفسد الإيمان الديني ، وأتلف الأخلاق ، وأباح لكل أحد أن يرتكب ما استطاع من المعاصي والآثام ؟

علينا أن نسمع في ذلك ما يقوله المصريون أنفسهم ، فقولهم هو الجواب الفصل .
كان من ملوك الأسرة التاسعة ملك عاقل حكيم ، أراد أن يترك لابنه الملك «مرى - كا - رع» وصية ، فكتب فيها يقول :

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدل ، لأنه سيؤدى حسابا عن أعماله » .
ثم استمر فقال :

« إن القضاة المقدسين الذين يحاكمون الميت لا يتسامحون في تطبيق الشريعة . فويل حينئذ للميت من متهمة » .

والقضاة المقدسون هنا هم قضاة محكمة أوزيريس . والملك يقول إنهم لا يتسامحون ، ثم يقول فويل حينئذ للميت من متهمة . فهذا صريح في أن القضاة المقدسين لا يتأثرون بالسحر ، ولا يعرفون غير الحق والعدل يقيمون عليهما الحساب .
ثم استمر الملك فقال :

« لا تغتر بامتداد السنين ، فان حياة الإنسان على الأرض ليست في نظر القضاة المقدسين سوى لحظة قصيرة . سينشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطئ^(١) الثاني . وستكون أعماله مجمعة بجانبه . إنها الأبدية هناك لا شك فيها . فجنون من يحتقرها . أما الذي يأتي بغير ذنوب فسيحيا فيها كما يحيا الآلهة » .

وهذا قوى الدلالة في المعنى الذي نريده . واستمر الملك أيضا فقال :

(١) الشاطئ الثاني هو تعبير كان المصريون يربطون منه الحياة الأخرى .

« إن الحياة على الأرض تمضى على عجل وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكمهم . فمن اتقى وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود في الحياة الأخرى . من جاز الحساب أمام أوزيريس مضى إلى الحياة الأخرى ، أما من تساهل مع نفسه في الحياة الدنيا فلا مفترله من التدمير »^(١) .

ثم انظر ماذا قال أيضا . قال :

« إن الفضيلة التى يتحلّى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يذبجه الرجل الشرير قربانا له . على أنه ينبغي مع ذلك للرجل أن يفعل ما ينفع روحه فى الحياة الأخرى ، فيقدم القرابين لله . فان الله يعرف من يفعل له شيئا »^(٢) .

وفى هذا كله لا يظهر أثر للسحر يمكن التعويل عليه وقت الحساب . وإنما المعقول عليه هو عمل الإنسان على الأرض . فالتقوى والفضيلة ينجان الميت ، والشر والفساد يهلكانه ، وآلهة الحساب لا يخذعون ولا يظلمون .

وكتب با — هيرى أمير مدينة الكاب الذى مر ذكره ، فرجا أن يصل إلى النعيم الخالد فى الحياة الأخرى ، ولكنه لم يبن رجاءه هذا على الصيغ السحرية ، بل على أعماله الطيبة وحدها ، ثم قال :

« متى وضعت فى الميزان فسأخرج منه كاملا بغير نقص إننى لم أكذب قط على أحد . وقد عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس . نعم عرفته وخشيته ومرت الخير من الشر »^(٣) .

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كتب حكيم يسمى « بيكى » يعظ الناس فقال :

(١) هذا النص ، إلى هنا ، مترجم من كتاب (Le Nil et la Civ. Eg.) لمورى ص ٢٩٧

(٢) هذا النص مترجم من كتاب (La Religion des Eg.) لإرمان ص ١٩٢

(٣) قوله « عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس » يلتفت النظر ، لأن معناه أن الله ليس الصنم الذى يعبد فى المعابد ، وإنما هو روح شائع فى قلوب الناس كما هو شائع فى كل شيء . ويرى بعض العلماء أن با — هيرى يريد بذلك الضمير الإنسانى ، ويقولون إن هذا أول تعبير من هذا النوع . وقد يكون قولهم هذا صحيحا ، ولكن قد يكون صحيحا أيضا أن با — هيرى يريد ما يحسه الرجل الصالح فى قلبه من حب الله وتقواه والخوف من غضبه .

« اجعلوا مسرتكم في خدمة معات (إلهة الحق والعدل) كل يوم . إن معات لا يصنع منها طعام ، ولكن الإله سيد أبيدوس (يريد أوزيريس) يتغذى بها كل يوم . فان أنتم فعلتم هذا فكنتم دائماً في أعمالكم على حق وعدل فسيعود عليكم ذلك بالنفع ، فتجتازون الحياة الدنيا بقلوب راضية مغتبطة ، وتذهبون إلى الغرب الجميل ^(١) ، حيث تكون لأرواحكم الحرية في أن تدخل أو تخرج أو تريض مع الالهة الخالدة » .

فهذا الحكيم لم يقل اعتمدوا على الصيغ السحرية تناولوا النعيم في الحياة الأخرى ، بل قال اعتمدوا على أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل في كل يوم . وظاهر أن قوله . « اجعلوا مسرتكم في خدمة معات » تعبير مجازي معناه إجعلوا مسرتكم في أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل . وقوله إن سيد أبيدوس يتغذى بالإلهة معات هو أيضاً تعبير مجازي معناه أن الحق والعدل عنصران من عناصر أوزيريس وأن أوزيريس يطالب الناس بأن يكون هذان العنصران أساس سلوكهما في الحياة . وفي العصور الأخيرة للدنية المصرية كتب واحد من الأعيان على قبره يقول :
« قلب الانسان هو إلهه . وقلبي راض عما فعلته حينما كان في جسمي . فلا كن مثل الإله ^(٢) » .

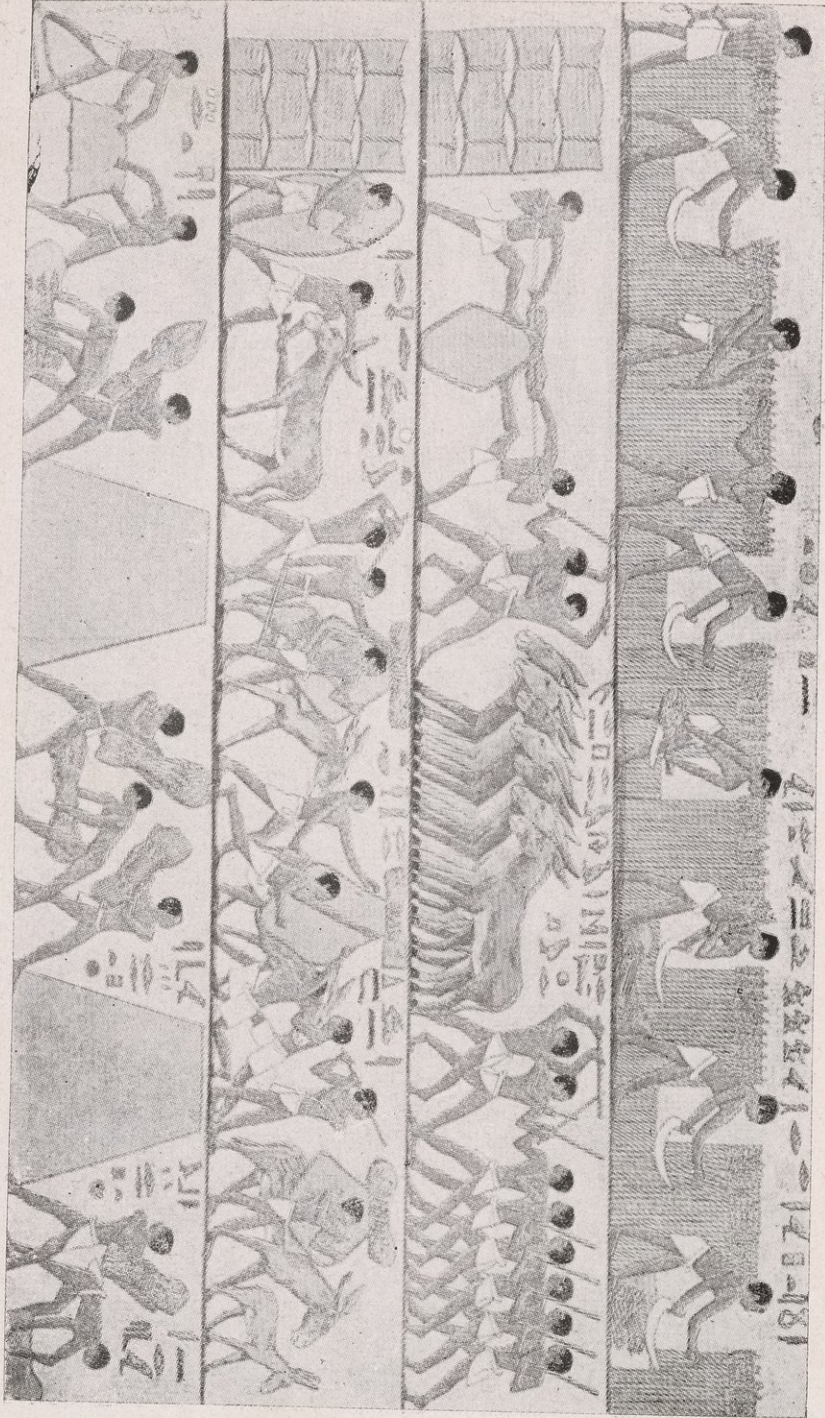
وقصة ساتي وولده ليس فيها أن أحداً من الأموات حصل على الثواب بقوة الصيغ السحرية وإنما فيها أن كل ميت أثيب أو عوقب على حسب أعماله في الأرض .

(١) تقدم أن المراد بالغرب الحياة الأخرى . أما المراد بالغرب الجميل فهو نعيم الجنة .

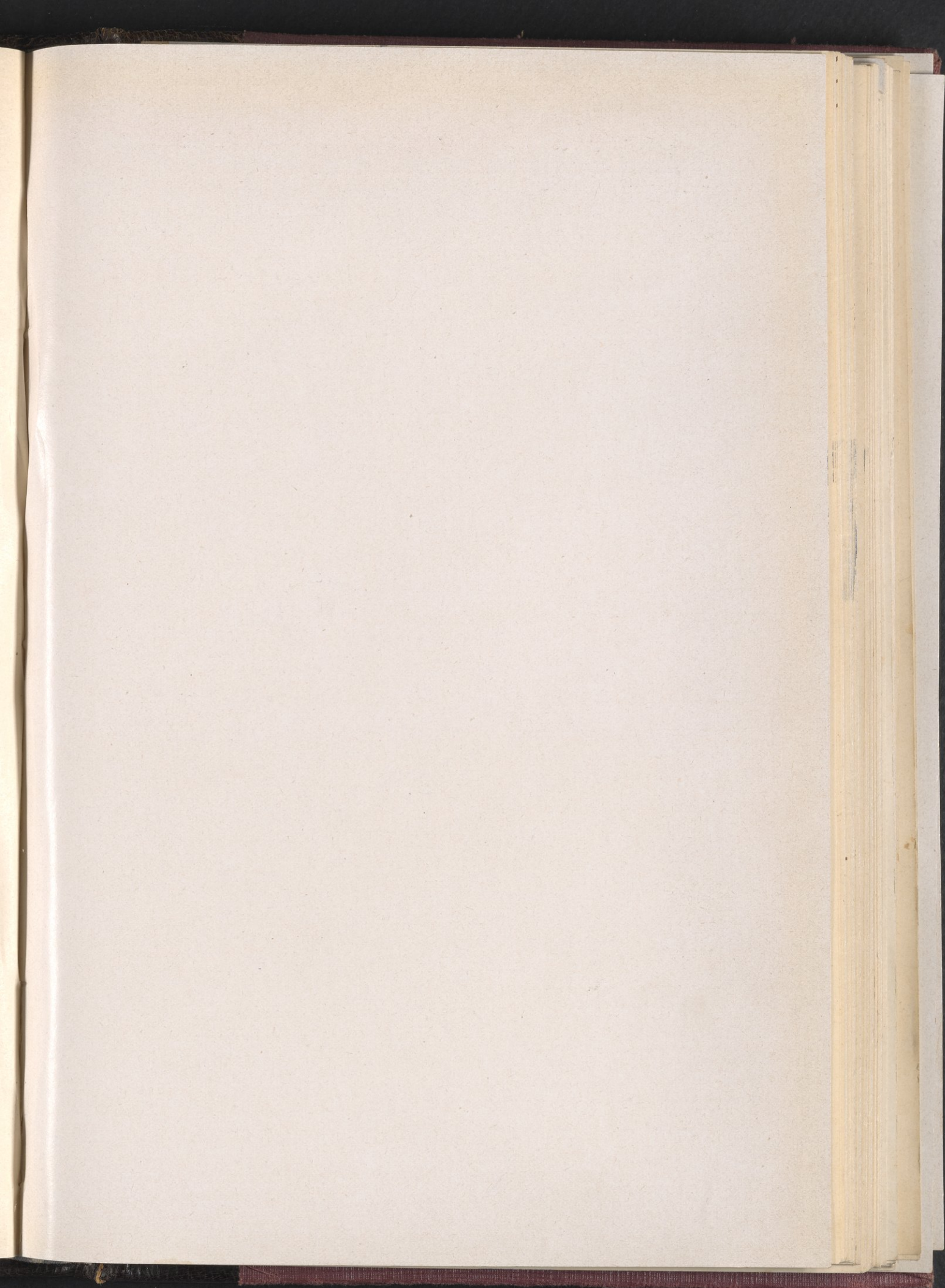
(٢) ص ٤٧٦ من كتاب Le Nil et la Civ. Eg. لمورى .

وظاهر أن المراد بقوله « قلب الانسان هو إلهه » وقلبي راض عما فعلته حينما كان في جسمي « أن قلب الانسان هو قاضيه المقدس الذي يحاكمه في الحياة الأخرى . لأنه متى كان القلب محل الرضى وعدم الرضى عن الأعمال في الحياة الدنيا فقلوبه إن هذا القلب هو إله الانسان ينصرف إلى أن القلب هو القاضى الذى يتولى المحاكمة في الآخرة .

أما قوله « فلا كن مثل الإله » فقد يكون المراد به أن أعماله الصالحة في الحياة الدنيا تجعله يطمع في أن يكون مثل الإله في الحياة الأخرى عملاً بالعقيدة التى كانت تقول إن الرجل الصالح الذى يصدر الحكم ببراءته أمام محكمة الحساب يصير مثل الإله أوزيريس . أو قد يكون المراد أن اتصاله بالإله اتصالاً صوفياً يجعله مثله . وهذا المعنى هو الذى عبر عنه الحلاج في قوله « أنا الله » يريد أنه امتزج بالله فصار منه .



حصاد القمح وتخزينه (اقرأ تفسير هذه الصورة في ص ٢١٤)



والكتابات التي ذكرناها في الصفحتين ١٠٥ و ١٠٦ ، وهي كتابات موزعة بين عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، تضاف إلى الكتابات المماثلة لها هنا فتؤدى كلها معنى واحدا هو أنه يكون من المجازفة أن يقال إن الصيغ السحرية عطلت القوة التهذيبية التي لعقيدة الحساب ، وربما كان الأصح أن يقال إن هذه الصيغ لم تؤثر إلا في النفوس التي يجعلها ميلها إلى الشر مستعدة لهذا التأثير . وهذه النفوس موجودة في كل زمان ومكان . وتصديق السحر موجود في زماننا هذا .



والآن نسأل ماذا عرفت المدنيات القديمة ، في غير مصر ، من عقيدة خلود الروح والحساب بعد الموت ؟

ونبدأ بالمدنية الكلدانية ثم نثنى بالمدنية اليونانية .

فأما المدنية الكلدانية فقد تقدم أن برستيد عرض لمركزها ومركز مصر من عقيدة الحساب فقال :

« إن هذا الفهم (أى فهم مصر) لقواعد السلوك يبلغ من السموحا بعيدا . وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا في الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا في الحياة الدنيا ... ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به ، لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون (أى الكلدانيون) والإسرائيليون ، في الوقت الذي اهتمدى فيه المصريون إلى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات في مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا » .

وهذا صحيح فان الروح عند الكلدانيين كان ينتقل إلى مكان مظلم يسمى « أراو » موجود تحت الأرض في رأى البعض منهم ، وموجود في الجانب الشرقى من الكون في رأى البعض الآخر^(١) . وفي هذا المكان تتولى الإلهة « آلات » محاكمة الأموات . وفي ذلك يقول ماسبيرو :

(١) ص ٦٣ كتاب (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique)

« لم يكن للخير أو الشر الذي فعله الميت في حياته قيمة كبيرة في تقدير أعماله . وإنما كان التقدير كله لما أظهره الإنسان على الأرض من التعلق بالآلهة عامة ، وبالإلهة «الآت» خاصة ، بتقديم قربانين الذبائح والهدايا وتقديم أسباب الغنى للمعابد » .

وبذلك لا يكون هذا الحساب حسابا على أعمال الإنسان في الدنيا ، بل على تقديم الهدايا للمعبودات والمعابد ، أى للكهنة الذين لا بد أن يكونوا هم الذين وضعوا هذه العقيدة لمنفعتهم .



وأما المدنية اليونانية فيحسن قبل الخوض في موقفها من عقيدة الحساب أن لانسى أن بين نشوء هذه العقيدة في مصر وبين نشوء المدنية اليونانية أكثر من ألفى سنة على أساس التاريخ القصير . أما ألف السنة التى قال برستيد إن العقيدة وجدت بعدها فى بلاد غير مصر فليس المراد بها اليونان وإنما المراد بها بلاد شرقية أخرى . وأول مظهر من مظاهر المدنية اليونانية نلمح فيه أثر العقيدة هو أوديسة ^(١) هوميرو ، وذلك أن عوليس ينزل إلى الجحيم وحينئذ يقص فيقول :

(١) هوميرو من أقدم وأكبر الشعراء اليونانيين . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وتعزى إليه قصتان شعريتان إحداهما تسمى الأوديسة والثانية تسمى الإلياذة . وتعزى إليه أيضا قصائد أخرى منها واحدة عنوانها «طبية» ولكنها ضاعت . وفى وجود هوميرو خلاف بين الباحثين فى تاريخه لأن كثيرا منهم يقولون إنه لم يوجد وإن القصائد التى عزيت إليه هى أغان جمعت ونسبت إليه .

ويتلخص موضوع الأوديسة فى أن عوليس ملك مقاطعة فى اليونان القديمة كانت تسمى ايتاك اشترك فى حرب طروادة ، ثم لما انتهت هذه الحرب لم يعد إلى مملكته بل نزل فى جزيرة كاليسو وأحب المعبودة التى كانت فيها . غير أنه كان يشفق إلى مملكته ففر من الجزيرة لكى يعود إليها فألقته عاصفة على سواحل جزيرة أخرى . وبعد بضع سنين وحوادث كثيرة استطاع أن يعود إلى بلده فى زى متسول .

وفى خلال ذلك كانت امرأة عوليس ، واسمها بنيلوب ، قد انتظرت عودة زوجها فلما طالت غيبته تقدم لها أربعة يطلبون يدها ويلحون عليها فى أن تختار واحدا منهم . وكان تلياك بن عوليس قد خرج يبحث عن أبيه فطاف فى جزر كثيرة ثم عاد إلى ايتاك وقابل أباه وهو فى زى متسول فعرفه واتفق الاثنان على أن يبقيا متنكرين ليقفا على حقيقة ما فعلته بنيلوب فى غيابهما . وأخيرا انتقم عوليس من الأربعة الذين كانوا يطلبون الزواج من بنيلوب بأن قتلهم ثم أظهر نفسه هو وتلياك فعرفتهما بنيلوب .

« رأيت مينوس جالسا والصوبلجان الذهب في يده ، وهو يقضى بين الأموات ، وهؤلاء مجتمعون حوله يعرضون قضاياهم عليه جالسين أو واقفين في دور «الهاديس» ذات الأبواب الواسعة» .^(١)
^(٢)

ومينوس الذى يذكره هنا هومير على لسان عوليس كان ملكا قديما من ملوك جزيرة كريت ، وكان اليونانيون يزعمون فى ذلك الوقت أنه يجلس على عرش الحكم فى الجحيم ومعه أخواه ايباك وردامانت . وهنا ملاحظات :

أولها أن عوليس ينزل إلى الجحيم فى قصة هومير ، وساتنى وولده يتزلان إلى الجحيم فى القصة المصرية .

وثانيها أن مينوس يقبض بيده على صوبلجان من الذهب فى جحيم هومير . وأوزيريس يقبض بيده على صوبلجان فى العقيدة المصرية .

وثالثها أن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس فى جحيم هومير . والأموات سناديهم المنادون لعرض قضاياهم على أوزيريس فى القصة المصرية .

ورابعها أن الأموات واقفون أو جالسون فى دور الهاديس ذات الأبواب الواسعة . والأموات واقفون أو جالسون فى سبع قاعات فى القصة المصرية .

فجحيم هومير هذه هى بعينها الجحيم المصرية ، ولكن مع فارقين أحدهما فى الشكل والثانى فى الجوهر . فأما فى الشكل فالأموات فى جحيم هومير يعرضون قضاياهم على مينوس بأنفسهم وبغير أن يكون لهذا العرض نظام . بينما الجحيم المصرية فيها منادون ينادون القضايا واحدة بعد أخرى ، فالأمر فى الأولى فوضى وفى الثانية منظم . وفارق آخر فى الشكل هو أن فى الجحيم المصرية ميزانا يصدر الحكم تبعا لنتيجته ، وليس فى جحيم هومير سوى مينوس يقضى بارادته .

(١) الهاديس هى دار الأموات أو دار الجحيم فى الأساطير اليونانية . وبعضهم يطلق هذا الاسم على ملك دار الأموات .

(٢) الجزء الحادى عشر من الأوديسة ، والأبيات ٥٦٧ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠

وأما الفارق في الجوهر فهو أن هوميرو يقول إن مينوس « يقضى بين الأموات »
وإن هؤلاء الأموات « يعرضون عليه قضاياهم » . وهذا معناه في رأى موري^(١) — وهو
مصيب فيه — أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التي تكون
بين الأحياء ، وليست حسابا يؤديه الأموات عن أعمالهم في الحياة .

إذن ليست بحجم هوميرو دار حساب عن أعمال الناس في الحياة بل هي دار
حساب عن مشاجرات ومنازعات بعد الموت . وإذن تفقد بحجم هوميرو كل القيمة
التهذيبية التي للبحيم المصرية . وإذن يحق لنا أن نقرر هنا أن هوميرو أراد أن
يقتبس قصة ساتني وولده المصرية ومحكمة أوزيريس المصرية ، فقصر لأنه اقتبس
بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

ولكن هل وقف هوميرو عند هذا الحد ؟

كلا ، لأنه ضمن إلياذته^(٢) شيئا من الفكرة المصرية ، غير أنه قصر في هذه المرة
أيضا ، فأخذ بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

وذلك أنه يتحدثنا في إلياذته بأن الإله ذفس (وهو كبير الآلهة عند اليونانيين)
يريد أن يقضى في مصير إحدى المعارك بين اليونانيين وأهل طروادة فيضع حظ
الأولين في كفة ميزان وحظ الآخرين في الكفة الأخرى ، ثم يأخذ الميزان من
منتصفه ويرفعه فتهبط كفة اليونانيين إلى الأرض وتعلو كفة الطرواديين إلى السماء^(٣)
فيكون هذا قضاء للأولين بالنصر وعلى الآخرين بالهزيمة .

ثم يتحدثنا هوميرو أيضا بأن ذفس يقضى مثل هذا القضاء نفسه وبهذه الطريقة

(١) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٣٥

(٢) الإلياذة هي قصة شعرية قص فيها هوميرو ما وقع من الحوادث في حرب شنّها اليونانيون على مدينة

طروادة . وهي مدينة قديمة كانت على سواحل آسيا الصغرى .

(٣) الإلياذة — الجزء التاسع منها — الأبيات من ٦٩ إلى ٧٤

نفسها في معركة حاسمة بين أشيل وهكتور^(١) فتعلو كفة أشيل فينتصر على هكتور ويقتله .

فالإله اليوناني ذفس ينصب هنا ميزانا للقضاء كالميزان الذي ينصبه الإله المصري أوزيريس . ولكن هذا الشبه قائم في الشكل فقط ، أما في الجوهر فان أوزيريس ينصب ميزانه ليزن به حسنات الميت وسيئاته في الحياة ثم ليثيبه أو يعذبه تبعا لنتيجة الميزان ، بينما ذفس يزن بميزانه حظوظ المتعاركين في المعارك . فالميزان المصري له كل معناه التهذيبي أما الميزان اليوناني فليس فيه هذا المعنى .

وما نحب هنا أن نتحل شيئا ليس لنا فندعى أننا أصحاب هذه المفاضلة بين الميزان المصري والميزان اليوناني ، بل نحن بالعكس نرد الحق إلى صاحبه فنقول إن أول من لاحظها هو العالم دي ويت^(٢) (De Witte) في سنة ١٨٤٥ ثم أيده فيها بعد ذلك موري في سنة ١٩٢٥ . وهذا نص ما قاله دي ويت :

« ليس في إلياذة هوميروس شيء يدل على أن الغرض من الميزان يتعلق بالحياة الأخرى أى بالعقاب والثواب اللذين ينتظران الإنسان فيها ... وإنما الغرض الوحيد من الميزان هو القضاء في النهاية التي تنتهي بها معركة ... فوزن الحظوظ والأرواح لا يراد منه على هذا سوى خلاف مادي ... والكفة الخفيفة هي التي تعين صاحب الحظ الفاتر » .

وهذا كله صحيح ، وهو يدل كما قلنا على أن هوميروس لما أراد أن يقتبس الميزان المصري بعد ألفي سنة أخذ الشكل وفاته الجوهر .

(١) أشيل هو قائد يوناني يعتبر أعظم أبطال الإلياذة وتروى هذه الإلياذة أنه نازل هكتور أعظم قائد طروادى في أثناء حصار طروادة فقتله ولكن قائدا طرواديا آخر اسمه بارى رماه بسهم مسعوم فأصابه في عقب قدمه .

وهذا القضاء بين أشيل وهكتور بواسطة الميزان مذكور في الجزء العاشر من الإلياذة في الأبيات من ٢٠٩ إلى ٢١٣

(٢) هو عالم بلجيكي اشتهر بميله إلى دراسة الآثار القديمة والآثار المصرية خاصة وله فيها رسائل ومؤلفات وقد توفي سنة ١٨٨٩



وتمضى بعد هو مير عدة أجيال حتى نصل إلى الشاعر اليونانى پندار (Pindare) فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد — وهو من شعراء الطبقة الأولى — فنسمعه يقول فى قصيدته الأولمبية الثانية :

« سيجد العظماء فى الأرض قاضيا فى الجحيم ، فالذين ارتكبوا منهم أعمالا محرمة تحاكمهم الإلهة أناكى .
فهنا ظهرت لأول مرة فى الآداب اليونانية فكرة محاسبة الأموات على أعمالهم فى الحياة ، ولكنها تظهر مبهممة كما يلاحظ العالم الألمانى روهل (Ruhl) لأن الشاعر پندار لا يقول لنا كيف تجرى المحاسبة ولا على أية قاعدة تجرى .

وكان من الضرورى للمدنية اليونانية وقد خطت هذه الخطوة فى اقتباس الفكرة المصرية أن تخطو الخطوة المكملة لها ، وهذا ما فعله بعد ذلك الفيلسوف أفلاطون^(١).
كتب أفلاطون كتابه الذى جعل عنوانه « مدح سقراط » فذكر فيه أن فى الجحيم قضاة يحكمون بالعدل هم « مينوس وردامانت وإيباك وتريبوليتيم وجميع أنصاف الآلهة الذين كانوا فى حياتهم عادلين » . ثم عاد إلى هذه الجحيم وقضاتها فى كتابه « جورجياس »^(٢) ففصلها تفصيلا ننقله هنا عن مورى^(٣) . قال أفلاطون :

(١) من المحقق أن أفلاطون زار مصر وأقام فيها زمنا غير قصير كان يتردد فيه على مدارسها وكهنتها . وقد روى أن هؤلاء الكهنة قالوا عن اليونانيين فى ذلك الوقت : « أيها الناس . إنكم لستم سوى أطفال ، وليس بينكم شيوخ » . والتعبير هنا مجازى يعنى أنكم أطفال فى المعرفة وليس بينكم شيوخ فيها .
راجع فى ذلك ص ٤٩ من مقدمة الجزء الأول من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) بقلم هانوتو أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية . وهذا الجزء من الكتاب مطبوع فى سنة ١٩٣١
وسأبقى فى ما بعد أن كلا من ديودور الصقلى وهيرودوت أثبت فى كتبه وجود أفلاطون فى مصر وتردده الكثير على أستاذ مصرى فى معبد هليو بوليس .

(٢) كتاب « جورجياس » هو كتاب جعله أفلاطون محاورات بين باحث يونانى كان يسمى جورجياس وبين سقراط وفلاسفة آخرين .

(٣) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٣٦ وما يليها .

« حينما كان الحكم لساتورن (أى زحل) ، وفى السنين الأولى من حكم جوبتير (أى المشتري) كانت محاكمة الناس تجرى وهم أحياء ، وعلى يد قضاة أحياء ، فكان هؤلاء القضاة يقضون فى مصائر الناس فى اليوم الذى يموتون فيه . وكان فى هذه الأحكام كثير من الخطأ فذهب بلوتون (هو ابن ساتورن وملك الجحيم) وحكام الجزائر السعيدة (هى الجنة عند اليونانيين) إلى جوبتير وقالوا إن القضاة يبعثون إليهم برجال لا يستحقون الثواب الذى يكتب لهم ولا العقاب الذى ينزل بهم .

« فقال جوبتير : سأمنع هذا الظلم . إن السبب فى الأخطاء التى تقع اليوم فى الأحكام هو أن محاکمتهم تتم وهم غير مجزدين من ملابسهم (المراد بالملابس هنا ما يلبسه الروح وفى مقدمته الجسم) لأنهم يحاكمون وهم أحياء فينشأ من ذلك أن يكون كثيرون ممن فسدت أرواحهم لابسين أجساما جميلة من النبل والغنى ... ثم يتقدم جمهور من الشهود يشهد لهم فينخدع القضاة . ثم أن هؤلاء القضاة أنفسهم يحكمون وهم غير مجزدين من ملابسهم ، وبنينا كل ككلة أجسامهم قائمة أمام أرواحهم ... فنذا اليوم أريد أن تكون محاكمة الناس وهم عرايا مجزدون من كل ما يحيط بهم ، ولهذا أريد أن تكون بعد موتهم . ويجب أيضا أن يكون القاضى قد ترك كل هذه العدة فى الأرض كي يكون حكمه عادلا . »

« لقد جاءنى خبر هذا الظلم فأمرت ثلاثة من أبنائى بأن يتولوا القضاء : اثنين منهم لآسيا وهما مينوس وردامانت ، والثالث لأوربا وهو إيباك ... ففى ماتوا فسيصدرون أحكامهم فى المرج فى المكان الذى تنتهى إليه ثلاثة طرق : أحدها يؤدى إلى الجزائر السعيدة ، والثانى إلى قاع الجحيم . وسيتولى ردامانت محاكمة أهل آسيا . وسيتولى إيباك محاكمة أهل أوربا . وسأجعل لمينوس سلطة الفصل نهائيا فى الحالات التى يرتبك فيها واحد منهما . »

ثم يقول أفلاطون :

« فاذا جاء الأموات أمام قاضيهام دعاهم ردامانت إلى القرب منه ثم فخص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هى ... فاذا وجدها مملوءة فسادا وخبثا وكانت قد عاشت بعيدا عن الحقيقة ، بعث بها إلى السجن لتلقى فيه العقاب الذى تستحقه ... »

ثم يقول أفلاطون إن الذين تكون ذنوبهم مما يمكن التكفير عنه ، يكفرون عن ذنوبهم بالآلام . أما الذين ارتكبوا أعظم الجرائم فلا تطهير لهم ، وحينئذ يكون عقابهم الذى لا فائدة لهم منه عبرة لغيرهم .

ثم يقول :

« وردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسمهم بمسمى تبعا لقبائليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير ، أما الروح الذى يرى أنه عاش فى الطهر وفى الحقيقة فإنه يتهيج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة . »

ويقول أفلاطون بعد ذلك إن إيباك يفعل في الذين يحاكمهم كما يفعل ردامانت .
ثم يقول إن كل قاض من هؤلاء القضاة الثلاثة يمسك في يده صولحانا .



بهذا صوّر أفلاطون عقيدة الحساب بعد الموت . والناظر في ما كتبه يرى
أنه استبقى الآلهة الثلاثة الذين ذكّرهم هوميروهم مينوس وإيباك وردامانت ، ولكن
هؤلاء الذين كانوا عند هوميرو يقضون بين الأموات في منازعات تجدد بينهم بعد
الموت صاروا يحاسبون الأموات على أعمالهم في الحياة كما تفعل الآلهة المصرية
أوزيريس وتوت وأنوبيس .

ولهذا الحساب عند أفلاطون نتيجة من نتائج ثلاث : الأولى أن يثاب الميت
بإرساله إلى الجزائر السعيدة ، والثانية أن يعذب في قاع الجحيم إلى الأبد إن كانت
ذنوبه كبيرة ، والثالثة أن يعذب إلى وقت ليكفر عن ذنوبه إن كانت مما يمكن
التكفير عنه . وهذه النتائج الثلاث هي بعينها نتائج الحساب في العقيدة المصرية .
والقضاة عند أفلاطون يمسك كل واحد منهم صولحانا . وأوزيريس يقضى
وفي يده دائماً صولحان .

فالعقيدة الحساب عند المصريين هي إذن عقيدة الحساب عند أفلاطون .
وأفلاطون يكمل بذلك ما بدأه هوميرو فقصر فيه . ولكن يلاحظ مع هذا أن أفلاطون
لم يذكر ميزانا ولا وزنا في دار حسابه ، بينما الميزان والوزن عنصران بارزان في دار
الحساب المصرية . فان قلنا إن أفلاطون يكمل ما بدأه هوميرو — وهذا هو الراجح —
فالميزان والوزن مذكوران عند هوميرو ، وإن قلنا إنه لا يكمل فهو حينئذ يترك للآلهة
أن يحاسبوا الأموات تبعاً لما يرونه هم عدلاً لا تبعاً لميزان العدل أي للعدل المطلق .



من هذا نخرج بأن فكرة المصريين في دار الحساب وفي العقاب والثواب
ظهرت بعد ألفي سنة عند اليونانيين على يد هوميرو ، بيد أنها ظهرت حينئذ ناقصة

مقتصرة على الشكل دون الجوهر ، ثم جاء پندار فسد شيئا من هذا النقص ، ثم جاء أفلاطون الذى لا شك فى أنه تعلم فى مصر فسد ما كان باقيا من النقص . وكان من الضرورى أن يستبقى أفلاطون الآلهة اليونانية فاستبقاها ، وكان من الضرورى أيضا أن يصبغ الفكرة بصبغة الأساطير اليونانية فصبغها بها . ولكن الفكرة بقيت مع ذلك مصرية تطل من ثنايا صبغتها اليونانية .

وما أقول هذا وحدى ، ولا أقول به من عندى ، بل يقوله معى ثلاثة من كبار العلماء الذين تفرغوا لدرس العلوم والآثار اليونانية والمصرية ، وقد ذكرت أسماءهم من قبل وهم روهل الألمانى ، ودى ويت الباجيكي ، ومورى الفرنسى .

ولك أن تقول ، إن شئت ، إن المدينة اليونانية اهتمت من تلقاء نفسها إلى الفكرة كما اهتمت اليها من تلقاء نفسها المدينة المصرية ، فليس الأمر أمر نقل وإنما هو أمر اهداء إلى فكرة سليمة يقوم عليها صلاح العالم . لك أن تقول هذا ، فإن قلته فلا تنس أولا أن اليونانيين فى عهد هوميرو وعهد پندار وعهد أفلاطون كانوا على أوثق اتصال بمصر ، ولا تنس ثانيا أن أفلاطون أقام فى مصر زمنا واتصل بمدارسها وكهنتها ، ثم لا تنس أخيرا أن اقتباس المدينة اليونانية من المدينة المصرية هو حقيقة يراها العلماء الآن فى جميع ما بقى من آثار الفن والصناعة وهندسة البناء فى المدينتين .

وليكن الأمر مع ذلك بعيدا عن النقل ، وليكن اهداء إلى فكرة واحدة ، فإن من الفضل لمصر أنها كانت أول بلاد عرفت هذه الفكرة فى العالم كله ، وأن ألف سنة يجب أن تمضى على وجودها فى مصر كي يمكن أن نجد شيئا منها فى بلاد أخرى كما يقول برستيد .

ومن الفضل لمصر أيضا أن فكرتها هذه عمت كل الأمم المحيطة بها ، حتى قصة سائى وولده فى نزولهما إلى دار الحساب عمت أكثر الآداب ، فهى فى الآداب اليونانية يصورها هوميرو فى نزول عوليس إلى الجحيم ، وهى فى الآداب الرومانية

يصورها هوراس (Horace) وثرجيل (Virgile)، وهى فى الآداب العربية يصورها أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران، وهى فى الآداب الإيطالية يصورها دانتي الجيبرى (Danti Alégieri) فى الكوميديا المقدسة، وهى فى الآداب الفرنسية يصورها فنلون (Fenelon) فى قصة تليماك، وقس على هذا آداب كثير من الأمم .

ولهذا، ولغيره، حق للعالم الأمريكى هنرى ستيد أن يقول « إن عقيدة الحساب تثبت أن مصر أول بلد فى العالم استيقظ فيه ضمير الإنسان » .

وحق للعالم المؤرخ لاقيس، العضو فى الأكاديمية الفرنسية أن يمهّد لتاريخ اليونان فيقول « إن اليونان التى سنعرض فى الصفحات التالية لتاريخها المجيد، تعلمت كثيرا من مصر . إن مصر كانت المعلمة الأولى للإنسانية^(١) » .

(١) كتاب (Histoire de France) ص ١٩ تأليف (E. Lavisce) .

المدنية اليونانية

وأثر المدنية المصرية فيها

—○—

اقتباسات هوميرو

من الأساطير والآداب المصرية

تتلى في هذا الكتاب

لغة عربية

مكتبة

مكتبة

كتبت في « البلاغ الأسبوعي » في ١١ مارس سنة ١٩٢٧ ألاحظ أن المدنية العربية نقلت إلى العالم كثيرا من علوم المدنية اليونانية نقل صراحة وأمانة، فعزت كل رأى إلى صاحبه ولم تعز لنفسها إلا الذى زادته على هذه الآراء، حتى كانت الفلسفة اليونانية لا تعرف في أوروبا في العصور الوسطى وفي أوائل العصر الذى يسمى في أوروبا عصر النهضة (Renaissance) إلا فى الكتب العربية، ولم تدرس فى كتبها اليونانية إلا بعد ذلك. وكتب ابن رشد التى ترجم فيها ما ترجمه من مؤلفات أرسطو، هى التى حملها بعض تلاميذه إلى أوروبا بعد أن نكبه المنصور، فنقلت منها إلى اللاتينية، ومنها عرف الأوروبيون فى ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه، ثم استمروا يدرسون فيها هذه الآراء إلى أن اهتموا بعد زمن إلى كتب أرسطو فى لغته اليونانية. ولكن المدنية اليونانية جاءت تالية للمدنية المصرية، وأنت مع ذلك تمر بكل ما ألفه علماءها فلا تجد ذكرا لعلوم أو آداب مصرية، ولا لعلماء أو أدباء مصريين. اللهم إلا ما كتبه هيكاتى دى ميل و هيرودوت وأمثالهما من المؤرخين والسائحين الذين زاروا مصر كما زاروا غيرها من البلاد، فكتبوا عنها كما كتبوا عن غيرها من الناحية الوصفية. ولسنا ننكر أن ما كتبه هؤلاء الرحالون كان ولا يزال ثميناً، ولكنهم كتبوه كما قلنا وصفا لما شاهدوه وسمعوه، لا نقلا لعلوم ولا ذكرا لعلماء. وكتب الرحلات والتواريخ غير كتب العلم والأدب.

كتبت ذلك فى مارس سنة ١٩٢٧، والآن وقد مضت ثلاث عشرة سنة قرأت فيها ما قرأته من الكتب، وتوفرت على ما تيسر لى أن أتوفر عليه من البحث، لا أرى ما يجلى على نقض ملاحظتى هذه أو تعدلها، بل أرى بالعكس أن الأدلة كلها تنص على صحتها. فقارئ العلوم والآداب اليونانية لا يجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقتبسة من مصر، ولا يقف فيها على أسماء لعلماء مصريين ولا على نتائج كان لهم فى علم أو فن أو أدب،^(١)

(١) يمكن أن يستثنى من ذلك كتاب واحد هو كتاب « إيزيس وأوزيريس » الذى وضعه الكاتب اليونانى =

مع أن قارئ العلوم والآداب العربية لا يكاد يمر بها حتى يجد أسماء صولون وسقراط وأبقراط وأفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وعشرين أو ثلاثين غيرهم ، كل منهم برأيه ونتاج ذهنه ، وكثير منهم بكتبه معربة كلها أو تكاد . وقد نشأ من ذلك اعتقادان : أولهما أن المدنية المصرية لم تنتج ما يستحق أن يذكر ، والثاني أن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها ، وكل فلسفتها ، وكل آرائها في الحياة والاجتماع ونظام الحكم ، وابتكرت كل دياناتها وآدابها ، حتى يقال إن الفكر الانساني يبدأ منها ، وإن كل ما سبقها لم يكن سوى فوضى فكرية كفوضى الطفولة يجب أن تسقط من الحساب .

والعلماء والكتاب اليونانيون أنفسهم لا يمارون في هذا بل يقولونه ، وهم يسمون كل من عداهم من الشعوب « البربر »^(١) لا يستثنون المصريين ولا الكلدانيين ولا الفينيقيين ولا الفرس ولا غيرهم من أصحاب المدنيات التي سبقتهم . ومن ألطف ما يذكر هنا أن المصريين القدماء كانوا يسمون من عداهم من الشعوب « البربر » لأنهم حينما ازدهرت مدنياتهم منذ أكثر من ٥ آلاف سنة على عهد الملك منا لم يجدوا حولهم إلا شعوبا يطلق عليها هذا الاسم بحق . أما اليونانيون فقد جاءت مدنياتهم بعد ذلك بنحو ٣ آلاف سنة كانت قد وجدت فيها مدنيات عدة .

وقد سرى الاعتقاد بأن المدنية اليونانية ابتكرت كل دياناتها وآدابها وفلسفتها إلى كل الذين أغرموا بدرس هذه المدنية من جميع الأمم . فصارت الكلمة المتفق عليها بين هؤلاء المغرمين أن المدنية اليونانية لم تقتبس علما ولا فنا ولا أدبا من أية مدنية سبقتها ، مع أن التاريخ الصادق يحدثنا بأن المصريين وصلوا إلى اليونان في زمن الأسرة الثامنة عشرة ، أي قبل نشوء المدنية اليونانية بنحو ألف سنة . وهذا التاريخ نفسه يحدثنا بأن اليونانيين اتصلوا بعد ذلك بمصر وانكبوا عليها ،

= بلوطرك (Plutarque) فشرح فيه عبادة ايزيس وأوزيريس لأنها كانت في ذلك الوقت قد انتقلت إلى اليونان ولبست ثوبا يونانيا . ولكن هذا الاستثناء منصب على عبادة دينية ، أما العلوم والآداب فليس في الكتب اليونانية شيء عنها .

(١) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسيرو — ص ٦١ من الطبعة الرابعة .

حتى كانت لهم فيها منطقة خاصة بهم في شمال الدلتا عامرة بالمدن^(١)، وحتى كانوا يقولون إن هذه المنطقة امتداد لليونان وإن مصر الحقيقية لا تبتدئ من سواحل الدلتا، بل من مدينة سايلس (حيث توجد الآن صا الحجر بمديرية الغربية)، وحتى كان الجيش المصرى في زمن الفراعنة بساماتيك الأول وأبريس وأمازيس وبساماتيك الثالث مؤلفا من فرق مصرية وفرق مستأجرة يونانية وغير يونانية، على رأس بعضها قواد يونانيون^(٢).

(١) نذكر من هذه المدن مدينة نوكراتيس ومدينة انديلا ومدينة اركندروبوليس. وقد ذكر هيرودوت هذه المدن الثلاث. والأولى أشهرها وكانت واقعة على الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة، حيث توجد الآن قرية كوم جعيف جنوبى دمنهور بمديرية البحيرة. أما المدينتان الأخريان فلم يعين مكانهما بعد. وكان الفراعنة حينما ضعفت شوكتهم قد أباحوا لليونانيين سكنى هذه المنطقة وخصوصهم فيها بامتيازات تجارية تجعل تجارة مصر مع جميع البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط احتكارا لهم. وقد قال هيرودوت في ذلك في الفقرة ١٧٨ من كتابه :

« كان أمازيس يحب اليونانيين ، فأعطى بعضا منهم دلائل على رعايته لهم . نذكر من هذه الدلائل أنه أعطى الذين يقدون عليها منهم بقصد الإقامة مدينة نوكراتيس ليقيموا فيها . أما الذين لم يكونوا يقصدون الإقامة ، بل كانوا يجيئون لقصد التجارة ، فقد أعطاهم أما كن ينشئون فيها مذابح ومعابد لألهتهم . وكان أعظم هذه المعابد وأشهرها وأعمرها بالناس يسمى هلنيون . وقد اشتركت في الأموال اللازمة لبنائه مدن يونانية عدّة ... » .

وهنا ذكر هيرودوت أسماء هذه المدن وقال إن أمازيس سمح لها بتأليف شرطة يونانية كانت تراقب أسواق التجارة وتؤدّى عمل الشرطة في مدينة نوكراتيس وتقضى بين التجار . ثم قال :

« وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية . ولم يكن في مصر ميناء آخر له هذه الميزة . فكان الواصل من البحر الأبيض إلى مصر ، إذا وصل بسفينته إلى مصب فرع من فروع النيل غير الفرع الكانوبى (الذى تقع عليه نوكراتيس) طولب بأن يحلف أنه لم يصل إليه باختياره . وبعد أن يحلف يكون عليه أن ينحى بسفينته إلى المصب الكانوبى . فإذا كانت الرياح تجعل هذه الرحلة مستحيلة فعليه أن ينقل محمول سفينته على مراكب مصرية تدور بهذا المحمول حول ساحل الدلتا حتى تصل إلى المصب الكانوبى ومنه إلى نوكراتيس . وكان هذا من الامتيازات التى أعطيت لهذه المدينة » .

(٢) كان وجود هذه الفرق المستأجرة نكبة على مصر، لأن الفرق المصرية والشعب المصرى ثارا عدة ثورات بسبب وجود الأجانب في الجيش والامتيازات التى كانت تتمتع بها الفرق اليونانية والمدن اليونانية. ثم إن بعض القواد اليونانيين خانوا مصر. ومنهم القائد فانيس الذى كان قائدا للجيش المصرى =

بهذا كله يحدثنا التاريخ الصادق ، كما يحدثنا بأن اليونانيين كانوا ينظرون إلى مصر ودياناتها بعين الدهشة والإعجاب ، ويرون في مدارسها ينبوع للحكمة والعرفان ، ويجدون من الخير لهم ولبلادهم أن يربطوا معبوداتهم بمعبوداتها ، وأساطيرهم بأساطيرها ، وأن يحتذوا في هذه وتلك مثلها^(١) .

وكثير من فلاسفة اليونان وشعرائها وكُتّابها الذين ظهروا حين نشوء المدنية اليونانية ، والذين ظهروا حينما كانت هذه المدنية في أوجها ، زاروا مصر ، وتلقوا العلم في مدارس مصر . وقد يحسن أن نذكر هنا بعضا منهم معتمدين في ذلك على المصادر اليونانية القديمة التي لا يمكن أن تنهم بحجباتها مصر .

= في عهد بسامتيك الثالث ، ثم لما علم أن جيش قبيل قادم لغزو مصر فر إليه وقابله في سوريا وانضم إليه . وكان قبيل واقفا موقف الارتباك أمام صحراء سيناء فشجعه فانيس ودله على الوسائل التي يجتازها الصحراء واستأجر له رؤساء البدو من سكانها يمدون جيشه بالماء والجمال . وكان لفانيس أولاد لا يزالون في مصر فلما علم المصريون بخيانة أبيهم ذبحوا هؤلاء الأولاد على مرأى منه في ميدان القتال . ثم فتح قبيل مصر . وقد ذكر هيرودوت هذه القصة مفصلة .

(١) أثبت عالم من العلماء المتخصصين في درس المدنية اليونانية يسمى فوكار (M. Paul. Faucart) في كتابه المسمى :

(Recherches sur l'origine et la nature des mystères d'Eleusis).

والمطبوع في سنة ١٨٩٥ ، أثبت هذا العالم أن عبادة ايلوزيس التي كانت منتشرة في اليونان منقولة من عبادة ايزيس وأوزيريس المصرية في طقوسها وتقاليدها ورموزها . ومعروف أن كبير الآلهة في الأساطير اليونانية كان يسمى ذفس (Zeus) فهذه الكلمة معناها في اللغة اليونانية « الذي يخفى نفسه » ، وهذا هو بعينه معنى كلمة أمون التي كانت تطلق على كبير الآلهة في طيبة . وقد ذكر ذلك الفيلسوف والمؤرخ اليوناني بلوطرك (Plutarque) في الفقرة ٩ من كتابه الذي وضعه باسم « ايزيس وأوزيريس » ، وترجمه إلى الفرنسية Mario Meunier ، وطبعه في سنة ١٩٢٤ ، وهذه الترجمة هي آخر ترجمة لهذا الكتاب ، وهي التي اعتمدت عليها هنا .

وقد قال بلوطرك في الفقرة التي أشرنا إليها إن كلمة أمون معناها في اللغة المصرية « الذي يخفى نفسه » وإن هذا هو بعينه معنى كلمة ذفس التي اختارها اليونانيون لكبير آلهتهم .

ومعروف أن توت هو الإله الذي يعزو المصريون إليه أنه عليهم الكتابة والعلوم والفنون . وقد قاس اليونانيون على هذا فجعلوا في أساطيرهم إلها يسمى هرمس عليهم الكتابة والعلوم والفنون . فتوت المصري هو هرمس اليوناني .

(١) فديودور الصقلي يقول :

« يؤكد الكهنة المصريون ، استنادا إلى كتبهم المقدسة ، أنهم شاهدوا في بلادهم أورفي . وموزي ، وميلامبوس ، وديدال (٥) ، ثم الشاعر هومير ، وليكوج الاسبارطي ، (٦) وهناك اقتباسات دينية أخرى .

و يقول هيرودوت في الفقرة ٥٠ من كتابه :

« تكاد جميع الشخصيات المقدسة في اليونان أن تكون مأخوذة من مصر . نعم إن بحوثي الخاصة دللتني على أن هناك شخصيات مقدسة أخذتها اليونان من البلاد المتبربرة ، ولكنني أرى أن أكثر الشخصيات مأخوذة من مصر خاصة . فانه فيما عدا بوزيدون ، وديوسكور ، اللذين أشرنا إليهما فيما مضى ، وفيما عدا هيرا وهستيا وتميس وشييت وتيريد ، فان جميع الشخصيات المقدسة اليونانية موجودة في مصر .

ثم عاد هيرودوت فأكد هذا المعنى مرة أخرى في الفقرة العاشرة قائلا :

« لقد تلقى اليونانيون من المصريين العادات التي أشرنا إليها ، كما تلقوا منهم عادات أخرى سنتكلم عنها فيما بعد » .

(١) Diodore de Sicile هو مؤرخ يوناني قديم زار مصر بين سنة ٦٠ وسنة ٥٧ ق م ووضع عنها كتابا وصفيًا .

(٢) Orphée كان ابنا لملك مقاطعة يونانية تسمى تراس . وهو أشهر موسيقي يوناني . وقد زار مصر وأقام فيها زمنا . وتقول الأساطير اليونانية إن أنغامه كانت تستوقف الوحوش تحت قدميه ، وإن نعبانا لدغ زوجته في ليلة زفافها إليه فانت ، فنزل إلى الجحيم وقتل آلهتها بأنغامه فردت زوجته إليه واشترطت عليه ألا ينظر إلى الخلف إلا بعد أن يخرج من مملكة الظلام ، فخالف أورفي هذا الشرط ونظر إلى الخلف ليرى زوجته فعوقب بأن فقد الأحساس ثم مرق .

(٣) Musée شاعر وموسيقي يوناني قديم يعتبر تلميذا للموسيقى أورفي الذي تقدم ذكره . وهناك شاعر يوناني آخر يسمى بهذا الاسم عاش في القرن السادس قبل الميلاد .

(٤) Mélampus طبيب يوناني اشتهر بالطب والسحر وعاش في العصر الذي يعرف في تاريخ اليونان بعصر الآلهة والأبطال الخرافيين . وقد كتب عنه هومير الشاعر المعروف فقال إنه تعلم بعض العقائد الدينية المصرية وإنه هو الذي أدخل عبادة باكشوس إله الخمر في اليونان .

(٥) Dédale مهندس بناء يوناني زار مصر وأقام فيها زمنا . وقد اشتهر في اليونان بأنه هو الذي بنى اللابيرنت أو قصر التيه في جزيرة كريت على مثال القصر الذي عرف بمثل هذا الاسم للملك أممنحت الثالث في اللاهون . وتقول الأساطير اليونانية إن قصر التيه في كريت بنى ليسجن فيه وحش نصفه الأعلى ثور ونصفه الأسفل رجل ، ولكن كان الذي أمر ملك كريت بسجنه فيه هو ديدال نفسه . وحينئذ صنع ديدال لنفسه جناحين من الشمع وطار بهما فأقعد نفسه .

(٦) Lycurgue هو مشرع القوانين لمدينة اسبارطة في اليونان القديمة . وقد عاش في القرن التاسع قبل الميلاد .

(١) وصولون^(١) الأثيني ، وأفلاطون^(٢) الفيلسوف . ويذكر الكهنة المصريون أيضا فيثاغورس بن جزيرة ساموس ، وايدوكس^(٤) الرياضي وديموكريت^(٥) بن مدينة أبدير ، وأينوبيد^(٦) بن جزيرة صاقز^(٧) .

ذلك ما قاله ديودور الصقلي^(٨) أما بلوطرك^(٨) فانه بعد أن بين ، كما تقدم ، في الفقرة التاسعة من كتابه « إيزيس وأوزيريس » أن كلمة ذفس اليونانية تتفق في معناها مع كلمة أمون المصرية ، قال في الفقرة العاشرة :

(١) (Solon) هو واضع القوانين لمدينة أثينا القديمة . وقد عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٥٨ ق م .

(٢) هو خليفة الفيلسوف سقراط . ولكنه اشتهر بعد ذلك بفلسفته الخاصة . وقد تقدم في ص ١٢٠ من هذا الكتاب أنه زار مصر وكان يتردد على كهنة هليوبوليس ، وأنه روى أن هؤلاء الكهنة ذكروا له مواطنيه اليونانيين فقالوا :

« أيها الناس . أنكم لستم سوى أطفال . وليس بينكم شيوخ » .

(٣) (Pythagore) فيلسوف ورياضي يوناني مشهور . عاش في القرن السادس قبل الميلاد . ويؤكد كثير من العلماء أنه أقام في مصر حوالي عشرين سنة كان فيها يتردد على مدارسها . وهو القائل بكونية الأرض ، وقد عالج أن يفهم نظام الكون فقال إنه على شكل كرة في مركزها النار ، وأن أجراما عشرة تتحرك حول هذه النار أولها الأرض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحركة (أي الكواكب السيارة) ثم النجوم الثابتة . وقال إن جميع هذه الأجرام تدور حول النار المركزية . فلو أنك وضعت في هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيك التي تعد من أعظم كشوف العصور الحاضرة .

(٤) (Eudoxe) فلكي يوناني عاش بين سنة ٤٠٩ وسنة ٣٥٦ ق م .

(٥) (Democrite d'Abdère) هو فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس ق م . وهو معروف في الكتب العربية باسم ديموقراطس . وهو صاحب نظرية الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد . وأبدير التي هو من أهلها مدينة كانت من مدن مملكة تراس واقعة على بحر ايجه .

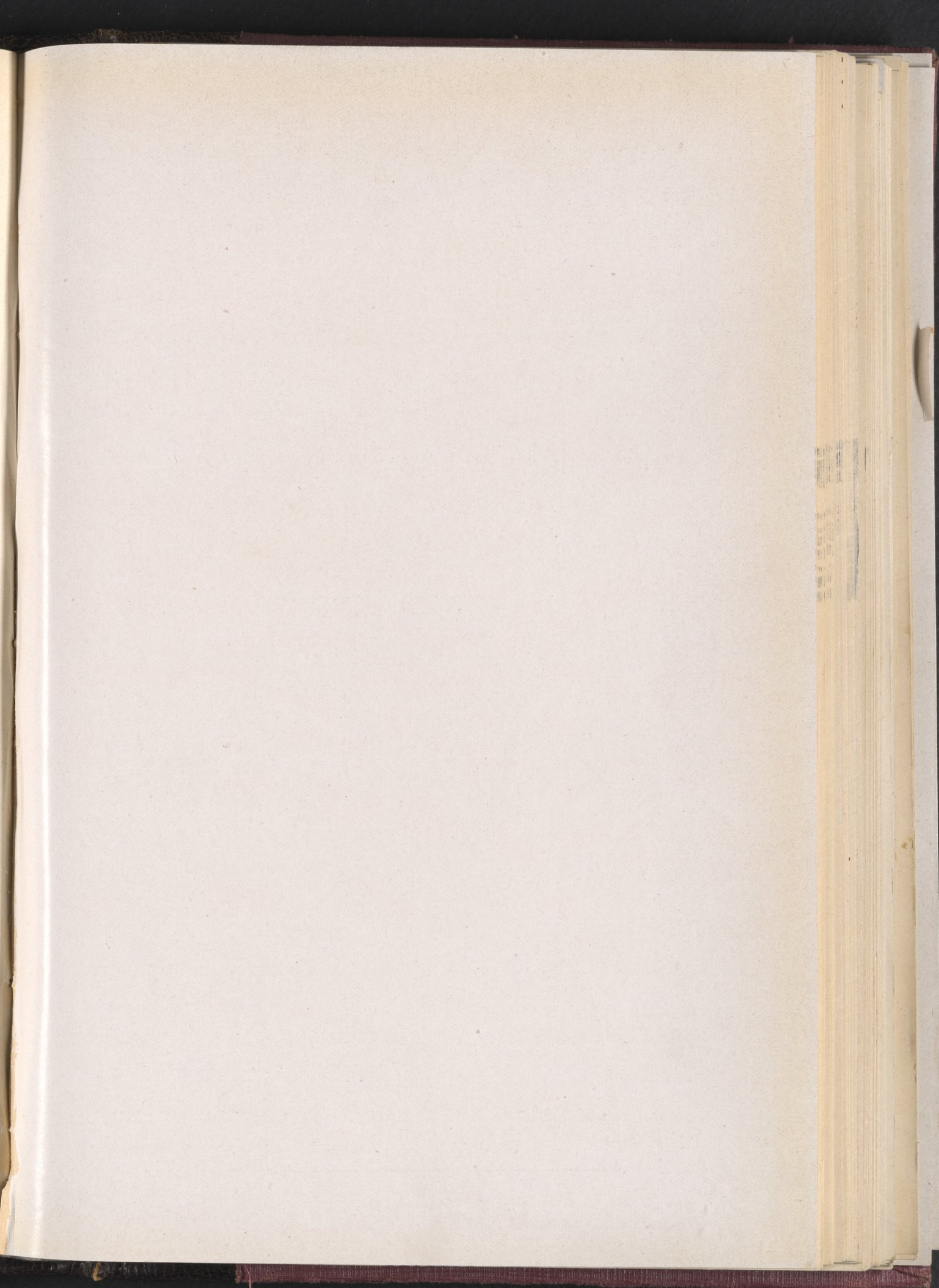
(٦) (Enopide de Chis) عالم يوناني قديم .

(٧) راجع في هذا الموضوع أيضا كتاب (J. A. Faure) عن اتصال الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط بمصر . وهو مطبوع بباريس في سنة ١٩٢٣ .

(٨) Plutarque كاتب وفيلسوف يوناني . زار مصر في نحو سنة ١٢٠ بعد الميلاد . ومن كتبه المشهورة كتابه عن عبادة « إيزيس وأوزيريس » .



شيخ البلد (اقرأ ص ٢١٩)



«وهذا ما يؤكد أعظم اليونانيين المنتورين ، وهم صولون ، وتاليس ، وأفلاطون ، وايدوكس ،
وفيثاغورس . ويؤكد أيضا ، على قول بعضهم ؛ ليكورج نفسه . وذلك أن هؤلاء اليونانيين المنتورين
كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها . فن ذلك أنه يقال إن ايدوكس تلقى العلم على
يد شونوفيس الممفيسى (Chonophis de Memphis) ، وإن صولون^(٢) تلقاه على يد سونشيس^(٣)
(Sonchis) في سايس (صا الحجر) ، وإن فيثاغورس اتصل باينوفيس (Enuphis) في هليوبوليس .
وكان فيثاغورس خاصة عظيم الإعجاب بالأساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضا يعجبون به ، فحاول أن
يقلد طريقهم في كتاباتهم الرمزية وتعاليمهم السرية ، فأحاط نظرياته بالألغاز . وفي الواقع إنه لا يوجد
أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية » .

ثم مضى بلوطرك يدل على هذا التشابه ، فذكر أمثلة عديدة من تعاليم فيثاغورس
وما يشابهها من التعاليم المصرية .



فهؤلاء هم مشرعون وفلاسفة ورياضيون وشعراء وموسيقيون يونانيون تلقوا
علومهم في مصر ، ومنهم اثنان كان لهما الفضل الأكبر في وضع الحجارة الأولى
لبناء المدنية اليونانية وهما المشرعان ليكورج وصولون ، ومنهم أيضا الشاعر الكبير
هومير ، وثلاثة من كبار الفلاسفة الذين ظهروا حينما كانت المدنية اليونانية في أوجها
وهم أفلاطون وديموكريت وفيثاغورس . ولم يقتصر الأمر على المشرعين والشعراء

(١) Thalès فيلسوف يوناني عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٤٨ ق م .
(٢) تكلم هيرودوت في الفقرة ١٧٧ عن الرخاء الذى تمتعت به مصر في عهد الملك أمازيس ثم قال :
« وأمازيس هو الذى فرض على المصريين قانونا يقضى على كل واحد منهم بأن يبين لحاكم الإقليم
الذى هو فيه الوسائل التى يعيش منها ، فن خالف أو لم يثبت أنه يعيش من موارد شريفة عوقب بالموت .
وقد نقل صولون الأتيى هذا القانون من مصر وسنه في أثينا . وأهل أثينا يحافظون عليه ويعتبرونه
قانونا أخلاقيا كاملا » .

وقد علق مترجم هيرودوت (Ph. E. Legrand) على ذلك في ص ٣٧ من مقدمة الترجمة فقال : إن القانون
المصرى لم يكن الغرض منه إثبات الموارد الشريفة ، بل كان الغرض منه الإحصاء لأجل جباية الضرائب .
(٣) هذه أسماء أساتذة مصريين تلقى العلم عليهم ثلاثة من كبار الفلاسفة اليونانيين . والذى
يقرر ذلك هو بلوطرك الكاتب والفيلسوف اليونانى .

والفلاسفة، بل شمل — كما رأيت — أطباء وبنائين وفلكيين ورياضيين وموسيقيين، وبالإجمال كل العناصر التي تقوم بها المدنية. فلا ريب إذن في أن اليونانيين اتصلوا بمصر حين نشوء مدينتهم وبعد نشوئها اتصال إقامة وتعلم، ولكن العلماء اليونانيين لم يحملوا إلى العالم شيئا من علوم مصر، كما حمل العرب علوم اليونان إلى أوربا.

يضاف إلى ذلك أن مدرسة الاسكندرية التي أنشأها البطالسة أخرجت علماء يونانيين كثيرين. وقد كان هؤلاء العلماء محتكين بمصر، بطبيعة إقامتهم في الاسكندرية، ومع ذلك لم يرد أحد منهم أن يحمل إلى العالم في كتبه شيئا من العلوم المصرية والآداب المصرية. نعم إن مصر كانت قد دب فيها سوس الانحطاط إذ ذاك وإن الوهن كان قد خيم على مدارسها القديمة، ولكن هذه المدارس كانت مع ذلك لا تزال موجودة، وإذا نحن فرضنا أنها كانت قد انحطت إلى حد أنها لم تكن تستحق أن يؤخذ منها شيء فقد كانت الكتب المصرية موجودة، وليس يمكن عقلا ولا عملا أن تنهض مدرسة جامعة كمدرسة الاسكندرية على أساس علمي صحيح إلا إذا كان من مهمتها أن تضم إلى دراساتها الحديثة ما سبقها من الدراسات القديمة، ولا سيما دراسات مدنية عاشت أكثر من ثلاثة آلاف سنة، كالمدنية المصرية. نعم لا يمكن هذا، ولا محل لتصوره، ولكن العلماء السكندريين لم يروا أن يقولوا لنا شيئا عن علوم كانت لمصر، ونظريات كانت لمصر، وآداب كانت لمصر.

وقد يقال هنا إن مكتبة الاسكندرية أحرقت، ولو أنها بقيت لوجد العالم فيها كثيرا من علوم مصر وآدابها، وهذا عذر قد يكون صحيحا، ولكن من الصحيح أيضا أن علماء الاسكندرية هؤلاء نشروا كتباً تعدّ بالعشرات في العالم المتحضر إذ ذاك، وقد بقيت كتبهم هذه إلى اليوم، وليس في واحد منها ذكر لعلوم مصرية ولا لآداب مصرية، كلا ولم يقل واحد منهم إنه اقتبس فكرة معينة من المدارس المصرية والكتب المصرية أو المدنية المصرية وبني عليها نظرية له الفضل فيها^(١).

(١) لا نرى أن نورد هنا أسماء علماء الاسكندرية ونظرياتهم العلمية والكتب التي نشرها لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنا الذي نحن فيه.



وقد كان من نتيجة هذا الصمت عن علوم مصر وآدابها أنه لما دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفيها ، أسدل حجاب كثيف على كل ما يسمى علما مصريا ، ولولا أنه كانت توجد آثار مادية كالأهرام والمعابد والمسلات وقبور الملوك تنطق بعظمة ذلك العلم ، لما فطن إليه أحد . بل لعل الذين وجهوا همهم إلى كشف اللغة المصرية وقراءة خطوطها الهيروغليفية والديموطيقية والهيراطيقية ، ما كانوا يعنون بها ويكشفون غطاءها ، وإذن كانت تبقى مصر القديمة غارقة في ظلمات الماضي ، وتبقى علومها غارقة معها في هذه الظلمات إلى الأبد .



اتصل اليونانيون بمصر وتعلموا فيها ولكنهم لم يذكروها فيما كتبوه ، فهل هم مع ذلك اقتبسوا منها ؟

إن العقل يجب على هذا فيقول إن الاقتباس في هذه الحالة أمر لا مفتر منه ، لأن المدنات المختلفة ليست سوى حلقات متتالية في سلسلة واحدة هي سلسلة الإنسانية . فكل مدينة تصوغ نفسها من المدنات التي سبقتها ثم مما تزيده عليها ، وبهذا يتحقق تقدم الانسان وتقدم العمران .

هذا هو جواب العقل ، فما هو جواب الواقع ؟

جواب الواقع هو بعينه جواب العقل فقد عرف منذ مائتي سنة أو أكثر أن التصوير اليوناني والنقش اليوناني والأعمدة اليونانية هي اقتباس من التصوير المصري والنقش المصري والأعمدة المصرية مع شيء من التنويع .

وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هي بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن .

عرف هذا منذ مائتي سنة أو أكثر لان التصوير والنقش والاعمدة والمصنوعات في مصر وفي اليونان ، كانت في متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن واحدة منها بالأخرى . أما العلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ولهذا كانت موازنتها بمشكلاتها اليونانية مستحيلة . ولا يزال أكثرها مجهولا إلى اليوم لأن ما عرف لا يزيد على جوانب من الديانات لا يزال في بعضها غموض ، ثم طرف صغير من الآداب ممثل في بضع قصص وأناشيد وأشعار . أما العلوم ، وخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شيء منها .

ولهذا كان السؤال الذي تساءل فيه الباحثون منذ أربعين سنة ، أى منذ شاعت ترجمة أوراق البردي المصرية هو : « هل في الآداب والديانات اليونانية أثر من الآداب والديانات المصرية ؟ وهل هذا الأثر واضح بحيث يمكن تعيينه أو هو مبهم غير واضح ؟ » . وسنمر نحن هنا بشيء مما وقف عليه الباحثون . وسنخص بالذكر شاعر اليونان الكبير هو مير صاحب الأوديسة والإلياذة .



من الذين تفرغوا لدراسة الآداب اليونانية وعرفوا بحجها والإعجاب بها عالم فرنسي هو فيكتور بيرار (Victor Berard) . ويهمني هنا أن يكون بيرار هذا من المتفرغين للآداب اليونانية والمعروفين بحجها لأنه إذا شهد بأن بعض هذه الآداب مقتبس ، أو أكثر من مقتبس ، من الآداب المصرية ، فشهادته لا ترمى بالتحيز لمصر .

وقد درس بيرار إلياذة هوميرو وأوديسته فوضع فيهما الشروح والمصنفات . وهوميرو أعظم شاعر يوناني ، ومثله في الآداب اليونانية أعظم من منزلة امرئ القيس في الآداب العربية ، وإن كان كل منهما يختلف عن الآخر متزا وتفكيراً .

وبما أننا سنعرض هنا للأوديسة وما دخل فيها من الآداب المصرية، يحسن أن نقول قبل ذلك ما هي الأوديسة .

فالأوديسة هي قصة شعرية موضوعها أن البطل اليوناني عوليس أمير مقاطعة يونانية تسمى إيتاك اشترك مع غيره من الأمراء اليونانيين في محاصرة مدينة طروادة (على ساحل آسيا الصغرى) ثم لم يعد إلى إمارته فخرج ابنه تليماك يبحث عنه فذهب إلى مدينة اسبارطة وسأل فيها الملك منلاس عن أبيه . وفي أثناء ذلك كان عوليس في جزيرة الإلهة كاليبسو واقعا في حبها، ثم تحرك فيه الشوق إلى بلده ففر من الجزيرة، فهبت عليه في البحر عاصفة فأغرقت مركبه وألقته الأمواج على شاطئ جزيرة شيرى^(١) وعلى أرض فيها تسمى أرض فياسى . وفي هذه الأرض قابل نوزيكا ابنة الملك ألسينوس فساعده وقربته من أبيها . وقص عوليس على الملك الأحوال التي وقعت له في بحار كثيرة ركبها وجزائر عدة التجأ إليها . ثم عاد عوليس إلى بلده إيتاك فتنكر في زى متسول وقابل ابنه تليماك الذى كان قد عاد هو أيضا من اسبارطه . وكانت امرأة عوليس ، وهى تسمى بنيلوب ، قد بقيت وفية له طول غيابه ولكن كان أربعة من الأمراء قد تقدموا إليها ليخطبها كل واحد منهم لنفسه فظهر لهم عوليس وقتلهم هو وابنه تليماك ثم ظهر لامرأته وعاد إلى عرش إمارته .

تلك هي قصة الأوديسة وهى مقسمة إلى أربعة وعشرين كتابا أو جزءا . وما من لغة في أوربا إلا وقد نقلت إليها .

وقد نقلت إلى اللغة الفرنسية من زمن طويل ، ولكن العلماء الفرنسيين ما زالوا يضعون لها ترجمات جديدة ، وما زالوا يدرسونها دراسات جديدة ، ومن هؤلاء فيكتور بيرار الذى تقدم ذكره ، درسها مرة ثم ترجمها ودرسها مرة ثانية هى التى طبعها حديثا فى سنة ١٩٢٥ . وقد أتيح له أن اطلع على قصص وأشعار مصرية

(١) هى جزيرة خرافية تخيلها هوميرو .

كان ماسبيرو وغيره من علماء المصروولوجيا قد نشروها فدهش إذ رأى في الأوديسة آثارا من تلك القصص والأشعار، فعكف على موازنة إحداهما بالأخرى، فكانت النتيجة التي خرج بها أن الاقتباس واضح لا يصح أن يختلف فيه اثنان، وأن الشاعر اليوناني هوميرو أخذ بعض ما في قصته من الكتاب المصريين .

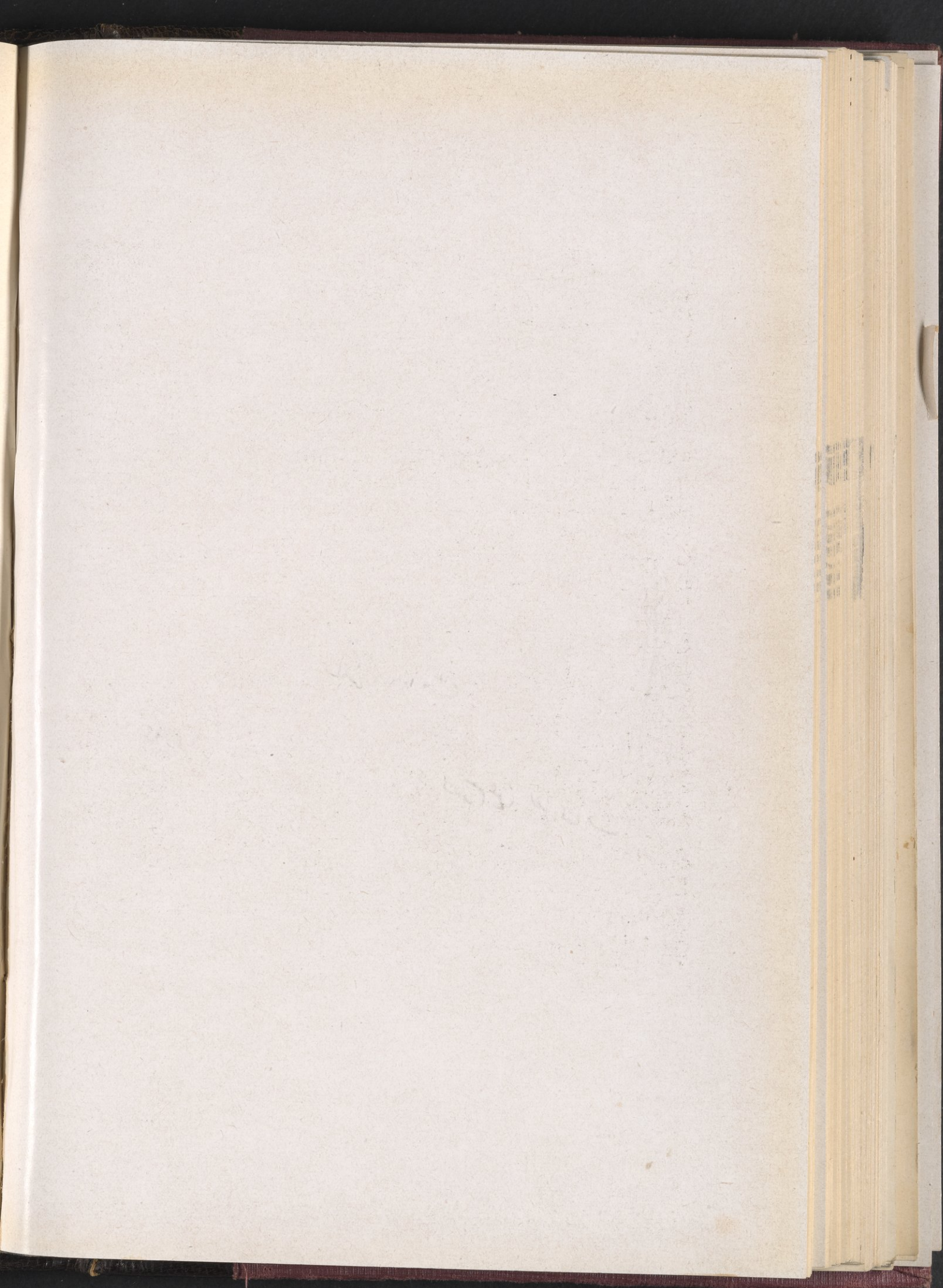


ولكى يقف القارئ على طرف من هذا الاقتباس، أو قل هذا النقل، نذكر أن مما اشتملت عليه قصة الأوديسة حديثا طويلا يدور بين تليماك والملك منلاس، وفي هذا الحديث يقص الملك منلاس أن الآلهة غضبوا عليه في ماضيه فحجزوه مع رفقاء له عشرين يوما في جزيرة على سواحل مصر تسمى فاروس، ثم ظهرت له ابنة شيخ من شيوخ البحر ونبي من أنبياء مصر يسمى «بروتي» فقالت إن أباه يخرج من الأمواج كل يوم ثم يمضي إلى مغارة في الجزيرة فيتمدد فيها ثم تنام حوله كلاب بحر تخرج هي أيضا من الأمواج. فالوسيلة التي يستطيع بها منلاس أن يخرج من الجزيرة هي أن يفاجئ «بروتي» ساعة نومه ويشد عليه بقوة، وحينئذ يحاول «بروتي» أن يتخلص فيتحوّل إلى كل نوع من أنواع الحيوانات الزاحفة على الأرض، ثم إلى ماء ثم إلى نار، فإذا بقي منلاس قابضا عليه ولم يدعه يفلت فسيعود إلى شكله الإنساني ثم يكلمه، فعلى منلاس حينئذ أن يسأله بأي وسيلة يخلص من الجزيرة .

وبعد ذلك غابت البنت بين الأمواج ثم ظهرت ومعها جلود أربعة من كلاب البحر فلبسها منلاس وثلاثة من رفقاءه الأشداء وكنوا كذلك إلى أن ظهر «بروتي» وعرض كلابه ومن بينها منلاس ورفقاؤه دون أن يظن إليهم . ثم نام فهجم عليه منلاس ورفقاؤه وشدوا عليه بأيديهم فتحوّل إلى أسد ثم إلى تنين ثم إلى خنزير كبير ثم إلى ماء ثم إلى شجرة، ثم لما استنفد كل سحره على غير جدوى تكلم فسأله منلاس،



تمثال من حجر الشيست للملك تحوتمس الثالث أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهو يلقب بنابليون مصر



Handwritten text in Arabic script, likely a manuscript or a page from a book. The text is arranged in several columns, with some lines being more prominent than others. The script is cursive and appears to be from a historical period. The page is numbered 139 at the top center.

فعلم منه أن ذفس، كبير الآلهة، غاضب عليه لأنه لم يقرب له ضحايا قبل ركوبه البحر وأنه لن يرضى عنه ولن يأمر الرياح بالاعتدال له إلا إذا قرب له الضحايا . ثم أخبره « بروتى » بكثير من أخبار أصدقائه وبلاده . ثم قال إن القدر لم يكتب له أن يموت فى مدينة أرجوس التى فيها حقوله بل ستقوده الآلهة إلى الأليزيه (الأليزيه كانت فى الأساطير اليونانية دار النعيم التى يقيم فيها الصالحون) فى آخر الأرض عند الإله رادامانت^(١) حيث الحياة أهنأ ما تكون وحيث لا يوجد ثلج ولا برد قارص ولا مطر، وحيث لا توجد عواصف بل توجد ريح الشمال . وبعد ذلك ألقى « بروتى » بنفسه بين الأمواج فغاب فيها .

فهذه القصة التى قصها الملك منلاس على تليماك، علق عليها فيكتور بيرار فقال فى الصفحات ٩٥ و٩٦ و٩٧ والصفحات التى تليها ما ملخصه أنها قبل كل شئ تشبه فى مجموعها القصص المصرية التى جمعها ماسبيرو فى كتابه « القصص الشعبية فى مصر القديمة^(٣) » وهى قصص ترجع إلى ٥٠٠ أو ٨٠٠ سنة على الأقل قبل عصر هوميرو .

ثم إن شيخ البحر يسحر نفسه أسدا وخنزيرا وماء ونارا مقدسة، والسحر على هذا الشكل تفيض به القصص المصرية .

ثم إن من الحيوانات التى يتحول شيخ البحر إليها الخنزير الكبير، والخنزير الكبير تسمية كانت شائعة عند المصريين وكانوا يريدون منها خنزير النهر أو عجل النهر . ثم إن جميع حوادث هذه القصة وأسماء أشخاصها موجودة فى القصص المصرية بما فيها القبض على « بروتى » وخيانة بنته له .

(١) رادامانت هو فى الأساطير اليونانية أحد أبناء ذفس .

(٢) كتاب L'Odyssée — Traduction nouvelle جزء أول طبعة سنة ١٩٢٥

(٣) Les contes populaires de l'Egypte Ancienne



الخط الهيروغليفى المصرى أو الخط المقدس (قطعة من كتاب الموتى)

ثم إن اسم «بروتى» هو اسم فرعون كما أثبتته ماسبيرو في تحليله العلمى .

ثم إن المصريين كانوا يحبون القصص التى تتكلم فيها الحيوانات .

ثم إن دار النعيم أو (الأليزية) الموصوفة هنا هى دار مصرية ولا يمكن أن تكون دارا يونانية . إذ مصر هى التى ينطبق عليها أنها لا ثلج فيها ولا مطر ، وأن البرد فيها غير قارس ، أما اليونان فالمطر فيها غزير ، والبرد قارس ، وفيها ثلج فى بعض الأحيان ، وريح الشمال التى يقول هوميرو إنها تهب على دار النعيم لا تدع شكا فى أن الدار مصرية لا يونانية ، لأن هذه الريح تهب فى مصر من الشمال فتكون علية تستروحها النفوس أما فى اليونان فان هذه الريح نفسها تكون فى شكل عواصف . والمصريون يحبون هذه الريح واليونانيون يخشونها . أما الإله رادامانت الذى يقاد إليه مناس فى دار النعيم فهو إله المصريين أوزيريس على عرشه فى الحياة الأخرى .



هذه هى شهادة فيكتور بيرار ، ونحب نحن أن نكون منصفين فنقول إن الاقتباس هنا يظهر فى صورة إدخال حوادث مصرية وأشخاص مصريين يتخيلهم هوميرو فى ثنايا قصة الأوديسة ، ولا يظهر فى صورة اقتباس قصة معينة . وهذا الذى فعله هنا هوميرو يفعل كل الشعراء وكل الكتّاب فلا يؤخذ عليهم أنهم يحكون المحاكاة بل الذى يؤخذ عليهم هو أنهم يقصرون فى هذه المحاكاة .

فما لم يظهر فى المستقبل أن فى الآداب المصرية قصة معينة كهذه التى قصها مناس عن وجوده فى جزيرة فاروس ، فليس لقائل أن يقول إن هوميرو سطا فى هذه القصة على شىء من تلك الآداب . ولكن يقال من ناحية أخرى إن موضوع البحث ليس أن يكون هوميرو قد سطا أو لم يسط على الآداب المصرية ، بل أن يكون لهذه الآداب أثر ظاهر فى شعر هوميرو . فمن هذه الناحية تكون شهادة فيكتور بيرار سليمة ويكون الأثر المطلوب قائما فى تلك المحاكاة .

Handwritten text in Arabic script, likely a manuscript page. The text is arranged in several lines, with some characters appearing to be in a different script or dialect. The page is numbered 131 at the top.

الخط الهراطي المصري

صفحة من ورقة بردى مخفوفة في منصف برلين



والآن ننتقل إلى شهادة أخرى ليس الأمر فيها أمر محاكاة لحوادث مصرية يدخلها هومير في شعره ، بل الأمر فيها أمر قصة مصرية معينة أثار عليها هومير وأدخلها في الأوديسة بعد أن حاول أن يلبسها ثوبا يونانيا ، فبقى الثوب شفافا تطل القصة المصرية من ثيابه ، بموضوعها وسياقها ونصوصها .

هذه الشهادة الثانية هي شهادة عالم من علماء المصروولوجيا في روسيا هو الأستاذ جولنيشيف (M. W. Golénicheff) ويؤيده فيها عالم فرنسي هو الأستاذ موري .

فقد حدث من بضع سنين أن ترجم جولنيشيف ملفا من أوراق البردي المصرية المحفوظة في إحدى مكتبات بتروغراد (العاصمة القديمة لروسيا) ، وهو ملف مكتوب بالخط الهيراطيقي في زمن الأسرة الثانية عشرة (١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) فاذا به قصة مصرية في بعض فصولها أن سائحا مصرية ركب البحر ثم غرقت مركبه وقذفت به الأمواج إلى جزيرة خرافية ، ثم إذا بهذا الفصل موجود في الأوديسة ، لا بمعناه فحسب ، بل بسياقه ، وبكل ما فيه من الأوصاف ، وبالكثير مما فيه من التعبيرات .

ولم يكد جولنيشيف يقف على هذه الحقيقة حتى أذاعها في رسالة ذكر فيها نصوص ورقة البردي ، وذكر إلى جانبها النصوص المماثلة لها من الأوديسة . فوصلت هذه الرسالة إلى موري في باريس فدرس ملف البردي الذي ترجمه جولنيشيف وكتب في كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) المطبوع في سنة ١٩٢٥ ، في صفحة ٢٤٠ والصفحات التي تليها يؤيد ما أثبتته جولنيشيف ويزيد عليه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ما كتبه هذان العالمان في موازنة النصوص المصرية بنصوص الأوديسة فنكتفي بأن ننقل طرفا من هذه الموازنة .



الموضوع في القصة المصرية هو كما قلنا غرق سفينة لسائح مصرى ،
وفي الأوديسة غرق سفينة عوليس والد تليماك الذى مر ذكره . فالكاتب المصرى
يقول في قصته على لسان بطله :

« ركب البحر في سفينة طولها ١٥٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ومعى ١٥٠ رجلا من أفضل البحارة
في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان في قلوبهم من البأس أكثر
مما في قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالإعصار قبل ثورانه .
وبينما نحن في البحر هبت علينا العاصفة فجأة . وكنا قريبين من الأرض ، فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت
أمواجاً كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها .
ومات كل الذين بقوا في السفينة ولم ينج منهم أحد .

« وقذف بى الموج إلى جزيرة فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت فى غابة تشبه
الخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقى ^(١) أبحث عن شىء أضعه فى فى . فوجدت تينا وعنبا وكل أنواع
الكراث الجميلة وبذورا وشماما هو من الكثرة كأنما يصنع صنعا . ووجدت أسماكا وطيوراً . وبالإجمال
لم يكن شىء إلا وهو فى ذلك المكان . فأكلت حتى شبع ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى
تمتلئان به ، ثم حفرت حفرة وأشعلت نارا وجعلت ألقى فيها مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة .»

هكذا كتب الكاتب المصرى فى قصته ، وسنعرّب هنا ما كتبه مورى عقدا
للموازنة بينه وبين ما كتبه هومير فى قصته عن عوليس . ونكتفى بأن يكون نصيبنا
التعريب حتى لا يكون مصرى هو الذى يعقد الموازنة ويؤدى الشهادة فيها للكاتب
المصرى بل يكون الذى يعقد المقارنة ويؤدى الشهادة عالما فرنسيا . قال هذا
العالم بعد أن أورد النص الذى ذكرناه :

« والآن فلننتقل إلى عوليس . بعد أن ترك عوليس جزيرة كاليسور كى السفينة وحده فبق فى البحر
ثمانية عشر يوما لم يحدث فيها حادث ثم طلعت لعينه جبال فياسى بغاباتهما . وحينئذ أثار ذفس (تقدم أنه
كبير الآلهة فى الأساطير اليونانية) العاصفة فارتدت على عوليس موجة عالية فكسرت سفينته وفرقت أخشابها .

(١) المراد بقوله « مددت ساقى » أنه جعل يمشى .

قال هومير: «وحيث ركب عوليس قطعة من الخشب وقادها كما يقود الإنسان جوادا». واستمر عوليس عاثما في هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها. قال هومير: «ولم يكن عوليس ينفك في أثناء ذلك عن أن يتناقش مع قلبه». وقال أيضا: «وأخيرا جاءت موجة كبيرة ودفعت به نحو الشاطئ الوعر».

وانتهى عوليس بأن وصل إلى هذا الشاطئ ثم استطاع بعناية الآلهة أن يلتجئ إلى غابة. قال هومير: «وصنع عوليس لنفسه تحت شجرتين صغيرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس». ثم نام «تحت أوراق الأشجار». ويمضى هومير بعد ذلك في الأوديسة فيجعل عوليس يصف النباتات الرائعة التي تغطي أرض قياسى المباركة. يقول هومير: «في هذه الأرض أشجار كبيرة باسقة بعضها يثمر الكثيرى والرمان وبعضها يثمر البرتقال الجميل والتين اللذيذ والزيتون الأخضر والعنب الناضج».

أما القربان الذى قدمه السائح المصرى للآلهة بواسطة النار فهو غير موجود في هذا المكان من قصة عوليس ولكن الأستاذ جولنيشيف لاحظ أن هومير نقله إلى مكان آخر من قصة عوليس نفسها هو المكان الذى يتحدث فيه عن مقام عوليس عند الوحش بوليفيم^(١)، وذلك أن عوليس ورفقاءه يشعلون حيث نارا ليقدموا بواسطتها قربانا للآلهة بعد أن طعموا من الجبن الذى وجدوه في مغارة الوحش».

ذلك ما كتبه مورى، وقبل أن نمضى في موازناات أخرى يحسن أن نقول نحن كلمة في إبراز وجوه الاتفاق بين ما كتبه هومير وما كتبه الكاتب المصرى.

(فأولا) إن العاصفة تهب على السفينة في القصتين.

(وثانيا) إن عوليس يركب قطعة من الخشب كالتي يركبها السائح المصرى.

(وثالثا) إن السائح المصرى قد قذبت به موجة إلى الجزيرة، وعوليس دفعت به موجة إلى شاطئ الجزيرة.

(ورابعا) إن الكاتب المصرى عبر عن وحدة بطله في الجزيرة وحديثه مع نفسه حينما صعد إليها بأنه لم يكن له رفيق فيها غير قلبه. فقال هومير إن عوليس حينما كان على القطعة الخشب كان يتناقش مع قلبه.

(١) بوليفيم هو في الأساطير اليونانية ابن نبتون إله البحر وهو في صورة وحش ذى عين واحدة. وفي الأساطير اليونانية وحوش كثيرة على هذا الشكل تسمى سيكلوب وأكبرها وأشدّها هو بوليفيم.

(وخامسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بقى فى الجزيرة ثلاثة أيام وحيدا .
فقال هومير إن عوليس بقى على القطعة الخشب ثلاثة أيام بلياليها .

(وسادسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله التجأ إلى غابة فى الجزيرة تشبه
المخبأ . فقال هومير إن عوليس التجأ إلى غابة وصنع لنفسه تحت شجرتين مأوى يأمن
فيه من الرياح والمطر والشمس .

(وسابعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله نام فى الغابة التى التجأ إليها وإن
ظلمها كان يحيط به . فقال هومير إن عوليس نام فى المأوى الذى صنعه لنفسه وإن
أوراق الأشجار كانت تحبسه .

(وثامنا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بحث بعد ذلك فوجد أنواعا كثيرة
من النباتات والفاكهة والبذور . فقال هومير إن عوليس بحث بعد ذلك فوجد
كثيرا من الأشجار والفاكهة .

(وتاسعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله أراد أن يشكر الآلهة فأشعل نارا وجعل
يلقى فيها قربانا لتكفل النار بإيصاله إليها . فقال هومير فى مكان آخر من قصته ، وفى حديثه
عن عوليس نفسه ، إن عوليس ورفقاه أشعلوا نارا وقدموا بواسطتها قربانا للآلهة .
تلك هى أوجه الاتفاق فيما كتبه الكاتب المصرى وما كتبه هومير . وهو اتفاق
يكاد يكون فى التعبيرات .



ولم تنته الموازنة بعد لأنها طويلة وهى كلها على هذا المثل فلنستمر .
يذكر الكاتب المصرى أن بطله أو سائحه نام ، ثم يقول على لسانه :
« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فاستيقظت وكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا
هائلا يتقدم نحوى ... ثم قال لى هذا الثعبان « من أتى بك ؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك ؟ » .
ثم وضعنى فى فمه ونقلنى إلى المكان الذى كان يقيم فيه ... ثم قال لى مرة أخرى : « من أتى بك ،
من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هذه الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج » .

فيجيب السائح على هذه الأسئلة فيقص قصة سفينته وغرقها كما رأينا .

وهنا نرجع إلى عوليس ، وهنا أيضا نعرب الموازنة كما كتبها موري . قال :

« إن الذين يستقبلون عوليس في أرض فياسى هم نوزيكا وأبوها الملك ألسينوس ورعيته ، أى أنهم أناس لا وحوش . ولهذا لا يوجد دوى رعد في قدومهم إليه . ولكن هومير لم يفته هذا الرعد في الفصل الخاص ببوليفيم لأن هذا الوحش يأتى ويأتى معه دوى كدوى الرعد إلى المغارة التى التجأ إليها عوليس . وقد قال جولنيشيف إن هذا الموضوع من القصة المصرية انتقل في شعر هومير إلى مكان آخر . وهو مصيب في ملاحظته هذه . ويقول جولنيشيف أيضا إن في شعر هومير شيئا يستوقف النظر هو أن السائح في القصة المصرية يكشف عن وجهه حينما يستيقظ لكي ينظر ، فرقاء عوليس النائمون على رمال الشاطئ يكشفون هم أيضا عن وجوههم حينما يستيقظون من نومهم على نداء سيدهم . وتلى ذلك مشابهة أخرى هى جلسة السائح المصرى متربعا بالقرب من النار لتقديم القرбан وجلسة عوليس متربعا بالقرب من . وقد الملك السينوس .

« وهذا الملك ينهض عوليس بيده من جانب الموقف ليجلسه على عرش براق ، والثعبان فى القصة المصرية ينهض السائح من جانب الموقف ويجلسه فى المكان الذى يقيم فيه . ويضيف جولنيشيف إلى كل هذا أن عوليس يسأل فى أرض فياسى مرتين كما يسأل السائح فى القصة المصرية مرتين ، وذلك أن الملكة أريتي تسأل عوليس : « من أنت ، ومن أين تأتى ؟ » وبعد هذا يسأله الملك السينوس مثل هذا السؤال . وحينئذ يأخذ عوليس فى أن يقص كما يقص السائح المصرى الأحوال التى وقعت له .



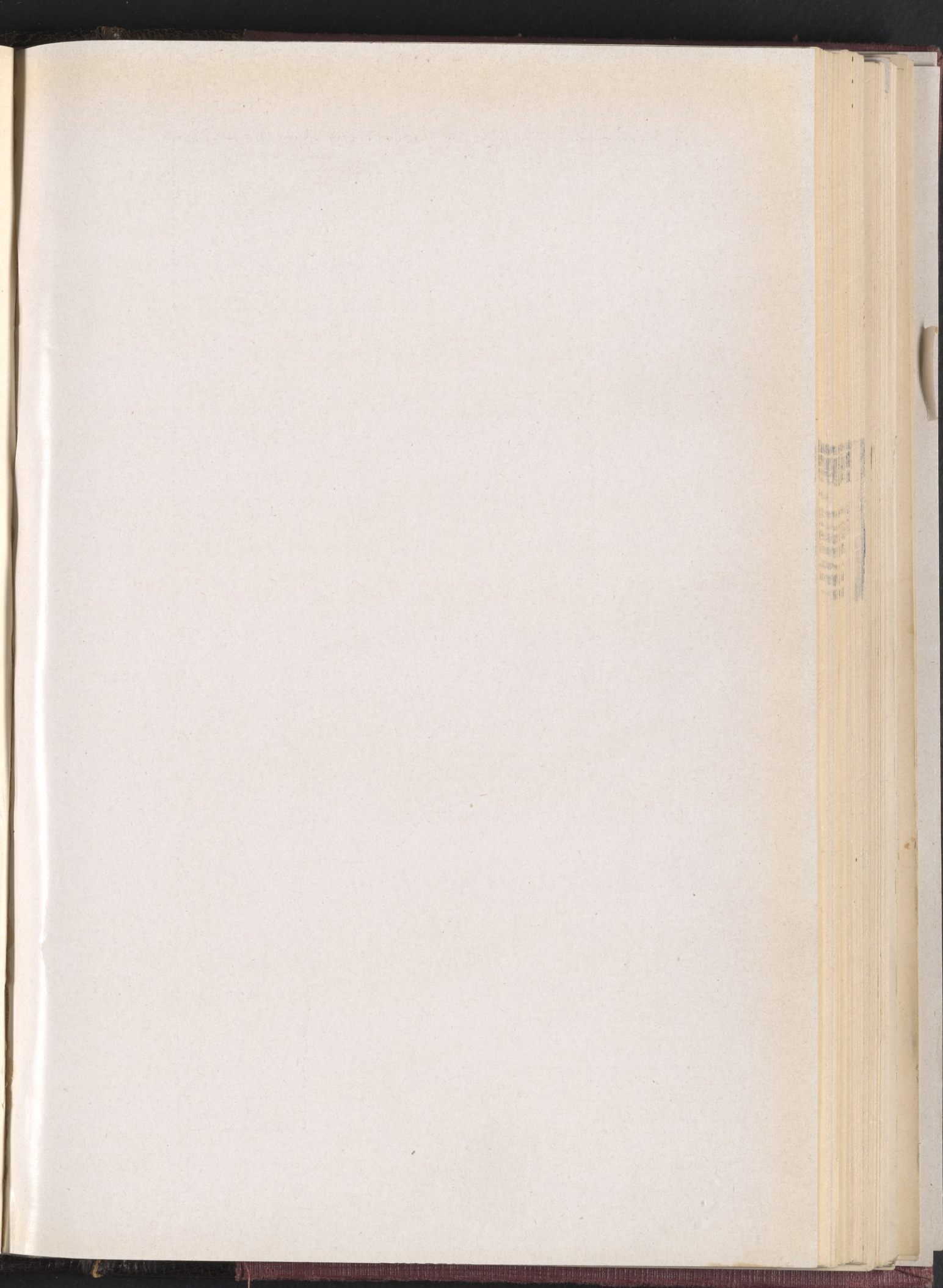
ونعود مرة ثالثة إلى القصة المصرية . إن الثعبان يعطف على السائح ويتفاعل

له فيقول :

« لا تخف شيئا ، لا تخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك . لقد وصلت إلى ، لأنه كتب لك أن تعيش وأن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة ... ستقيم هنا شهرا بعد شهر ، إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم . وستموت فى مدينتك ... ستضم إلى صدرك أولادك ، وستعانق امرأتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من كل شئ . ستصل إلى بلادك وستكون فيها بين إخوانك » .



ملك من ملوك مصر في عصر الإمبراطورية المصرية جالسا على عرشه يستقبل مندوبين من آسيا جاء كل منهم يحمل إليه جزية من بلاده .
ويرى موظف مصري لايس ملايس يرضاه يدخلهم على الملك ويقدمهم له واحدا بعد آخر



فبكلمات مثل هذه الكلمات يستقبل عوليس في فياسى . وذلك أن نوزيكا تقول له :

« إن ذفس هو الذى كتب عليك ما أنت فيه . فيجب أن تتخلله » .

ثم تقول له إن جميع الأغراب والفقراء قرييون من ذفس ، وإن ذفس سيرده إلى بلاده . وحينئذ يتنى عوليس أن يجد امرأته في داره في صحة جيدة وأن يجد أصدقاءه في صحة جيدة أيضا . فتدعوه نوزيكا ويدعوه أبوها السينوس بأن ينعم برؤية امرأته وأولاده وأصدقائه وداره في بلده . وهذا كله شبيه بما فى القصة المصرية ، لا يكاد يختلف عنه إلا فى بعض الألفاظ .



ونعود إلى القصة المصرية مرة رابعة

يملك الفرع السائح المصرى حين يسمع من الشعبان أنه سيعود إلى بلاده ، وسيرى أولاده وامرأته وداره ، فيقول له :

« سأصف أرواحك لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوئا مقدسة وطيبا مما يقدم لكل إله ... وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر كما يفعل الناس لإله » .

فعوليس أيضا يشكر السينوس فيدعوه ليجد لا يفنى بالقرب من ذفس ، ثم يشكر نوزيكا فيؤلى على نفسه أن « يدعو لها كما يدعو الناس لآلهة » .



ونعود مرة خامسة

يجيب الشعبان فيقول للسائح المصرى :

« إننى ملك بلاد بونت^(١) ... فبعد أن تفارق هذا المكان لن ترى هذه الجزيرة أبدا لأنها ستتحول

إلى أمواج » .

(١) بلاد بونت هى البلاد التى كان المصريون يجلبون منها الطيب والنباتات ذات الرائحة الزكية .
وبعض الباحثين يرجح أن المقصود بها بلاد الصومال .

ثم يتحدث السائح عن الجزيرة فيقول إنها « أرض بعيدة لم يعرفها الناس » .

كذلك أهل فياسى يقيمون فى جزيرة شيرى « بعيدا من الناس المتمدنين » .

وتتحدث نوزيكا عن هذه الجزيرة فتقول : « إنها فى أطراف الأرض ، فى وسط البحر

المضطرب ، بعيدة من الناس » .

والثعبان فى القصة المصرية يقول إنه « ملك بلاد بونت » ، أى أنه وهو فى الجزيرة التى يحدث فيها السائح المصرى لا يقيم فى بلاده التى هو ملك عليها بل يقيم فى جزيرة بعيدة منها . وأهل فياسى فى القصة الهوميرية ليسوا من أهل جزيرة شيرى التى يستقبلون فيها عوليس بل هم من أهل هيبيريا .

والجزيرة فى القصة المصرية تختفى بين الأمواج بعد سفر السائح المصرى منها ، وجزيرة شيرى فى القصة الهوميرية نصيبها التدمير بعد سفر عوليس منها ، لأن الإله بوزيدون ينتقم من الفياسيين فيغطيهم ويغضى أرضهم بصخرة .

وملك الجزيرة ، فى القصة المصرية ، أى الثعبان ، ينبئ السائح بمصير الجزيرة بعد سفره منها . وملك الجزيرة أيضا فى القصة الهوميرية ، وهو ألسينوس ، يخبر عوليس بمصير الجزيرة بعد سفره منها .



ومرة سادسة

حينما يسافر السائح المصرى من الجزيرة التى هو فيها يودعه الثعبان بهذه التمنيات :

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك . ولكن اسمك مذكورا

بالخير فى مدينتك » .

ثم يعطيه هدايا . وبعد ذلك يتجه السائح إلى الساحل ، ويشكر الثعبان ،

ثم يركب السفينة .

وعوليس حينما يسافر، يتمنى له الملك السينوس الصحة ويعطيه هو والفياسيون هدايا، وحينئذ يشكرهم عوليس ويحييهم .



ومرة سابعة

تصل السفينة بالسائح المصرى إلى وطنه فتجرح ويرتطم مقدمها بالساحل .
كذلك سفينة الفياسيين تجرح وترتطم حتى يكون نصفها على الساحل ونصفها الآخر في الماء .

ويدخل السائح المصرى على فرعون في شكل رجل « رأى أشياء كثيرة ومرت به محن كثيرة » .

وعوليس يقول :

« أنا الذى مرت به كثير من المحن فى محاربته للرجال والأمواج . أنا الذى رأى المدن وعرف طبائع كثير من الناس وتألم فى قلبه من آلام عدة عاناها فى البحر » .

وفرعون يقول للسائح المصرى :

« كن خادما بصيرا فطنا » .

وعوليس يقول مثل هذه الكلمة أيضا .



ونقف عند هذا الحد من الموازنة . ونحسب أن فى ما تقدم كفاية للقول بأن فى أوديسة هو ميراثا واسعا من القصة المصرية التى اشتملت عليها ورقة البردى رقم ١١٥ فى مكتبة بتروغراد . بل نحسب أن هنا لك أكثر من الأثر الواسع يراه كل من ينظر فى فكرة القصتين وفى صياغتهما . ولسنا نحكم بهذا وحدنا بل يحكم به معنا العالمان جولنيشيف ومورى ، وإليك ما كتبه هذا الأخير فى صفحة ٢٤٩ من كتابه الذى مر ذكره بعد أن عرض وجوه الموازنة بأوسع مما عرضناها هنا . قال :

« من كل هذه الموازنات التي أبرزها جولنيشيف بدقة تامة ، يتضح لي ، كما اتضح له ، أن « هناك في الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة عوليس عند الفياسين ^(١) » وليس ذلك مقتصرًا على الجزئيات التي يمكن أن توجد على انفراد في كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الغرق . بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة في القصتين واحدة » .

وهذه الورقة التي ترجمها جولنيشيف هي واحدة من عشرات من أوراق البردى التي بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر بالخير تارة وبالشقاء تارة فأمكن أن تنجو من التدمير . فانظر أي أثر كنا نجده لمصر في الآداب والعلوم اليونانية لو أن آداب مصر وعلومها بقيت ، ولو أن المكتاب التي ثبت أن مصر كانت تعمر بها منذ الأسرة السادسة (أي منذ خمسة آلاف سنة) بقيت ولم تعد عليها عوادي الليل والنهب والحريق .



وننظر الآن في اقتباس آخر اقتبس هوميرو من أسطورة إيزيس وأوزيريس المصرية .

نتلخص الأسطورة المصرية في أن سيت قتل أخاه أوزيريس وألقي في النيل بالصندوق التي يحتوي جثته ، فعام الصندوق من النيل إلى البحر الأبيض المتوسط ثم وصل إلى ثغر ببلوس (جبيل) على سواحل سوريا . ووقفت به الأمواج عند جذع شجرة أثل ، فنمت هذه الشجرة حتى طوت الصندوق في جوفها . وراها بعد ذلك ملك المدينة فأعجبته ، وأمر فترعت من الأرض وأقيم جذعها عمودا لقصره . وعلمت إيزيس بذلك كله فجاءت إلى ببلوس وجلست بالقرب من ينبوع ماء تبكي ، ثم صرت بها جوارهن في خدمة الملكة ، فحيتن برفق ، وعرضت عليهن أن تضفر شعورهن وأن تمسح أجسامهن بمثل الرائحة الزكية التي تفوح من جسمها .

(١) هذه الجملة التي تبدى بكلمة « هناك » وتنتهي بكلمة « الفياسين » وضعت بن أفواس للدلالة

على أنها مقتبسة بنصها مما كتبه جولنيشيف .

فلما فعلت وعاد الجوارى سألتهن الملكة فأنبأها بنبا المرأة التي ضعفرت شعورهن وطيبتهن ، فاستقدمتها الملكة وجعلتها مربية لطفلها .

وهنا نعرب ما كتبه بلوطرك تكلمة لسياق الأسطورة ، قال ^(١) :

« وكانت إيزيس كلها أرادت إرضاع الطفل وضعت له أصبعه في فمه . فاذا جاء الليل أشعلت النار فيما يحتويه جسمه من عناصر الفناء . ويقال إنها كانت في بعض الأحيان تتشكل في شكل قطاة وتطير حول العمود الذي فيه صندوق أوزيريس صائحة ناشجة . فراقبتها الملكة ذات ليلة . فلما رأتها تلقى بطفلها في النار ، صاحت وانتشلتها ، فخرمته بذلك من نعمة الخلود . وحينئذ كشفت إيزيس عن نفسها في صورة إلهة وطلبت أن تأخذ العمود . ثم نزعت به غير عناء ، وقطعته حتى ظهرت قطعة الخشب التي فيها الصندوق ، فغطتها بنسيج رقيق من الكتان ، وطيبتها برائحة زكية ... الخ » .

فهذا الجانب من الأسطورة المصرية أخذه هوميرون نقله في شعره إلى الأسطورة اليونانية التي وضعت لإلهة يونانية تسمى « ديمتر » ^(٢) فقال إن هذه الإلهة لما علمت بخطف بنتها كورى « حز الألم في قلبها ، ومزقت يديها الشرائط التي تمسك شعرها ، وألقت على نفسها رداء أسود » .

والأسطورة المصرية تقول إن إيزيس لما علمت بمقتل أوزيريس « قطعت خصلة من شعرها ولبست ثوب حداد » وجعلت « تجول في كل مكان فريسة لأعظم ما يمكن من الحزن » ^(٣) .

(١) الفقرة ١٦ والصفحة ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) ترجمة (Mario Meunier)

الطبعة السابعة .

(٢) (Déméter) هي من أكبر الآلهة في اليونان القديمة . وكانت تمثل الأرض ، والقوى الطبيعية ، وتعتبر إلهة للزراعة ، وحامية للزواج . وتلخص أسطورتها أن لها بنتا تسمى كورى خطفها هاديس فجعلت تجوب الأرض بحثا عنها ، فلما وصلت إلى أرض في اليونان تسمى ايلوزيس رحب بها ملكها فعملته الزراعة ، وصارت هذه الأرض مركزا لعبادتها .

(٣) الفقرة ٦٠ من كتاب (Isis et Osiris) الذي مر ذكره .

(٤) ص ٦٠ من المصدر السابق .

فقد يقال إن شبهة الاقتباس في هذا التشابه ضعيفة لأنه من الطبيعي أن تحزن ديميتير وتلبس لباس الحداد حينما تعلم بخطف بنتها كما حزنت إيزيس ولبست لباس الحداد حينما علمت بقتل زوجها . وقد يكون من الطبيعي أيضا أن تمزق إحداها شرائط شعرها كما قطعت الأخرى خصلة من شعرها . ولكن انظر ماذا قال هومير بعد ذلك .

قال إن ديميتير تعبت في البحث عن بنتها ، فوقفت في قصر ملك يسمى كليوس لتستريح ، فاستدعتها زوجة هذا الملك وعهدت إليها أن تقوم على تربية طفلها ، فما هذا الطفل بين يدي مربيته هذه الجديدة « كأنه إله من غير أن يرضع لبنا أو يأكل خبزا » وكانت ديميتير تدهن جسمه بالعنبر وتمسكه بين يديها وتنفخ عليها أنفاسها برفق ، فاذا جن الليل خبأته في النار وهو كالخدوة . وراقبتها أم الطفل فرأتها ذات مرة وهي تضعه في النار فذعرت وانتزعته . وبذلك حرمة ، على غير علم منها ، نعمة الخلود ، لأن النار التي كان يوضع فيها كل ليلة كانت هي التي تطهره من عناصر الفناء وتجعله بعد ذلك خالداً^(١) .

فمن هو الذي يقرأ هذا الذي كتبه هومير في أسطورة ديميتير اليونانية ولا يرى فيه أثر الاقتباس من أسطورة إيزيس المصرية . فديميتير دعيت لتكون مربية لطفل الملكة ، كما دعيت إيزيس لتكون مربية لطفل الملكة . والطفل في يد ديميتير لا يتغذى باللبن ولا بالخبز ، كالطفل في يد إيزيس كلما أرادت إرضاعه وضعت له إصبعه في فمه . وديميتير تدهن للطفل جسمه بالعنبر ، كما دهنت إيزيس جوارى الملكة وشعورهن بالطيب . وأهم من هذا كله وأقوى أن ديميتير تضع الطفل في النار بقصد أن تحرق ما في جسمه من عناصر الفناء فيصير خالداً ، وإيزيس تفعل في الطفل ذلك بعينه وللقصد عينه . وأم الطفل في الأسطورتين تراقب المربية فتراها وهي تضعه في النار فتترجج وتنزع ، فتحرمه بذلك على غير علم منها نعمة الخلود .

(١) راجع في ذلك تعليق ماريو موني (Mario Meunier) على الفقرة ١٦ ص ٦٥

من كتاب (Isis et Osiris) .

لا جرم أن القصتين متشابهتان في هذا الجانب منهما ، بحيث لا يقبل العقل إلا أن تكون واحدة منهما قد اقتبست من الأخرى ، ولما كانت الأسطورة المصرية أقدم من شعر هوميير بقرون وقرون ، فلا نزاع في أن هوميير هو الذي اقتبس .



وقد تظن أن هذا الذي عرضناه عليك هنا هو كل ما وجده العلماء من أثر مصر في شعر هوميير ، فكلا ، واعلم إذن أن موري وجد هذا الأثر أيضا في إلياذته^(١) فعقد له فصلا خاصا من صفحة ٢٥١ إلى صفحة ٢٧٣ من كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) أثبت فيه أن كثيرا مما في الإلياذة مقتبس من قصص مصرية أو رسوم مصرية ، بكل ما فيها من الحوادث والتفصيلات والأوصاف ، كما رأينا في قصة عوليس . واعلم أيضا أن عالما آخر يسمى هليبيج (Helbig) بحث هذا البحث نفسه وانتهى إلى هذه النتيجة نفسها . ومن أراد فليرجع إليهما .



ولمصر أثر آخر في المدنية اليونانية أثبتته البحث في السنين الأخيرة أيضا وهو أوضح وأعم وأعمق بكثير مما وجدناه في شعر هوميير . وهذا الأثر الذي نريده هو ما اقتبسته ، أو قل ما نقلته الأساطير والديانات اليونانية من الأساطير والديانات المصرية . وقد أشرنا إلى هذا من قبل فلا يفوتنا هنا أن عالما من عشاق المدنية اليونانية هو پول فوكار (Paul Foucart)^(٢) أثبت أن ما يعرف في الديانات اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » (Eleusis)^(٣) ليس سوى عبادة إيزيس المصرية لابسة

(١) الإلياذة هي مجموعة من الشعر قص فيها هوميير حوادث حرب اليونانيين لمدينة طروادة . وهي والأوديسة تعتبران أرق الشعر اليوناني القديم .

(٢) يصف قاموس لا روس العالم فوكار بأنه عالم فرنسي من المحبين للندنية اليونانية والمشتغلين بالآثار

القديمة وقد ولد في باريس في سنة ١٨٣٦

(٣) هي عبادة كان طلابها يتلقونها في معبد بالقرب من أثينا . وكانت لها مواسم تحتفل بها فيها

اليونان كلها .

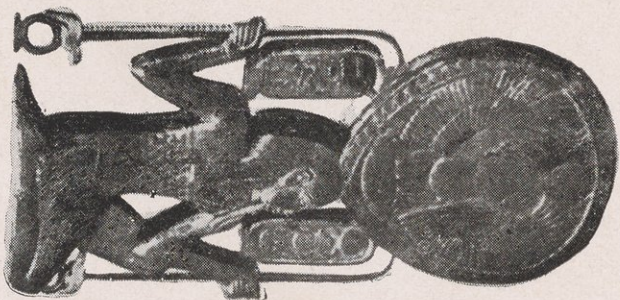
ثوبا يونانيا . وقد أقره على ذلك وأيده فيه ما سيرو في بحث عقده في كتابه
(Causeries d'Egypte) في الصفحات من ٥٩ إلى ٦٩

ولا يفوتنا أيضا أن هذين العالمين أثبتا أن الإله اليوناني ديونيسوز (Dionysos)
ليس سوى الإله المصرى أوزيريس لا بسا ثوبا يونانيا .

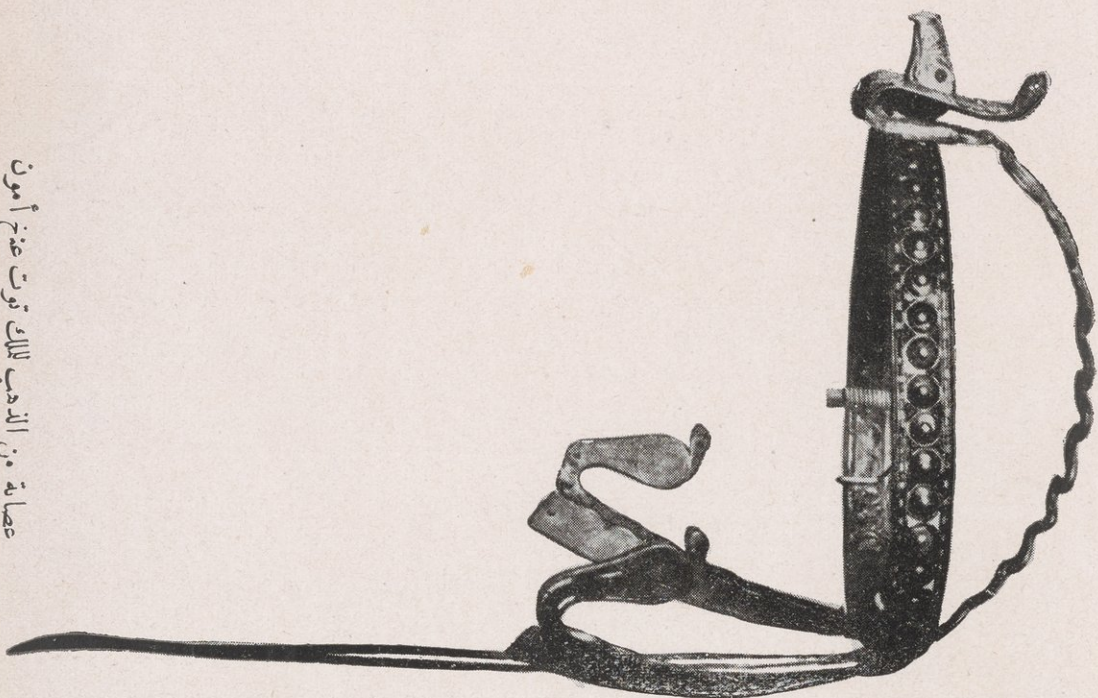


فأثر مصر في المدنية اليونانية يتضح إذن على ضوء البحث العلمى شاملا كل
مناحيها . وهو لم يكن معروفا إلى سنين ولكنه الآن يبدو كلما ترجم العلماء أوراق
بردى مصرية ، وكلما تعمقوا في موازنة آثار مصر بآثار اليونان . ولهذا أخذ
يتزعزع الاعتقاد القديم القائل بأن المدنية اليونانية أول عهد الإنسان بالتفكير
العلمى وأن المدن التى سبقتها لم تكن سوى فوضى فكرية لا تستحق أن يحسب
لها حساب . ونقول « أخذ يتزعزع » ولا نقول انهدم ، لأنه لا يزال قائما ولا يزال
قويا ، ولكن التصدع أخذ يدب فيه . ومن أعجب الأشياء أن عشاق المدنية
اليونانية القديمة هم الذين يخرج منهم أمثال فيكتور بيرار وفوكار فيظهرون ما فى ذلك
الاعتقاد من الزيف ويشهدون بالفضل السابغ لمصر على المدنية اليونانية .

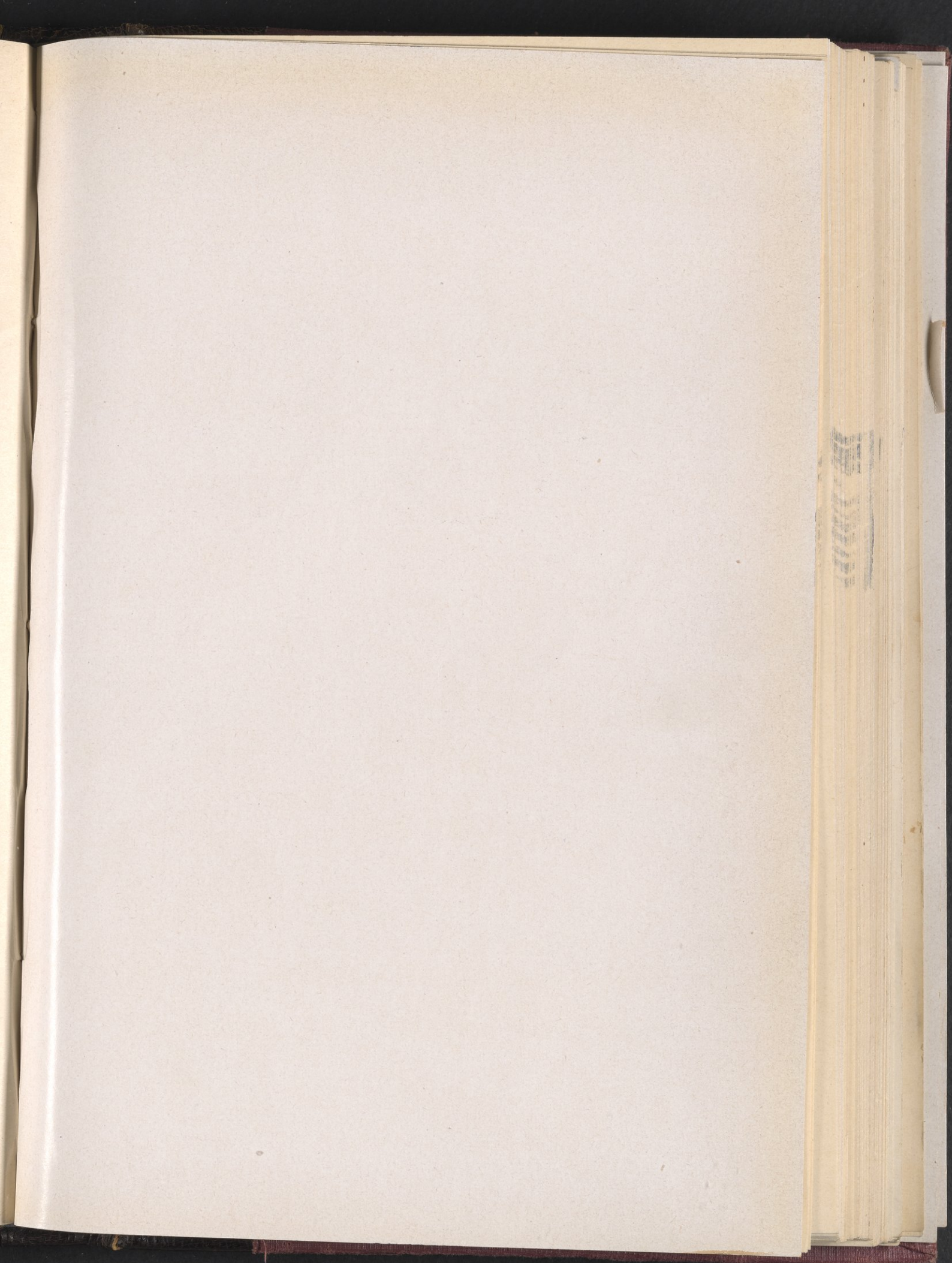
وليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، ونحن نعرف كما قلنا أن كثيرا من
علماء اليونان تعلموا فى مصر ، وأن اليونانيين اختلطوا فى مستهل مدنيتهن بالمصريين
حتى كانت لهم فى مصر المدن اليونانية وكان الجيش المصرى بعضه مصريا وبعضه
يونانيا ماجورا . ليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، وها هو ذا البحث
العلمى يكشفه الآن يوما فيوما ، أفلا يكون مما يلفت النظر بعد ذلك أن يقرأ
الانسان العلوم والآداب اليونانية فلا يجد فيها صدى لعلوم وآداب مصرية ، ولا ذكرا
لعلماء وكتاب مصريين ... !!



عليه من الذهب تملوها مرآة
(من خلفات الملك توت عنخ آمون)



صباية من الذهب لملك توت عنخ آمون



قصّة الغريق

تیمور غازی

1000

بعد أن أشرنا في البحث السابق إلى « قصة الغريق » المصرية وما اقتبسها هوميروس منها ، يحسن أن ننشر هنا ترجمة عربية لهذه القصة .

كان الذى عثر على هذه القصة هو الأستاذ جولنيشيف^(١) المصرولوجى الروسى كما تقدم . وقد عثر عليها فى محفوظات الدير الامبراطورى فى بتروغراد فى سنة ١٨٨٠ . ولم يعرف أحد إلى الآن كيف وصلت إلى هذا الدير ، ولكنها وجدت فى محفوظاته فى ملف من البردى لم يكن قد فتح ، فلما فتحه جولنيشيف وجده مكتوبا بالخط الديموطيقى المصرى فترجمه إلى اللغة الفرنسية وأذاع خبره فى مؤتمر عقد للمستشرقين فى برلين سنة ١٨٨١ ، ثم طبع الترجمة ونشرها من غير أن ينشر النص الديموطيقى . وفى سنة ١٨٩١ عاد فترجمه مرة ثانية ، إلى اللغة الفرنسية أيضا ، ولكنه فى هذه المرة نشر الترجمة الجديدة ونشر معها النص الديموطيقى .

وهذه القصة هى إحدى القصص القليلة التى وجدت سليمة وكاملة . ويرى العلماء فى اللغة المصرية القديمة أنها وضعت فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أخذ مورى بالترجمة الثانية التى وضعها جولنيشيف . وكان ماسبيرو قد أخذ بها هو أيضا فنقلها فى الطبعتين الأوليين من كتابه "القصص الشعبية لمصر القديمة" — (Les Contes Populaires de l'Anc. Eg.) — ولكنه لما طبع الطبعة الثالثة من كتابه هذا ، كان قد قرأ النص الديموطيقى الذى نشره جولنيشيف فوضع ترجمة نشرها فيه . وهى لا تختلف عن ترجمة جولنيشيف إلا فى مواضع قليلة وألفاظ قليلة . وهذه هى القصة .

(١) (M. Woldemar Golénicheff) .



قال الخادم الماهر :

ليطب قلبك يا رئيسي ، فقد وصلنا إلى الوطن ، وأخذ الرجال المطرقة ، ودقوا
الوتد ، وجعلوا مؤخر السفينة حيال الشاطئ ، وهتفوا ، وصلوا للآلهة ، وأخذوا يتعاقنون .
وقد عاد بحارتنا في صحة جيدة ، ولم ينقص منا جندي واحد .

لقد وصلنا في رختنا إلى آخر بلاد واوات ^(١) ومررنا بسانمويت ^(٢) وعدنا الآن
في سلام ، ووصلنا إلى وطننا .

ألق لي سمعك يا رئيسي ، فلست رجل حيلة . اغسل جسمك ، وصب الماء على
أصابعك ، وصل ، ثم أفض بما في قلبك للملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم ،
فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون كلامه قاضيا عليه بأن يغطي وجهه ^(٣) .
افعل ما يرشدك إليه قلبك ، وليكن ما تقوله أداة سلام لك .

سأقص عليك بالحق ما وقع لي أنا نفسي . كنت قاصدا إلى مناجم الملك
فركبت البحر في سفينة طوطا مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا ومعى ^(٤)
مائة وخمسون من نخبة البحارة في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ،
وعرفوا الأرض ، وكان في قلوبهم من البأس أكثر مما في قلوب الأسود . ثم كانوا

(١) يقول ماسبيرو إن بلاد واوات هي التي كانت واقعة فيما وراء الشلال الثاني من بلاد النوبة .

(٢) سانمويت اسم يطلق على جزيرة في النيل تسمى الآن بيجه ، وهي واقعة أمام جزيرة فيله عند

الشلال الأول . (٣) كانت العادة جارية بتغطية وجه المجرم المحكوم عليه بالعقاب ، فالكاظم يريد

أن يقول إن كلام الرجل قد يجعله من المجرمين الذين يقضى عليهم بتغطية وجوههم .

(٤) إن كان المقصود بالذراع هنا الذراع الملكي فطوله ٥٢ سنتيمترا ، ويكون طول السفينة حوالى

٧٨ مترا وعرضها ٢١ مترا . ويرى ماسبيرو أن هذين المقياسين مبالغ فيهما لأن السفن التي أرسلتها الملكة

حتشبسوت إلى بلاد بونت لم يكن طول الواحدة منها يتجاوز ٢٢ مترا ، ولم يكن عدد الرجال في كل واحدة

منها يزيد على ٥٠ رجلا . ويظهر أن هذه المبالغة في حجم السفينة وفي عدد رجالها مقصودة لأن الأمر

أمر قصة خرافية يجب أن يصاحبها التهويل .

إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالأعصار قبل ثورانه^(١) . وبينما نحن في البحر هبت علينا العاصفة فجأة، وكنا قريين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها، وأثارت أمواجاً كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة مني قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا في السفينة ولم ينج منهم أحد . وقذفت بي موجة إلى جزيرة^(٢) ، فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لي فيها غير قلبي . ونمت في غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بي . ثم مددت ساقى أبحت عن شىء أضعه في فمى فوجدت تيناً، وعنباً، وكل أنواع الكراث الجميلة ، وبذوراً، وشمماً هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا^(٣) . ووجدت أسماكاً وطيوراً . وبالأجمال لم يكن شىء إلا وهو في ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمثلان به ، ثم حفرت حفرة وأشعلت ناراً ، وجعلت ألقى في النار مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة .

ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دوياء كدوى الرعد ، فكشفت عن وجهى ، فرأيت شعباناً هائلاً يتقدم نحوى^(٤) ، طوله ثلاثون ذراعاً ، ولحيته يزيد طولها على

(١) في الترجمة التى وضعها ماسبيرو : « وكان هؤلاء البحارة قد تنبأوا بالأعاصفة ولا نكبة » بدل « ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالأعصار قبل ثورانه » .

(٢) في ترجمة ماسبيرو : « ولكن العاصفة هبت ونحن في البحر ، وقبل أن ندرك الأرض . ثم اشتدت الريح فأثارت موجة ارتفعت إلى ثمانية أذرع ، فنزعت لوحاً من الخشب ، وهلك كل الذين كانوا في السفينة . أما أنا فاني وصلت إلى جزيرة بعد أن دفعتنى موجة إليها » . (٣) كلمات « هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا » ليست موجودة في ترجمة ماسبيرو ، وإنما الموجود في مكانها « شمماً من كل نوع » .

(٤) يلاحظ هنا أن هذا الشعبان لم يظهر إلا بعد أن أحرق السائح القربان في النار ، مع أن السائح كان قد مكث قبل ذلك ثلاثة أيام . فكأنما إحراق القربان هو الذى دعا الشعبان إلى الظهور ، مثل ذلك كمثّل الأعمال السحرية التى لا بد فيها من إحراق البخور لأجل الاتصال بالقوى الخفية . وفي ترجمة ماسبيرو :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دوياء ، فقلت في نفسى « هو ذا دوى موجة من أمواج البحر » ثم خفقت الأشجار ، وارتجت الأرض ، فكشفت عن وجهى فرأيت شعباناً يتقدم نحوى » .

وقول السائح « كشففت عن وجهى » معناه أنه لم يدع شيئاً يحجب نظره إلى الأمام . أولعل السائح كان قد غطى وجهه قبل ذلك ، ولكن ليس في سياق القصة ما يدل على أنه كان قد فعل .

ذراعين^(١)، وجسمه مرصع بالذهب، ولونه كلون اللازورد. ثم وقف هذا الشعبان أمامي، وفتح فمه في وجهي، بينما كنت قد انطرحت على بطني، ثم تكلم فقال:

« من أتى بك؟ من أتى بك؟ أيها الصغير من أتى بك؟ إن أنت تأخرت عن أن تقول لي من أتى بك إلى هذه الجزيرة فسأعرفك من أنت^(٢). فإما أن القيك في النار فتختفي فيها، أو تقول لي ما لم أسمعته ولم أعرفه قبل رؤيتك^(٣). »

ثم حملني في فمه، ونقلني إلى المكان الذي يقيم فيه، من غير أن يصيبني أذى. وكذلك انتقلت سليما معافى لم ينقص مني شيء.

ثم قال لي مرة أخرى:

« من أتى بك؟ من أتى بك؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هذه الجزيرة التي تغوص شواطئها في الأمواج؟ »

وكنيت إذ ذاك منبسطا على بطني ويدي مرسلتان أمامه فأجبت قائلا:

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا، ومعي فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة في مصر. وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض، وكان في قلوبهم من البأس أكثر مما في قلوب الأسود. ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالإعصار قبل ثورانه. وكان كل واحد منهم أقوى من أخيه قلبا وذراعا. »

(١) كان من المألوف عند المصريين أن يجعلوا للآلهة لحى، وأن يرسموا الملوك بلحى مستعارة متى أرادوا تصويرهم في صورة الآلهة. فاللفهوم من قول السائح هنا إن الشعبان ذو لحية يزيد طولها على ذراعين أن هذا الشعبان إله.

(٢) في ترجمة ماسبيرو توجد كلمة « التابع » بدل كلمة « الصغير ».

(٣) علق ماسبيرو على هذه الجملة فقال إنها تتردد كثيرا في النصوص المصرية القديمة، وإن المراد بها « سأعرفك عجرك عن مقاومة قدرتي ». ونقول نحن إن هذا التعبير لا يزال مستعملا في مصر بهذا المعنى إلى اليوم.

ولم يكن بينهم جبان . وبينما نحن في البحر هبت علينا العاصفة بخفة ، وكنا قريين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة مني قطعة من الخشب فالقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا في السفينة ولم ينج منهم أحد . وقد انقضت على ثلاثة أيام ، والآن هاءنذا قريب منك ، وأنا الذى دفعتنى موجة إلى هذه الجزيرة .

فقال الثعبان :

« لا تخف شيئا ، لا تخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك . لقد وصلت إلى لأنه كتب لك أن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة ^(١) التى فيها كل شىء ، والتى هى مملوءة بالأشياء الطيبة . ستقيم هنا شهرا بعد شهر إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم ، وستموت فى مدينتك . » إن مما يوجب ارتياحى أن أطلع رجلا عانى الآلام مثلك على ما هنا . فسأخبرك إذن بما فى هذه الجزيرة لا أنقص منه ولا أزيد .

« إننى أعيش فى هذه الجزيرة بين أخوتى وأبنائى . وعددنا خمسة وسبعون ثعبانا . وعدا ذلك توجد فتاة جاءتني من طريق السحر ، وذلك أن نجمة سقطت ، نخرج منها الذين كانوا فى نارها ، وظهرت الفتاة من غير أن أكون مع الكائنات التى خرجت من النار أو بينها ، وإلا فلو أننى كنت مع هذه الكائنات أو بينها لمت . وقد وجدت الفتاة بعد ذلك ميتة وحدها ^(٢) .

(١) فى ترجمة ماسبيرو أن هذه الجزيرة تسمى « جزيرة الأرواح السعيدة » .

(٢) يعلق ماسبيرو على حكاية هذه النجمة فى رجح أن المقصود بها شهاب من الشهب التى تظهر فى الجق أو صاعقة . ويقول إن هذه هى الإشارة الوحيدة التى وجدت فى النصوص القديمة لمثل هذا المعنى . ويقول ماسبيرو أيضا إن النص الديموطيق مبهم فى هذه النقطة وإن جولنيشيف ترجمه على أن الفتاة ميتة لأن نار الشهاب أو الصاعقة أحرقتها . ولكنه هو — أى ماسبيرو — يرى أن النص معناه أن الفتاة حية وأن الثعبان لا يعرف كيف ولدت ، وقد رأى هذا الثعبان الشهاب حينما سقط ثم رأى النار التى اضطربت بعد سقوطه فلم يقترب منها بل انتظر حتى نهدت ثم اقترب فوجد الفتاة بين الجثث من غير أن يعرف كيف جاءت .

«وبعد، فأقول لك إنك إن كنت شجاعا وكان قلبك قويا فستضم إلى صدرك أولادك، وستعانق امرأتك، وسترى دارك، وذلك خير من كل شيء. ستصل إلى بلادك، وستكون فيها بين إخوانك».

وحينئذ انبطحت أرضا على بطنى وقلت :

« دونك الآن ما أريد أن أفضى به إليك . سأصف أرواحك لفرعون^(١) ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدسة، وطيبا، ودهانا، وصندوقا لذكائك المقدسة، وبخورا للمعابد مما يعجب كل إله . وسأقص على فرعون ما أتيح لى أن أراه هنا، وسيعبدك الناس فى مدينتك بحضر أعيان الأرض جميعا^(٢) . وسأذبح لك ثيرانا ثم أحرقها فى النار . وسأخنى لك طيوراً^(٣) . وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر، كما يفعل الناس لإله محب لهم فى بلاد بعيدة لا يعرفونها » .

فضحك منى ومن كلامى، ثم قال لى :

« ليس عندك مـرٌ كثير^(٤)، وكل ما لديك بخور . أما أنا فانى ملك بلاد بونت، وعندى مر . والشئ القليل وحده فى هذه الجزيرة هو الزيت المقدس . على أنك متى فارقت هذه الجزيرة فلن تراها لأنها ستتحول إلى أمواج » .

(١) كانت الأساطير تقول إن لكل إله سبعة أرواح .

(٢) المراد بالأرض جميعا مصر . ويلوح أن المراد بقوله « وسيعبدك الناس فى مدينتك » أن السائح يعد الثعبان بأن تكون له عبادة فى مصر ومدينة يعبد فيها كما كان رع يعبد فى هليو بوليس وبتاح فى ممفيس وتوت فى الأشمونين وأمون فى طيبة ... الخ .

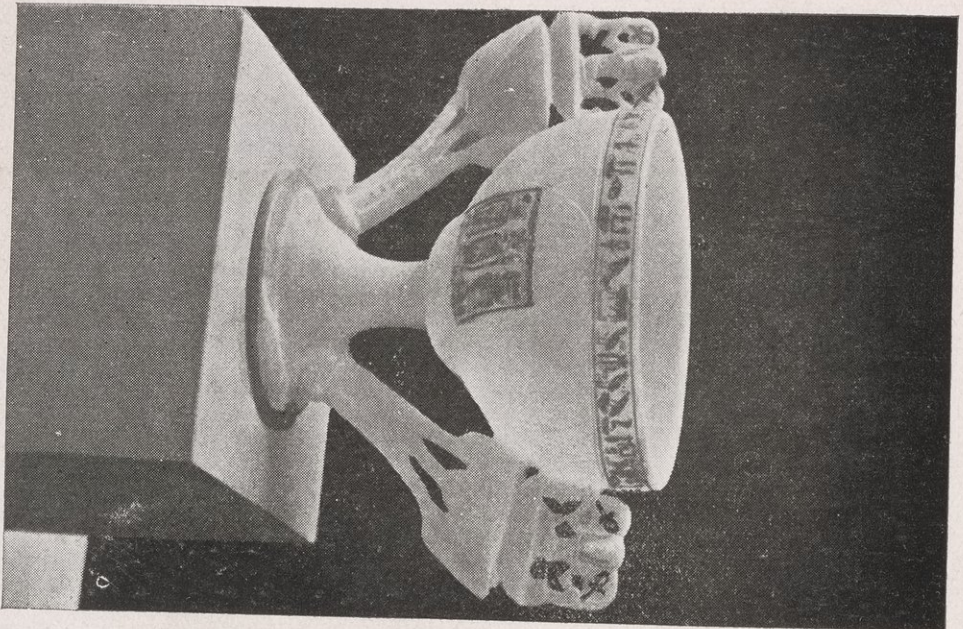
(٣) المراد بقوله « وسأخنى لك طيوراً » أنه سيقدم له قرايين من الطيور .

(٤) معروف أن نبات المر إذا أحرق نشر رائحة زكية . وقد كان المصريون يجلبونه من بلاد بونت (التى يقال إنها بلاد الصومال كما يقال إنها جنوب بلاد العرب) ليقدّموا منه هدايا للآلهة .

(٥) ترجم ماسبيرو « الزيت المقدس » على أنه « طيب التهليل » . وقال إنه يسمى « هاكاتو » ولم يعرف العلماء شيئا عن تركيبه ولكنهم يعرفون أنه واحد من زيوت سبعة كانت تقدم للآلهة ، وفى الحفلات الجنائزية .



إناء من المرم
(من خلفات توت عنخ آمون)



إناء من الرخام الأبيض صنع في عهد الأسرة الثامنة عشرة
وهو موجود بالمتحف المصري بين خلفات توت عنخ آمون

1000

فلما جاءت السفينة، كما كان الثعبان قد أخبرني، صعدت فوق شجرة عالية وجعلت أرقب الذين فيها . ثم ذهبت إلى الثعبان وأبلغته الخبر فوجدته يعرفه، وحينئذ قال لي :

« صحة جيدة، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك . وليكن اسمك مذكورا بالخير في مدينتك . تلك هي أمانتي لك » .

فانبطحت على بطني أمامه، وأرسلت يدي، فأعطاني من الهدايا مرا، وزيتا مقدسا، ودهانا، وصندوقا، ولفللا، ومسحوقا، وكحلا، وسروا، ونجورا، وذيول حيتان، وأسنان فيلة، وكلابا سلوقية، وقرودا، وغير ذلك من كل ما هو ثمين^(١) . فحملت هذه الهدايا إلى السفينة، ثم انبطحت على بطني وعبدت الثعبان، فقال لي :

« ستصل إلى بلدك بعد شهرين ، وستضم أولادك إلى صدرك، وبعد ذلك تمضي إلى قبرك لتجدد شبابك » .

فسرت إلى الشاطئ حيث السفينة ، ودعوت الجنود الذين فيها، وصليت على الشاطئ لسيد الجزيرة وللذين يقيمون فيها .

ولما عدنا إلى مدينة الملك جنحت السفينة وارتطم مقدمها بالساحل . ووصلنا إلى قصر الملك في الشهر الثاني، كما كان الثعبان قد تنبأ . فمثلت أمام الملك وقدمت له الهدايا التي جلبتها من الجزيرة ، فشكرني أمام أعيان الأرض جميعا . ثم أدخلت خدمة الملك وصرت متصلا بكبار حاشيته .

(١) علق ماسبيرو على هذه الأنواع من الهدايا فقال إنها هي بعينها التي جلبتها من بلاد بونت الحملة البحرية التي أرسلتها بعد ذلك الملكة حتشبسوت ، بحيث لا يوجد بين هذه وتلك إلا اختلاف قليل .

(٢) الظاهر أن قوله « تمضي إلى قبرك لتجدد شبابك » محمول على أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموت ليس فناء للإنسان وإنما هو انتقال من حياة إلى أخرى . وكانوا يعتقدون أيضا أن الرجل الصالح يبعث في الحياة الأخرى شابا . وقد تقدم هذا كله في البحث الخاص بعقيدة الحساب بعد الموت .

والآن نخفض نظرك لى ، فقد عدت إلى أرض مصر ، بعد أن رأيت أشياء كثيرة ، ومرت بى محن كثيرة . اصغ إلى فان الإصغاء نافع . لقد قال لى فرعون « كن خادما بصيرا فطنا يا صديق » ، فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبجه فيه^(١) .

اتتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « أمونى — أما ناو » ذو الأصابع الماهرة ، له الحياة والصحة والقوة .



هذه هى قصة الغريق ، ويفهم من مقدمتها أنها رفعت من مرؤوس إلى رئيسه . ويقول الكاتب « لطب قلبك يا رئيسى فقد وصلنا إلى الوطن » ثم يقول « اغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم أفض بما فى قلبك لملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه ، فقد يكون قاضيا عليه بأن يغطى وجهه » . فهل يفهم من ذلك أن الرئيس الذى رفعت إليه القصة كان مع مرؤوسه فى الرحلة التى يثير إليها فى قوله « لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخر بلاد واوات ومررنا بسانمويت وعدنا الآن فى سلام » ؟ أو هذا الرئيس لم يكن فى الرحلة ثم لما عاد المرؤوس وجب أن يقدم إليه تقريراً عما فعله ، كما يقدم الآن كل قائد بحرى تقريراً إلى وزير البحرية عن رحلة أمر بها فأداها وعاد منها ؟

ليس فى القصة جواب على هذا . وكل ما يفهم من المقدمة أن الرئيس الذى قدمت القصة إليه كان عليه أن يقابل الملك ، وأن يتحدث إليه فى أمر قد تكون

(١) علق ماسبيرو على قول الكاتب « فمن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبجه فيه » فقال إن هذه الجملة تقع فى الأذن كما يقع المثل فلعلها كانت مثلاً مصرياً . أما معناها فهو أن الرجل الذى يسقى طيره فى بكور النهار يدل بذلك على أنه لا ينوى أن يذبجه فى هذا النهار نفسه ، واذن يكون للطير الذى سقى أن يطمئن فى نهاره كما يكون لكل رجل ناله خير من سيد قادر أن يطمئن إلى هذا الخير وأن لا يتوقع من ورائه شراً عاجلاً من هذا السيد نفسه .

فيه مؤاخذه له ، ولذلك يوصيه الكاتب بأن يتطهر ويتشجع ويحرص على اجتناب الزلل في الكلام . ويضيف الكاتب إلى ذلك في ختام قصته كلمة يطمئنه بها ، وهي قوله « لقد قال لى فرعون » كن خادما بصيرا فطنا يا صديق . فن هو الذى يسقى الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » .

أما القصة نفسها فهى من القصص الشعبية ، ومن الطبيعى أن تظهر فيها صور من الأساطير والعادات الدينية القديمة ، لأنها بغير ذلك تكون غريبة عن زمانها وبيئتها . ولكن من الخطأ أن يظن أنها وضعت للتعبير عن فكرة دينية معينة .

وقد كانت عامة المصريين تقبل على هذا النوع من القصص ، كما تقبل عليه الان . ولذلك وجد فى قصص عدة ، بعضها يقص سياحات فى سوريا ، وبعضها يقص رحلات فى البحر الأبيض المتوسط ، وبعضها يقص رحلات فى النوبة ، ثم قصتنا هذه تقص رحلة فى البحر الأحمر .

وقبل أن تعرف هذه القصص كان الاعتقاد عاما بأن المصريين القدماء كانوا يكرهون ركوب البحر والخروج من بلادهم ، وكان الكتاب اليونانيون والرومانيون هم الذين أنشأوا هذا الاعتقاد ، لأنهم ادعوا هذه الدعوى ثم غالوا فيها فزعموا أن المصريين كانوا يستأجرون بحارة فيزيقيين لسفهم كلما أرادوا أن تشق سفينة لهم عرض البحر أو أن يقاتلوا أعداء لهم فى البحر . فلما عرفت هذه القصص ، كان فيها وفى النقوش التى وجدت فى المعابد ، تكذيب كاف لتلك الدعوى . إذ السائح الغريق هنا مصرى ، والأبطال فى قصص الرحلات الأخرى مصريون جميعا ، وهم يقصون حوادث لا يختلف اثنان فى أنها مصرية ، بروحها وأساطيرها وما تشتمل عليه من العادات والتقاليد .

(١) منها قصة « سينوهيت » التى وقعت حوادثها فى زمن الأسرة الثانية عشرة .

(٢) منها قصة « أونامونو » ورحلته إلى بيلوس .

(٣) منها قصص مختلفة لأمرأاء ايلفتين ورحلاتهم فى النوبة .

وقد كان عجيبا حقا أن تقع مصر على البحر الأبيض من ناحية والبحر الأحمر من ناحية أخرى، ثم يكره أهلها ركوب الماء . وكان عجيبا أيضا أن تستهدف مصر لغزوات جيرانها الطامعين في خيراتها، في مدى أربعة آلاف سنة أو تزيد، ثم يجهل أهلها بلاد هؤلاء الجيران . نعم كان هذا عجيبا، ولكن الكتاب اليونانيين والرومانيين قالوه، وأكدوه، إلى أن كذبتهم النقوش التي فكت رموزها ثم جاءت القصص فهدمت زعمهم من أساسه ودلت على أن الرحلات في البحار وفي البلاد المجاورة كانت بعض ما شغف به المصريون .



وتنتهى القصة بالعبارة الآتية :

« انتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذي كتبها هو الكاتب « أموني — أماناو » ذو الأصابع الماهرة، له الحياة والصحة والقوة » .

فهل « أموني — أماناو » هذا هو واضع القصة ، أو هو نساخ وجدها مكتوبة فنسخها ؟

إن قوله « كما وجدت مكتوبة » قد يشير إلى أنه ليس سوى نساخ ، ولكن قوله « والذي كتبها هو أموني — أماناو » قد يكون معناه أن هذا الأخير هو الذى وضعها وأن النساخ شخص آخر لم يذكر اسمه .



والقصة ساذجة كما رأيت، ولعلها كانت في لغتها الأصلية تكسب قوة من حسن انتقاء الألفاظ والبراعة في التعبير . ولكن هذه القوة تضيع كلها في الترجمة، وخاصة إذا كان المترجم قصة وضعت منذ أربعة آلاف سنة، لعصر غير عصرنا، وبيئة غير بيئتنا، وتقاليده غير تقاليدنا، وعقلية غير عقليتنا . إذ مما لاشك فيه أن العصر والبيئة والتقاليد والعقلية تضافى على الكتابة قوة خاصة تبقى ببقائها ، فإذا

زالت ، صارت السكابة ، التي كانت تشبه الشجرة الحية المورقة ذات الزهر اليانع ، كأنها خشب جاف لا ورق فيه ولا زهر ولا حياة .

وللكاتب مع ذلك عذر في سذاجة قصته ، هو أنه كان يكتب في وقت كان العقل الإنساني فيه يخطو خطواته الأولى في سبيل التفتح ، ومن الظلم أن يطلب من كاتب هذا شأنه أن يكون ككاتب يكتب في وقتنا هذا .

على أن الفكرة الأساسية في القصة ، وهي الرحلة في البحر ثم الإشراف على الغرق ، ثم النجاة إلى جزيرة أو أرض ذات عجائب ، ثم العودة إلى الوطن بعد مكابدة هذه العجائب ، نقول إن هذه الفكرة انتقلت بعد ذلك إلى الأدب العربي على يد كاتب مصري كان هو الذي وضع قصة «السندباد البحري» في قصص «ألف ليلة وليلة» . فمصرى إذن هو الذي وضع في الأدب المصري القديم «قصة الغريق» ، ومصري أيضا هو الذي وضع بعد ذلك في الأدب العربي قصة «السندباد البحري» .

ولم تقف الفكرة عند هذين الأديبن^(١) ، بل انتقلت إلى الأدب الانجليزي في قصص تعرف باسم «روبنصون كروزو» .



ويلاحظ في أسلوب الكاتب المصري أنه قص قصة السفر والإشراف على الغرق والنجاة إلى الجزيرة ، ثم لما طلب الثعبان من السائح أن يخبره من أين جاء وكيف جاء ، وشرع هذا السائح يحيب ، قص القصة نفسها ، بألفاظها ، مرة ثانية ، فقال :

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة في مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء ، وعرفوا الأرض ... الخ » .

وهذا هو بعينه ولفظه ما كان قد قصه من قبل ، لا يختلف عنه إلا في كلمات قليلة . وكان أولى لو أنه استغنى عن هذا التكرار المبذل بجملة موجزة يقول فيها إنه أجاب الشعبان فأخبره بكل ما كان من أمره . غير أن هذا التكرار الذي يراه كتاب اليوم مبتذلا ، كان سائغا منذ أربعة آلاف عام . وقد استعمل أكثر من مرة في قصة « الملك خوفو والسحرة »^(١) ، وفي قصص أخرى . ولم يكن هذا الأسلوب مستعملا في مصر وحدها ، بل كان مستعملا في غيرها من البلاد أيضا ، وقد جاءت التوراة بعد « قصة الغريق » بأكثر من ألف سنة فلم يستطع الذين كتبوها أن يتخلصوا من أسلوب التكرار ، ونسوق هنا أمثلة تدل عليه .

ففي الأصحاح السادس عشر من « سفر القضاة » ، حكاية عن شمشون ودليلة ، ما يأتي :

« وكان بعد ذلك أنه (شمشون) أحب امرأة في وادي سورك تسمى دليلة . فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها تملقيه وانظري بماذا قوته العظيمة وبماذا تتمكن منه لكي نوثقه لإذلاله ... فقالت دليلة لشمشون أخبرني بماذا قوتك العظيمة وبماذا توثق لإذلالك » .

فهنا كررت على لسان دليلة لشمشون نفس الألفاظ التي قالها أقطاب الفلسطينيين لدليلة . ثم استمر كاتب السفر فقال :

« فقال لها شمشون إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس . فاصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابت عندها في الحجر . فقالت له الفلسطينيون عليك يا شمشون . فقطع الأوتار ... فقالت دليلة لشمشون قد خلتني وكنتي بالكذب فأخبرني الآن بماذا توثق . فقال لها إذا أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس . فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها وقالت له الفلسطينيون عليك يا شمشون . والكمين لابت في الحجر . فقطعها عن ذراعيه بحيط . فقالت له دليلة حتى الآن خلتني وكنتي بالكذب فأخبرني بماذا توثق . فقال لها إذا ضفرت سبع خصل رأسي مع السدى . فكنتها بالوتد وقالت له الفلسطينيون عليك » .

(١) موضوع هذه القصة أن الملك خوفو دعا أولاده وطلب أن يقص عليه كل واحد منهم أعجب ما عرفه أو سمع به من أعمال السحر والحكمة فأطاعوا وقصوا أشياء كثيرة .

ياشمشون . فانتبه من نومه وقطع وتد النسج والسدى . فقالت كيف تقول أحبك وقلبك ليس معي .
هوذا ثلاث مرات فدختلتنى ولم تخبرنى بماذا قوتك العظيمة ... الخ » .

ففى هذه الأسطر القليلة من القصة كرر شمشون غير مرة قوله « أضعف وأصير كواحد
من الناس » . وكررت دليلاً غير مرة أيضاً قولها « فدختلتنى وكلمتنى بالكذب فأخبرنى بماذا
توثق » ثم قولها « بماذا قوتك العظيمة » ثم قولها « الفلسطينيون عليك ياشمشون » .

وفى الأصحاح الخامس من سفر استير ما يأتى :

« وفى اليوم الثالث لبست استير ثياباً ملكية والملك جالس على كرسى ملكه فى بيت الملك
مقابل داخل البيت . فلما رأى الملك استير الملكة وافقة فى الدار نالت نعمة فى عينيه . فد الملك لاستير
قضيبة الذهب بيده فدنت استير ولمست رأس القضيبة . فقال لها الملك مالك يا أستير الملكة ما هى
طلبتك . إلى نصف الملكة تعطى لك . فقالت استير إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان إلى الولاية
التي عملتها له . فقال الملك أسرعوا بهامان . ليفعل كلام استير . فأتى الملك وهامان إلى الولاية التي عملتها
استير . فقال الملك لاستير عند شرب الخمر ما هو سؤالك فيعطى لك وما هى طلبتك . إلى نصف الملكة
تقضى . فأجابت استير وقالت إن سؤالى وطلبتي إن وجدت نعمة فى عينى الملك وإذا حسن عند الملك أن
يعطى سؤالى وتقضى طلبتي أن يأتى الملك وهامان إلى الولاية التي عملها لها وغدا أفعل حسب أمر الملك » .
ففى هذه الأسطر من تكرار الألفاظ ما يستطيع القارئ أن يتبينه بسهولة .

وفى الأصحاح السابع من هذا السفر نفسه ما يأتى :

« بجاء الملك وهامان ليشربا عند استير الملكة . فقال الملك لاستير فى اليوم الثانى أيضاً عند شرب
الخمر ما هو سؤالك يا استير الملكة فيعطى لك وما هى طلبتك . ولو إلى نصف الملكة تقضى . فأجابت
استير الملكة وقالت إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك أيها الملك وإذا حسن عند الملك فلتعط لى نفسى
بسؤالى وشعبى بطلبتي ... الخ » .

وهنا أيضاً تكرار لنفس الألفاظ التي مرت فى الأصحاح الخامس . وقصص

التوراة مشحونة بكثير من هذا النوع من التكرار .

والذى يوازن أسلوب الكاتب المصرى فى التكرار بأسلوب التوراة يحكم للاول بأنه
لم يلجأ إلى التكرار إلا فى موضع واحد من قصته بينما أسلوب التوراة يكثر منه فى كثير
من المواضع حتى لتكاد كلمات بعضها تكرر كلما مضت أسطر تعد على الأصابع .



إناء مصنوع من المرمر على شكل تيس (من مخلفات توت عنخ آمون)



مروحة مثبتة على قاعدة من الذهب . ويرى في المروحة رسم ملك مصر يحمل في عربته
على أعدائه (من مخلفات توت عنخ آمون)



رسائل سياسية وغير سياسية
في عهد الأسرة الثامنة عشرة
بين ملوك مصر والملوك المجاورين لهم
ثم بين ملوك مصر وحكام فلسطين وسوريا

تتلي في تلي
تتلي في تلي
تتلي في تلي
تتلي في تلي

في سنة ١٨٧٧ كان جماعة من أهالي قرية الحاج قنديل يحفرون في تل العمارنة ،
أو قرية بنى عامر ، ليجثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم . وكان أهل هذه القرية
وأهل القرى المجاورة لها قد ألفوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا في تل العمارنة هذا
ما يريدونه من سجاد لحقولهم وأدوات لمبانيهم . فبينما كان أصحابنا هؤلاء يهدمون
جدارا سميكاً وينقضونه حجراً حجراً اذا بقؤوسهم تعثر في جوانبه على قوالب من
الطوب سليمة ، فتناول واحد منهم قالباً ونظفه من التراب المتراكم عليه ، فما أشد
مادهش إذ رأى عليه نقوشاً تملأ جانبيه وتنظمها صفوف لا عوج فيها ولا انقطاع .
فعرض الأمر على زملائه فنظفوا هم أيضاً قوالب أخرى فظهر لهم فيها مثل ما ظهر
لزميلهم من النقوش ، وظهر إلى جانب ذلك أن من الطوب ما هو أسود ومنه ما هو
أصفر ومنه ما هو أحمر . فلم يبق لديهم شك في أنهم عثروا على لقية من اللقى الأثرية
التي يزدحم بها جوف الأرض في مصر . فعادوا يحفرون ، ولكن بحذر واحتياط
في هذه المرة ، فوجدوا حفرتين عميقتين صفت فيهما قوالب من ذلك الطوب
الملون المنقوش ، وكانت حميرهم تنتظرهم فلم يحملوا عليها مواد البناء التي جاءوا في طلبها ،
بل حملوا تلك القوالب وعادوا إلى قريتهم غانمين فرحين .

ولم تمض على ذلك أيام حتى كانت هذه القوالب قد انتقلت من أيدي أصحابنا
هؤلاء إلى أيدي تجار الآثار في انخيم والأقصر والقاهرة . ثم وصل خبرها إلى
مدير مصلحة الآثار المصرية حينذاك مسيو جريبو وإلى مدير المدرسة الفرنسية
في القاهرة مسيو نورمان ، فاشترى بعضاً منها وأخذ يفحصان النقوش التي عليها ،
فلم يستطيعا قراءتها ولكنهما أدركا أنها تشبه الخط المسماري ، خط الكتابة البابلية
القديمة ، ولم يفهما كيف يمكن أن يوجد مستودع لكتابات بهذا الخط في مصر .
ثم أرسلوا ما اشترياه من الطوب إلى عالين خبيرين بالخط المسماري هما الأستاذ

أوبير في باريس والأستاذ سايس في لندن، فلم يجد هذان العالمان مناصا من القول بأن الكتابة بابلية . ولكن الخبر لم يكذب إذاع حتى قوبل بالدهشة في جميع الدوائر العلمية، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة ، والريبة إلى سخرية وإنكار؛ وخرج العلماء من هذا كله بأن قالوا إن مازحا غشاشا أراد أن يضحك منهم ومن الناس كافة فصنع الطوب ونقش عليه ما نقش ثم وضعه في تل العمارنة ليداعب به الفلاحين المصريين أولا، وتجار العاديات المصرية ثانيا، والعلماء أخيرا .

وهكذا أنكر العلماء طوب تل العمارنة ، وأنكروا أن يوجد طوب بابلي في مصر على صورة من الصور .

ولكن قوالب هذا الطوب كانت كثيرة، وقد أخذت كثرتها هذه تظهر شيئا فشيئا، فلم يكن بد من أن يبدو غريبا أن يكون ذلك المازح الغشاش الذي نقش الطوب ودفنه في خرائب تل العمارنة كلف نفسه كل هذه المشقة لغير غرض سوى الغش والمزاح .

وعندئذ أخذ الشك يعلق بذلك الإنكار . ثم ازداد الشك حينما قيل إن قوالب الطوب ليست خمسين أو ستين بل قد يبلغ عددها بضعة ألوف (سيأتي أن عددها الصحيح كان ستمائة تلف منها في أيدي العلماء ثلثمائة) . وحينئذ اشترت متاحف مصر ولندن وبرلين وفيينا قليلا منها ، واشترى بقيتها طيب كان معروفا في الاسكندرية يسمى دانيئوس باشا وجامع آثار قديمة كان يسمى جراف . وعرف متحف برلين قيمة هذه القوالب ، وعلم أن جراف ودانيئوس باشا لا يكرهان أن يديعا ما لديهما فاشتراه منهما . وأكب العلماء على قوالب الطوب يحاولون قراءة ما فيها ، ففي أبريل سنة ١٨٨٨ قرأ سايس الذي تقدم ذكره أسماء الملوك بابليين وحكام سوريين . وقفى على أثره عالم ألماني من كبار العلماء في المصروولوجيا هو أدولف إرمان الذي ذكرناه في بحوث سابقة فقرأ اسم الفرعون امينوفيس الثالث والفرعون امينوفيس الرابع مكتوبين بالخط المسماري . ثم تضافر أربعة من العلماء هم الأستاذ

أبيل^(١) والأستاذ ونكلير^(٢) في برلين، والأستاذ يزولد^(٣) والأستاذ بودج^(٤) في لندن، على طبع صورة النقوش التي على الطوب وإذاعتها في جميع الدوائر العلمية لتكون في متناول كل من يعرف شيئاً من الخط المسباري. واستطاع عالم فرنسي بعد ذلك هو الأستاذ هاليفي^(٥) أن يضع ترجمة لمجموعة كبيرة من هذه النقوش باللغة الفرنسية، فكانت ترجمة يتخللها النقص في مواضع والخطأ في مواضع، ولكنها كانت أول محاولة أعطت فكرة عامة عن القوالب وما فيها، وحينئذ عرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر، ووضح في الوقت نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم، وأن فيها من البيانات ما يكشف عن العلاقات التي كانت بين مصر وجيرانها في عهد الأسرة الثامنة عشرة أي في حدود ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، فهي لهذا تعدّ في الطبقة الأولى بين الوثائق التاريخية.



والآن يحسن بنا، قبل المضي إلى الأمام في درس هذه الرسائل السياسية، أن نقول ما هو تل العمارنة الذي وجد فيه ذلك الطوب.

فتل العمارنة هو اسم يطلق على خرائب تقوم بالقرب منها الآن قرية صغيرة تسمى قرية بني عامر على الشاطئ الشرقى من النيل في الطرف الشمالى من مديرية أسيوط بين ملوى وديروط. وهذه الخرائب هي بقايا مدينة قديمة كان الملك امينوفيس الرابع قد أسسها وسمّاها «خوتاتون» — أى افق قرص الشمس —

(١) (Winckler) (٢)

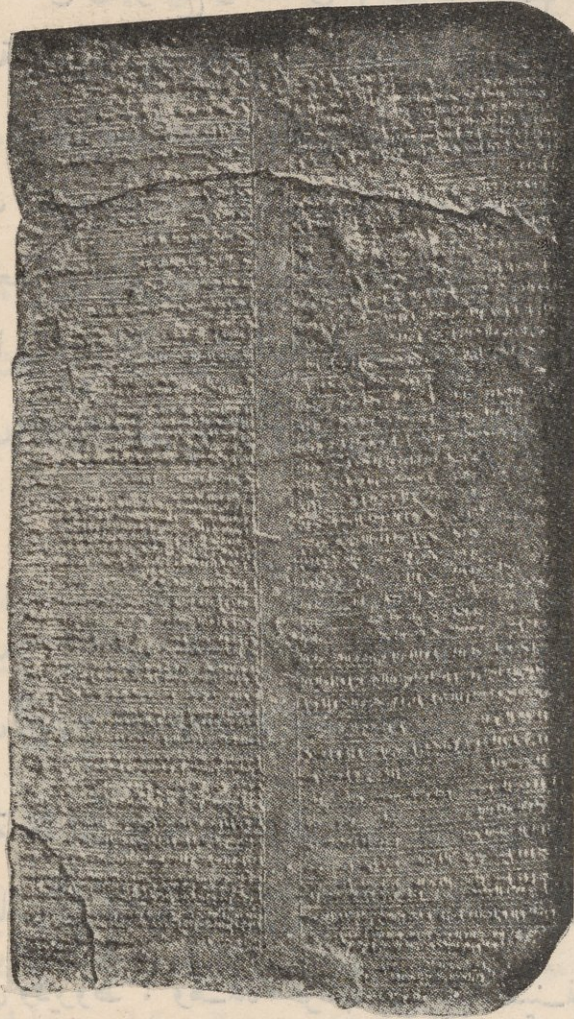
(١) (Abel)

(٤) (Budge)

(٣) (Bezold)

(٥) (Halévy)

وانتقل من طيبة إليها وجعلها عاصمة الامبراطورية المصرية^(١)، بعد أن ثار على عبادة
المعبود آمون وأقفل معابده وشتت كهنته ودعا إلى عبادة « اتون » — أى قرص
الشمس — وسمى نفسه « إينخون اتون » أى « قرص الشمس مغتبط » ويسميه
كثير من كتاب التاريخ المصرى « اخناتون » على سبيل التخفيف .

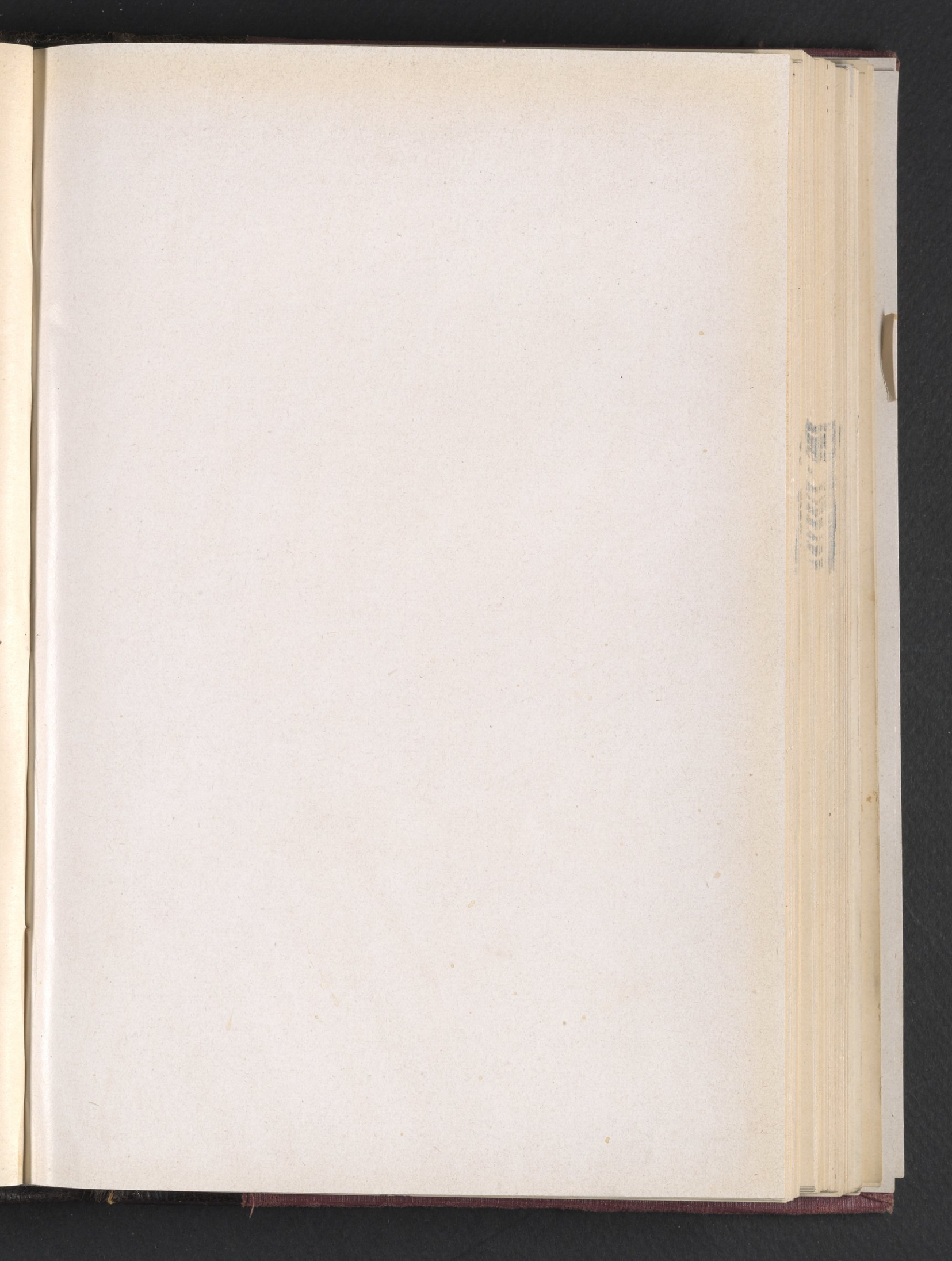


رسالة من رسائل تل العمارنة . وهى تحتوى على تفصيلات مهر الأميرة تادوخيا بنت دوشرانا
ملك ميتانى وقد تزوجها الملك أمينوفيس الثالث

(١) كانت مصر فى ذلك العهد امبراطورية تمتد من الشلال الرابع فى السودان إلى ما وراء الفرات
وإلى المنطقة التى تعرف الآن باسم لواء الإسكندرونة فى آسيا الصغرى ، ثم إلى أرخبيل إيجه فى البحر
الأبيض المتوسط . وقد وجدت فى بعض القصور فى جزيرة كريت وفى بلاد اليونان أختام باسم الملكة تي بي =



تمثال نصفى للملكة نفر تيتى زوجة الملك أمينوفيس الرابع أو أخناتون . وهذا التمثال موجود
فى متحف القاهرة وهو غير التمثال الموجود للملكة فى متحف برلين



وليس المقام هنا مقام شرح هذه الثورة والأسباب التي دعت إليها وإنما يكفي أن نقول إنها أول ثورة كبيرة على الكهنة وعلى المعتقدات الدينية التي كانت فاشية في ذلك الوقت، وإن من أكبر الأسباب التي حملت امينوفيس الرابع عليها رؤيته نفوذ الكهنة يطغى على نفوذ الفراعنة ورؤيته الأموال التي تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تطغى على الأموال التي تجبى لخزانة الدولة. ويضاف إلى ذلك أن صيرورة مصر امبراطورية تمتد حكمها إلى شعوب مختلفة في النوبة والسودان من ناحية وفي فلسطين وسوريا وسواحل الفرات وآسيا الصغرى من ناحية ثانية وفي الجزر المنتشرة في الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط من ناحية ثالثة، هذه الامبراطورية لا يلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتعدد المعبودات، بل الذى يلائمها ويوحد هواها جميعا هو أن يكون لها معتقد ديني واحد ومعبود واحد، ولم يكن هذا المعبود في نظر امينوفيس الرابع غير الشمس لأنها ترسل النور والحرارة والحياة إلى جميع أنحاء العالم فهي لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعا.

ولما أنشأ امينوفيس الرابع أو اخناتون مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك أنشأ فيها القصور والمعابد ثم انتقل إليها معه رجال الدولة فبنوا فيها هم أيضا قصورا لأنفسهم، ولم تمض سنوات تعد على الأصابع حتى صارت خوتاتون تضارع طيبة في عظمتها وجمالها. وكانت في طيبة دار تحفظ فيها المراسلات الخارجية فبنيت في خوتاتون دار لهذا الغرض ملحقة بقصر الملك ونقلت إليها المراسلات التي كانت محفوظة في طيبة.

== والدة امينوفيس الرابع وزوجة أبيه الملك امينوفيس الثالث ففتح ذلك بابا للقول بأن حكم مصر امتد في ذلك العهد إلى كريت وإلى سواحل اليونان، ولكن هذا القول لا يزال محتاجا إلى أدلة أخرى وإن يكن من المؤكد أن نفوذ مصر الأدبي والتجاري كان شائعا إذ ذاك في كريت وفي اليونان. وهذه البلاد التي ذكرناها هنا هي التي كانت مصر تحكمها حكما مباشرا، وعدا ذلك كانت توجد بلاد أخرى في آسيا الصغرى ترتبط مع مصر بمعاهدات تشبه معاهدات الحماية.

وهذه الدار هي بعينها التي أدى الاتفاق بمعاول الفلاحين من أهالى قرية
الحاج قنديل إلى أن تعمل فيها فى سنة ١٨٧٧ ، وذلك الجدار السميك الذى عثر به
أولئك الفلاحون وجعلوا ينقضونه حجرا حجرا ليأخذوا منه ما يصلح لمبانيهم لم يكن
شيئا سوى سور قصر الملك محيطة بالقصر وبالدار ، وذلك الطوب الذى عثروا
عليه وأدركوا بغريزتهم أنه لقبة أثرية لم يكن شيئا غير كتب كتبها ملوك بابل وآسيا
الصغرى وحكام سوريا وفلسطين إلى فراعنة مصر .

وبعبارة أخرى إن المنطقة التى وجد فيها الطوب كانت دارا مخصصة لمحفوظات
وزارة الخارجية المصرية . وسيأتى أن الرسائل التى اشتمل عليها هذا الطوب دلت
على أنه كان لهذه الدار موظفون يتولون إدارتها وتنظيم الرسائل فيها بحيث يسهل
عليهم الرجوع إلى ما يريدون الرجوع إليه فيها . وكان من هؤلاء الموظفين
مترجمون يعرفون اللغة البابلية وخطها المسمارى ومترجمون آخرون يعرفون لغات
أخرى ليكونوا جميعا مستعدين لترجمة أية رسالة تتلقاها وزارة الخارجية المصرية
وللاجابة عليها .

ومتى عرفنا هذا لا يسعنا إلا أن نأسف لأن الطوب الموجود الآن — وهو
كما قلنا موزع بين متاحف مصر وبرلين ولندن وباريس وينا — ليس سوى
نصف الطوب الذى عثر عليه الفلاحون فى تل العمارنة . أما نصفه الآخر فقد هلك
فى أيدي العلماء حينما كانوا يرفضون أن يعترفوا له بقيمة أثرية وكانوا يقولون إنه
تزوير مزور ومزح مازح . فقد كان عدد القوالب التى وجدها الفلاحون يقرب
من ستمائة فلم يبق منها غير ما يقرب من ثلثمائة . والله وحده يعلم أية خسارة خسرها
التاريخ بهلاك هذه القوالب . والله وحده يعلم أيضا أية فائدة كان التاريخ يستفيدها
لو أن محفوظات وزارة الخارجية الفرعونية وجدت سليمة كلها ولم تعد عليها
عواذى التدمير منذ هجرت مدينة خوتاتون أى منذ ٣٤ قرنا .



ترجم علماء اللغة البابلية القديمة جميع الرسائل التي احتواها طوب تل العمارنة فبان في الحال أنها ليست رسائل متفرقة بغير نظام ولا تتابع بل هي رسائل متتابعة كانت منظمة في مستودعها على أساس هذا التتابع . فمنها ٦ رسائل من ملك بابل و ٩ من ملك ألأزيا^(١) ، و ٤ من ملك ميتاني^(٢) ، و ٦ من حاكم من حكام سوريا يسمى ريب أدى^(٣) ، ونحو مائة رسالة أخرى من حاكم لمدينة اورشليم (القدس الآن) يسمى أراد هيبا^(٤) ، وحاكم لمدينة في سوريا يسمى أزيرو^(٥) ، ومن غيرهما من الحكام في سوريا وفلسطين . وهذه الرسائل كلها موجهة إلى فرعونين اثنين هما أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع . ويقدر العلماء المدة التي كتبت فيها هذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين سنة^(٦) .

ويرى من هذا البيان أن ملوك بابل وملوك آسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين كانوا في ذلك الوقت يكتبون فراعنة مصر بالخط المسماري البابلي لا بالخط المصري . وأنهم كانوا جميعا يستخدمون في كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذي كان المصريون يكتبون عليه . ومعنى هذا أن الرسول الذي كان كل واحد من أولئك الملوك والحكام يرسله برسالة إلى مصر كان يسير بحمولة من الطوب ثقيلة ولكنه متى عاد بالجواب بعد ذلك لم يكن يحمل إلا ورقة مطوية في قمطر .

ويحسن بنا هنا أن نقول إن مملكة بابل كانت قد غزت سوريا قبل أن تغزوها مصر بأجيال ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية واللغة البابلية والخط البابلي ،

(١) ألأزيا (Alasya) هي مملكة كانت توجد في المنطقة الشمالية من سوريا بين الساحل ونهر أوروينت وهو يسمى الآن نهر العاصي .

(٢) ميتاني (Mitanni) هي مملكة كانت واقعة في شمالي مملكة ألأزيا وهي في المنطقة التي يوجد

فيها الآن لواء الاسكندرونة . (٣) Rib — Addi .

(٤) Arad—Hiba . (٥) Azirou .

(٦) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسيرون ص ٣

فلما غزاها المصريون بعد ذلك — أى بعد طرد الهكسوس — اكتفوا بأن تخضع لهم وأن تؤدى لهم الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ولا عاداتهم ولا تقاليدهم ولا ملابستهم ، بل تركوا لأهلها وللملك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم ما يريدون ويتركوا ما يريدون . وبعبارة أخرى إنهم تركوا حضارتهم تؤثر فيهم وفي غيرهم تأثيرها الطبيعي من غير أن يحملوهم على اقتباسها كرها . وقد أثرت فيهم هذه الحضارة مع الزمن تأثيرا عميقا ، ولكنها في الوقت الذى كتبت فيه الرسائل التى نحن فى صدددها هنا لم تكن قد حملتهم بعد على استبدال الكتابة المصرية بالكتابة البابلية ، واستبدال الكتابة على الورق بالكتابة على الطوب ، على الرغم مما فى ذلك من اليسر والسهولة . وإنما اقتبست شعوب سوريا وآسيا الصغرى الكتابة على ورق البردى المصرى بعد ذلك بنحو مائة وعشرين سنة أى فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين . وكل من يقرأ تواريخ الأمم التى عاصرت الحضارة المصرية فى نشأتها ، أو التى ظهرت بعد دخول المدنية المصرية فى سن الشيخوخة ، ثم يزن مسلك هذه الأمم مع الشعوب المغلوبة لها بمسلك المصريين هذا مع الشعوب المغلوبة لهم ، لا يسعه إلا أن يعترف بأن الحكم المصرى كان حكم سياسة ولين بينما كان حكم الأمم الأخرى حكم قسوة تبلغ حد الوحشية . فالأشوريون مثلاً ، وهم لم يظهر لهم سلطان إلا بعد دخول الحضارة المصرية فى سن الشيخوخة ، لم يكونوا يعدون للأسرى فى الحرب غير القتل مع التمثيل ، وكان من المألوف عندهم أن يعلقوا الأسرى عشرات عشرات فى خوازيق فى ميدان القتال على مرأى من أعدائهم ليوقعوا الرعب فى قلوبهم ، فى حين كان المصريون^(١) يمتنعون عن قتل الأسير ، ولم يعرف عنهم أنهم قتلوا

(١) كتب فى هذا الموضوع جول باييه (Jules Baillet) فى كتابه "النظام الفرعونى فى علاقته بتطور التهذيب النفسى فى مصر" .

(Le Régime Pharaonique dans ses rapports avec l'évolution de la Morale en Eg.) فى ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٠ من الجزء الأول ، فذكر أن العرف كان جاريا عند الشعوب كلها بأن للتصبر أن يذبح الأسرى وينهب أموالهم ، بل كان جاريا بأن له أن يتصرف =

أسرى إلا في حالات قليلة، ولم يعرف قط أنهم استعملوا في القتل خوازيق أو أى نوع آخر من أنواع التعذيب والتمثيل .

وقد يقال هنا إن جدران المعابد المصرية تزدهم بصور الملوك المصريين والأسرى راكعون أمامهم، وهم قابضون على رؤوسهم متأهبون لضربهم، فنقول جواباً على ذلك إن هذا التصوير لم يكن المراد منه قتل الأسرى قربانا للعبودات،

== كما يشاء في أرواح أهالى البلاد المغزوة وأموالهم . ولم يخرج على هذا العرف إلا المصريون، لأنهم امتازوا وحدهم — ولا سيما بعد تقدم مدنيهم — بمعاملة الأسرى وأهالى المدن المغزوة معاملة إذا قيست بالعرف الذى كان جارياً كان فيها كثير من الرأفة والرفق . فهم لم يحرقوا المدن المغزوة ولم يسلبوا رجالها ونساءها وأطفالها للسيف، كما كان غيرهم يفعلون . كلا ولم يذبحوا الأسرى ولم يمتثلوا بهم بل كان كل الذى فعلوه أن ساقوا هؤلاء الأسرى إلى مصر واستخدموهم، كما كانوا يستخدمون العمال المصريين في أعمال البناء والصناعة والمناجم وأشباهها .

قال باييه : « لم يعرف عن المصريين أنهم استخدموا التعذيب أو التفنن في القسوة في معاملة المغلوبين في الحروب، كما كانت تفعل الشعوب الآسيوية . فليس في تاريخهم شىء عن الأسرى الذين يغزون غزرا في الخوازيق وهم أحياء، ولا عن سمل عيونهم، ولا عن كسر أنوفهم، ولا عن صلم آذانهم، ولا عن قطع شفاهم وألسنتهم وأرجلهم وأيديهم، كلا ولا عن قتل النساء والأطفال أو حرقهم، ولا عن سلب جلود الملوك والرؤساء وهم أحياء، ولا عن صلبهم، ولا عن ربطهم وهم أحياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالمنشار » .

وقد صدق باييه فليس في تاريخ المصريين شىء من هذا، ولكنك تقرأ تاريخ آشور نازيرابال، وسالمانازار الثالث، وتيجالافالازار الثالث، وسارجون، وسناخريب، وأشوربانابال، من ملوك آشور، فتجد الكثير من هذه الفظائع في معاملتهم للأسرى والمغلوبين في الحرب .

ولقد قلنا إن المصريين قتلوا بعض الأسرى في حالات قليلة . فنبرز هذه الحالات أن الملك أمينوفيس الثانى أسركثيراً من أمراء سوريا (٥٠٠ ٥٠٠) ٢٤٠ امرأة من نساءهم على ما يقول برستيد ص ٣٣٤ من الترجمة الفرنسية) الذين كانوا قد ثاروا عليه بعد موت أبيه تحوتمس الثالث، فعاد بهم إلى مصر، وعلق سبعة منهم في مقدم سفينته حين وصوله إلى طيبة، ثم قتل ستة من هؤلاء السبعة أمام المعبود آمون في معبد الكرنك، وعلق رؤوسهم وأيديهم على جدران المعبد، ثم أرسل بالسابع إلى مدينة ناباتا (عاصمة النوبة) فخرى عليه فيها مثل ما جرى على زملائه .

ولا التمثيل بهم على نحو ما كان الأشوريون يفعلون، بل كان المراد منه التحدث بما فعله هؤلاء الملوك من قهر أعدائهم وإخضاعهم لسلطانهم . وهذا شيء، وقتل الأسرى والتمثيل بهم شيء آخر .

= وقد علق بآييه على هذا الحادث فقال (ص ١٦١ من كتابه الذي مر ذكره) يجب أن يلاحظ أن هؤلاء الأمراء السبعة كانوا أسيويين وأن العادة كانت جارية في آسيا بقتل الأسرى، بل بما هو أشنع من قتلهم .

ثم قال بآييه : على أن العلماء ليسوا متفقين جميعا على قراءة النص الخاص بهذا الموضوع، لأن منهم من يقرأ بما يفهم منه أن أمينوفيس الثاني لم يعلق الأمراء في سفينته أحياء، بل علق جثثهم التي كان رجاله قد التقطوها من ميدان القتال . فهو إذن لم يذبحهم، وإنما قطع رؤوس جثثهم وعلقها على جدران الكرنك .

ومن هذا الرأي أيضا آرثر ويجل (Arthur Weigall) في كتابه "تاريخ مصر" ص ١٢٧ من الترجمة الفرنسية التي مر ذكرها . وهنا يضع ويجل موازنة تلفت النظر فيقول إن التوراة تقص علينا في الإصحاح الحادى والعشرين من سفر صمويل الثانى قصة سبعة من الأمراء سلمهم الملك داود للجبعونيين، فقتلوهم وصلبهم قربانا لله كي تذهب بقتلهم مجاعة كانت فاشية ويحل محلها الرخاء . وقال ويجل : « إن هذا كان بعد عهد أمينوفيس الثانى بأكثر من ٤٠٠ سنة » .

ونذكر نحن هنا نص ما قالته التوراة في ذلك . قالت :

« وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة، فطلب داود وجه الرب فقال الرب هو لأجل شاول، ولأجل بيت الدماء لأنه قتل الجبعونيين . فدعا الملك الجبعونيين وقال لهم ... ماذا أفعل لكم؟ وبماذا أكفر؟ فتباركوا نصيب الرب ... فقالوا للملك الرجل الذى أفنانا والذى تأمر علينا ليبيدنا لكي لا نقيم في كل تخوم إسرائيل، فلنقط سبعة رجال من بنيهم فصلبهم للرب في جبعة شاول مختار الرب . فقال الملك : أنا أعطى ... فأخذ الملك ابني رصفه ... وبني ميكال ابنة شاول الخمسة ... وسلمهم إلى يد الجبعونيين فصلبهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معا وقتلوا في أيام الحصاد في أولها في ابتداء حصاد الشعير ... وبعد ذلك استجاب الله من أجل الأرض » .

ويقول ويجل في هذه الموازنة إن أمينوفيس قتل السبعة الأمراء في نفس هذه المنطقة التي كان فيها الجبعونيون، ثم حمل جثثهم إلى مصر . ويستمر ويجل بعد ذلك فيقول :

=



صورة مركب مصنوعة من المرمر ومطعمة بحجارة ملونة . وفي مقدمتها ومؤخرها رأسان طبيعيان
لحيوانين حديثي السن ثبتا في المرمر (من مخلفات توت عنخ آمون)

100. 100. 100.



والآن نأخذ في درس تلك الرسائل فنبدأ بالقاء نظرة عامة عليها ثم نشفع هذه النظرة بتعريب بعض منها .

وجدت على أحد قوالب الطوب كلمات « مكان المحفوظات من القصر الملكي » .
ووجدت في إحدى الرسائل كلمة يطلب كاتبها من فرعون مصر أن يرجع إلى الرسائل المحفوظة في مكاتبه . فهاتان الإشارتان دليل قاطع على أن المستودع الذي وجدت فيه قوالب الطوب كان دارا لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية .

ووجد على هامش من هوامش أحد القوالب تأشير بالخط المصرى مؤداه أن دار المحفوظات هذه كانت في طيبة ثم لما هجرها الملك أمينوفيس وطلق عبادة المعبود أمون وأنشأ مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك ودوائر الحكومة، نقل إليها أيضا المحفوظات السياسية وجعل مقرها في دار داخلية في قصره في العاصمة الجديدة .

ووجد في أحد القوالب خاتم منقوش باسم « تيتو — نو، رجل، شاماس — نيكي »
فهاهنا رجلان أحدهما « تيتو — نو »، والثاني « شاماس — نيكي » والثاني رجل الأول أى تابع له . ويرى العلماء أن الاسم الأول مصرى لأنه يشبه الأسماء المصرية من جميع الوجوه، والثاني بابلي لأنه يشبه الأسماء البابلية من جميع الوجوه .^(١)

= « إن مصر لم تكن تعرف ذبح الآدميين قربانا للآلهة . ولكن هذا النوع من القربان كان معروفا في سوريا وبلاد أخرى ، فإذا صح أن الأمراء السبعة الذين جاء ذكرهم في عهد أمينوفيس الثاني قد ذبحوا قربانا دينيا فيجب أن نرى في ذلك مثالا من أمثلة تأثير سوريا في الروح المصرى » .

وعثر فلندرز بترى حينما نقب في تل العمارنة في سنة ١٨٩١ على اسم آخر مكتوب بالحبر على قطعة من الحجر باللغة المصرية هكذا : « الكاتب الملكي رع أبينى » ويظن بترى ، ويؤيده العلماء في ظنه ، أن هذا الكاتب الملكي كان مديرا لدار المحفوظات أو كان على الأقل رئيسا لإدارة من الإدارات في دار المحفوظات « وأن شاماس — نيكي » ومساعداه « تيتو — نو » كانا مرءوسين له .

وعثر بترى أيضا على بقايا طوب مكتوب ، فلما درسها ودرسها معه العلماء في اللغة البابلية ، إذا هي معجم وضع ليتعلم فيه من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين . أو لعل هذا المعجم وضع ليرجع إليه الموظفون المصريون في وزارة الخارجية كلما أشكلت عليهم كلمة . ووجدت على هامش قطعة من قطع هذا الطوب الكلمات الآتية « بأمر ملك مصر » فالمعنى المتبادر إلى الذهن من ذلك أن ملك مصر هو الذى أمر بوضع المعجم .

وقوالب الطوب التى فيها هذا المعجم ينقسم سطحها إلى ثلاث خانات عمودية متساوية ، الأولى فيها الكلمة باللغة المصرية ، والثانية فيها أمامها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها أيضا نطق الكلمة فى اللغة البابلية مكتوبا باللغة المصرية . ثم تتوالى الكلمات فى الخانات الثلاث على هذا النظام .

ويقول هنا بترى إن هذا المعجم يدل على أن ملك مصر لم يكن يكتفى من الموظفين المصريين بأن يترجموا له الكلمات البابلية ، بل كان يطلب منهم فوق ذلك أن يحذقوا هذه اللغة فى نطقها وفى جميع خصائصها .

ويظهر أن ملوك مصر كانوا فى بعض الأوقات يحبون أن يعرف ملوك آسيا أن فى استطاعتهم أن يردوا عليهم بلغتهم ، ولهذا وجد كتاب طويل كتبه أمنيوفيس الثالث باللغة البابلية والخط المسمارى على قوالب من الطوب يرد به على كتاب جاءه من ملك بابل .



وتنقسم رسائل تل العمارنة إلى قسمين : أولها قسم الرسائل الواردة من ملوك مستقلين ولكنهم مرتبطون مع مصر بروابط التحالف أو روابط الصداقة، وهى روابط يختفى خلفها فى كثير من الأحيان معنى الحماية . وأصحاب هذه الرسائل هم ملوك كاردونياش^(١) وأشور وميتانى ونحارينا^(٢) .

والثانى قسم الرسائل الواردة من حكام البلاد المحكومة بمصر حكما مباشرا فى فلسطين وسوريا . وبعضها وارد من مدن فى سوريا كانت متمتعة بالحكم الذاتى، وكان نظام الحكم فيها جمهوريا .

ومن هذا التقسيم يتضح، كما يقول مورى، أن سياسة الحماية المستترة بستار المحالفة ليست اختراع العصر الحديث بل هى سياسة كان المصريون يعرفونها ويجرون عليها فى علاقاتهم مع بعض الأمم المجاورة لهم . ونضيف نحن أنه يتضح من هذا التقسيم أيضا، كما يتضح من الرسائل التى سياتى تعريبها، أن نظام الحكم الذاتى ونظام الحكم الجمهورى، اللذين يعتقد كثير من الباحثين أنهما ابتداء المدنية اليونانية، ليسا من ابتداء هذه المدنية، وإنما هما نظامان عرفهما المصريون وطبقوهما على بعض المدن الخاضعة لحكمهم فى سوريا، قبل أن توجد المدنية اليونانية بنحو ٨٠٠ سنة .

ونأخذ الآن فى درس رسائل القسم الأول وتعريب بعض منها . والمصادر التى اعتمدنا عليها فى ترجمة الرسائل كلها هى :

(أولا) مجموعات من مجلة (Journal Asiatique) فى سنى ١٨٩١ و ١٨٩٢

١٨٩٣ و ١٨٩٤ و ١٨٩٩

(١) (Kardounyash) هو الاسم الذى كانت تعرف به مملكة بابل فى ذلك الوقت .

(٢) أشور مملكة كانت على نهر الدجلة .

(ثانيا) كتاب (Au Temps des Pharaons) لمورى من ص ٤٩ الى ص ٨٧

(ثالثا) الترجمة الفرنسية لكتاب (A History of Egypt) لبرستيد من

ص ٣٩٠ الى ص ٤٠٠



(١)

كتب ملك ألازيا :

« إلى ملك مصر، وأخى، أقول : أنا ملك ألازيا، أخوك، صحتى جيدة، وإنى أبعث بأفضل
تحياتى إليك، وإلى أقاربك، وإلى خادما لك، وإلى أبنائك، وإلى زوجاتك . وأبعث أيضا بتهنئاتي
لك على عرباتك العديدة وخيولك كما أبعث بتمنياتي لبلادك مصر » .^(١)

وكتب ملك ميتانى :

« إلى أمينوفيس، ملك مصر العظيم، وأخى، وصهرى الذى أحبه ويحبنى أقول : أنا دوشراتا ملك
ميتانى العظيم، وأخوك، وهوك الذى يحبك . صحتى جيدة، وإنى أبعث بتحياتى إليك أنت أخى وصهرى،
وإلى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك » .

ومن هذا الكتاب، ومن كلمة « حموك » التى فيه، يعرف أن أمينوفيس الثالث
والد أمينوفيس الرابع الذى وجه اليه هذا الكتاب، كان قد تزوج من بنت دوشراتا
ملك ميتانى .

وكتب ملك أشور :

« إلى أمينوفيس الرابع أخى أقول : أنا أشور وباليت ملك أشور، وأخوك الملك، أدعو بالسلام
لك، ولأقاربك، ولبلادك » .

ويلاحظ فى هذه الكتب الثلاثة أنها مكتوبة بأسلوب واحد وألفاظ تكاد
تكون واحدة على الرغم من أن أصحابها مختلفون وأنها كتبت فى أوقات مختلفة وبلاد

(١) المقصود بالعربات هنا العربات الحربية وكانت ذات شهرة واسعة .

مختلفة . ففيها كلها تلقيب بالأخوة وإخبار بصحة الملك صاحب الكتاب ثم إهداء تحيات أو دعوات إلى ملك مصر وأقاربه وزوجاته وأبنائه . ويزيد ملك الأازيا فيهدى التحيات إلى خادmate .

وهذه الوحدة في الأسلوب بين كتب مختلفة من ملوك مختلفين تدل على أنه كانت توجد في ذلك الوقت قواعد وتقاليد معينة لمكاتبات الملوك ، وأن هذه القواعد والتقاليد كانت تراعى بدقة ، وهي تسمى في العرف الحديث « بروتوكولا » وان كانت قواعد اليوم وتقاليده غير قواعد الأمس وتقاليده .

ويؤيد وجود هذه القواعد والتقاليد في المكاتبات أن من بين رسائل تل العمارنة صورة رسالة كتبها الملك أمينوفيس الثالث إلى ملك كاردونياش بخرى فيها على الأسلوب نفسه والنسق نفسه .



قطعتان من أرض قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تي بي في طيبة وهما تمثلان طيرا من الأوز بين أزهار اللوتس ولا يفوتنا بعد ذلك أن نوجه النظر إلى أن هؤلاء الملوك جميعا كانوا شريقين وأنهم مع ذلك كانت تقاليدهم في المكاتبات تسمح لهم ، أو تقضى عليهم ، بأن يبعث كل واحد منهم بتحياته إلى زوجات الملك الذي يكتب إليه . وقد لا يلفت النظر

كثيرا أن يبعث الملك دوشراتا بتحياته إلى زوجات الملك أمينوفيس الثالث بسبب المصاهرة التي كانت بين الاثنين، ثم لأن بنت الملك دوشراتا كانت إحدى الزوجات اللواتي يذكهن في كتابه . ولكن الذي يلفت النظر حقا هو أن ملك ألزيا يهدي هو الآخر، تحياته إلى زوجات ملك مصر، وهذا لا يكون إلا إذا قلنا إن « البروتوكول » كان يسمح بهذه التحيات .

ولا حاجة لأن نقول بعد ذلك إن هذا النوع من « البروتوكول » اختفى من الشرق وانتقل إلى الغرب .

(٢)

وكتب الملك بورنار بورياش ملك كاردونياش إلى ملك مصر فابتدأ بديباجة كالتى رأيناها في الكتب السابقة ثم قال :

« لقد انحرفت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول أخى . ولم يشجعنى أخى فى طول المدة التى بقيت صحتى فيها منحرفة . ولهذا استأت من أخى وقلت : ألم يسمع أخى أننى مريض . لماذا لم يبعث لى رسولا ولم يظهر اهتماما بى .

« وقد أجاب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قرية لكى يسمع أخوك بمرضك ويرسل إليك رسولا يستعلم أخبارك .

وفى الواقع اننى استفهمت بعد ذلك من رسولى فقال لى : « إنها رحلة طويلة جدا » . فلهذا سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى » .

ففى هذه الرسالة نرى ملك بابل يتحزق شوقا إلى كلمة طيبة تأتية فى مرضه من ملك مصر، ولا يكاد يصبر على هذا الشوق إلا بعد أن يعلم أن الشقة بين البلدين بعيدة وأن ملك مصر معذور لهذا السبب إذا هو لم يرسل إليه يستعلم أخباره . وفى هذه الرسالة نوع من الجهل يستوقف النظر هو أن ملك بابل لم يكن يعرف بعد ما بين بلاده ومصر إلا بعد أن سأل فى ذلك رسول مصر ثم رسوله .

وأسلوب الكتابة فى هذا يلفت النظر لأنه يكرر كلمة « أخى » ست مرات فى سبعة أسطر فهو يشبه أسلوب التوراة الذى أشرنا إليه فى تعليقنا على « قصة الغريق » .



كرسى عرش الملك توت عنخ آمون مصنوع من الخشب المذهب • وقد رسمت على مسنده
الملكة واقفة أمام الملك

1000

(٣)

وكتب دوشراتا ملك ميتاني الذي تقدم ذكره إلى أمينوفيس الرابع يصف له الحزن الذي استولى عليه حينما جاءه الخبر بوفاة أمينوفيس الثالث، فقال :
« حينما أشرف والدك على الموت ... في ذلك اليوم بكيت وسقطت مريضا وأشرفت على الموت ... ولكني علمت بعد ذلك بأن أكبر أنجال الملك أمينوفيس والمملكة تي بي جلس على العرش ... وقد قلت حينئذ أن أمينوفيس لم يمت ... » .

هذا الكتاب مبتور لم توجد منه غير الكلمات التي عمر بناها هنا، ولكن الباقي منه كاف للدلالة على المعنى المقصود منه .

والقارئ يذكر من غير شك أن دوشراتا كان حما الملك أمينوفيس الثالث . فهو هنا يعبر عن الحزن الذي استولى عليه حينما بلغه موت زوج ابنته . ويذكر الملك دوشراتا في كتابه هذا المملكة تي بي زوجة أمينوفيس الثالث، وأمر هذه المملكة مشهور في كتب التاريخ لأنها كانت ذات نفوذ كبير على زوجها وكان لها أثر ظاهر في سياسة الامبراطورية المصرية، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها بنت الملك دوشراتا التي تزوج بها أمينوفيس الثالث، وأنها لذلك تكون سورية الأصل . وبنوا على هذا زعماء آخر هو أن الثورة الدينية التي ثارها أمينوفيس الرابع على عبادة آمون كانت بتأثير أمه تي بي في نفسه، وإذن تكون هذه الثورة راجعة في كثير منها إلى عوامل سورية .

ولكن ماسبيرو أثبت من مومياء المملكة تي بي^(١)، ومن تابوتها، ومن النقوش التي وجدت عليه، ثم من قبر والد هذه المملكة، أن هذا القول خطأ وأن تي بي مصرية، لم تكن من الدم الملكي بل كانت من عامة الشعب، فأحبها الملك وجعلها زوجته الأولى، وهي أم أمينوفيس الرابع .

وقول دوشراتا « إن أمينوفيس لم يمت » لأنه يحيا في ابنه، هو من الأقوال التي ما زالت إلى وقتنا هذا متداولة بين الكتاب .

(١) كتاب (Couseries d'Egypte) ص ١٤٨

(٤)

هذا الكتاب الذى نعرض له هنا لم يعرف كاتبه لأن ديباجته مبتورة ولكن
الباقى منه ذو أهمية سياسية . وهو موجه إلى أمينوفيس الرابع . وهذا نصه :
« ... والآن يامليكى وقد جلست على عرش أبىك فلنتبادل ، أنا وأنت ، الصداقة الدائمة كما كنت
أتبادل مع أبىك الهدايا . فاقبل هذه الأمانة التى كنت قد وجهتها إلى أبىك ، ولنعمل معا على تحقيقها بيننا » .
فكاتب هذا الكتاب لابد أن يكون واحدا من ملوك البلاد المستقلة ، لا واحدا
من حكام سوريا ، لأنه يطلب تبادل الصداقة . ولكنه مع ذلك يخاطب ملك مصر
بقوله « يامليكى » رغبة منه فى استمالة قلبه . وهو يلح فى تبادل الصداقة والهدايا
ويسمى هذا التبادل « أمانة » له . لأن صداقة مصر كانت فى ذلك الوقت أعز
أمانة يسعى إليها الملوك .

ويغلب على الظن أن صاحب هذا الكتاب هو ملك بابل لأن فى الكتاب
الآتية كتبا منه تتفق مع هذا الكتاب فى معناه .

(٥)

بهذا الكتاب الذى نعرض له الآن ندخل فى صميم المكاتبات السياسية ، ونرى
كيف كان كل من ملك بابل وملك آشور يتنافسان فى اكتساب عطف مصر
والتحالف معها .

كتب بورنا بورياش ملك بابل الذى تقدم ذكره إلى الملك أمينوفيس الرابع
فقال بعد الديباجة :

« حينما كان والدى كوريجالزو حيا أرسل إليه ملك كنعان رسولا قال له : « هيا فلندخل مدينة
كارميشات ، ولنحارب فرعون معا » . فبعث إليه أبى يقول : « لا تفكر فى الاتفاق معى . فان كنت
تريد معاداة ملك مصر فابحث لك عن حليف غيرى . أما أنا فانى لا أسير فى هذا ولا أدمر بلاد ملك مصر
لأنه حليفى » . وهكذا رفض والدى أن يصغى إلى ملك كنعان حبا فيك .

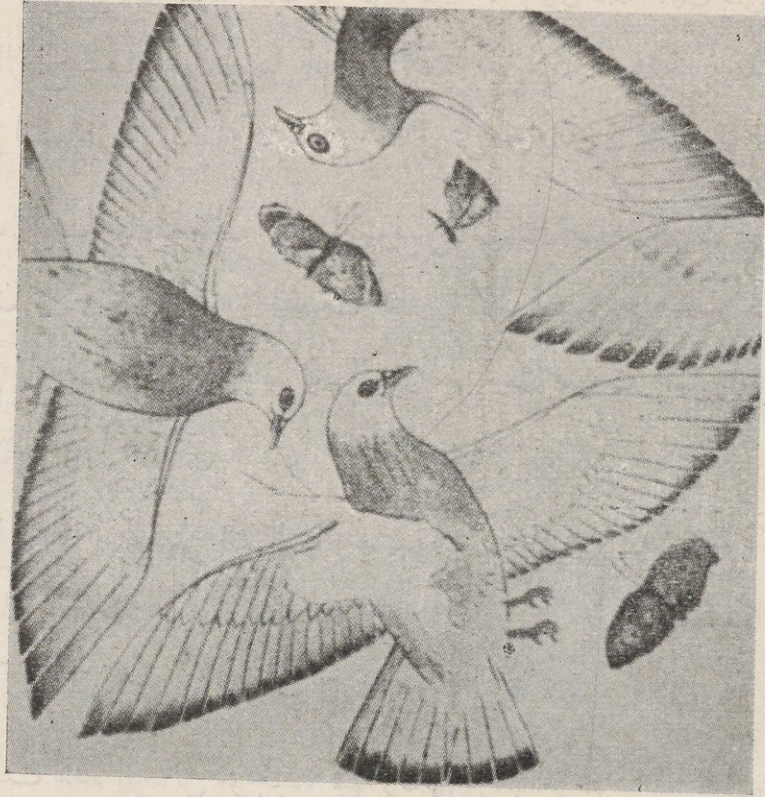
« والآن فان ملك آشور تابع لى . ولست فى حاجة لأن أقول لماذا هو يطلب صداقتك . فان كنت

تحنبنى فلا تعقد معه أية معاهدة واطرده بعيدا جدا » .

وإذن كان ملك أشور وملك بابل يتسابقان إلى التحالف مع ملك مصر لأن كلا منهما كان يرى فيه أمانا لنفسه وعضدا لبلاده . ولم يكن ذلك في عهد الملك بورنابور ياش فقط ، بل كان في عهد أبيه من قبله أيضا ، وكان أبوه هذا يقول لمن يدعوه إلى معاداة ملك مصر : « ابحث لك عن حليف غيرى » .

ولعل القارئ يرى من فحوى هذا الكتاب ما يؤيد الظن الذى ذهبنا إليه إذ رجحنا أن يكون الكتاب السابق الذى لم يعرف صاحبه صادرا من ملك بابل . وبعد هذا لا بد من سؤال وهو : ماذا فعل ملك مصر فى هاتين اليدين اللتين مدتتا إليه من ملك أشور وملك بابل ؟ .

إن من حسن الحظ أن فى استطاعتنا أن نجيب على هذا السؤال لأن ما عثر عليه من محفوظات وزارة الخارجية المصرية يسمح لنا بالجواب .



قطعة من سقف غرفة فى قصر الملك أمينوفيس الثالث والملسكة تى تى فى طيبة

والجواب أن أمينوفيس الرابع — أو أختاتون — حالف كلا من الملكين ، ولم يقبل أن يكون لواحد منهما على الآخر ، وقد رضى الملاك بذلك .

(٦)

إلى هنا رأينا كيف كانت تكتب ديباجة الرسائل بين الملوك ، ثم رأينا نوعا من هذه الرسائل دل على أن ملوك البلاد المجاورة للامبراطورية المصرية كانوا يحرصون على أن ينالوا شرف الارتباط برباط المحالفة أو الصداقة مع ملك هذه الامبراطورية . فالآن نخوض في نوع آخر من الرسائل خاص بمصاهرة ملك مصر لأولئك الملوك وما كان لهذه المصاهرة من التأثير في العلاقات السياسية .

كانت هذه المصاهرة تعتبر متممة لمعاهدات التحالف ، فكان ملك مصر يرى أن زواجه من بنت الملك المجاور له أو من أخته — وفي بعض الأوقات منهما معا — ضمان على أن هذا الملك لا يخرج عليه . وكان هذا الملك يرى من ناحيته أن هذا الزواج نفسه ضمان له على أن يبقى متمتعا برعاية ملك مصر . ولهذين السببين نجد ذكر المصاهرة يتردد في كثير من رسائل تل العمارنة .

وقد رأينا فيما تقدم أن الملك أمينوفيس الثالث صاهر الملك دوشراتا ملك ميتاني بأن تزوج بنته وأخته ، فنضيف هنا إلى ذلك أن زواج هذه الأخت لم يكن سهلا على ما يظهر لأن أمينوفيس الثالث طلبها ست مرات حتى أعطيت له . ولسنا نعرف أيهما هي التي تزوجها قبل الأخرى .

وكما تزوج أمينوفيس الثالث أخت ملك ميتاني وبنته تزوج أخت الملك « كاليناسن » ملك بابل في عهده ، ثم طلب أن يتزوج بنته وكانت تسمى « زوهارتي » فتردد أبوها ودارت في ذلك رسائل عدة .

وليست هذه الرسائل موجودة كلها ولكن ما هو موجود منها يدل على باقيها . فقد وجدت رسالة من أمينوفيس الثالث إلى « كاليناسن » يقول فيها :



أسرى أسير يونان في مصر . وهم يعرفون بلحاهم وملا بسهم النقيبه . وفي مؤخرتهم أسيرة سورتيه تحمل طفلها على كنفها . وهم موثقو الأيدي .
 ويقودهم مصر يونان . وفي الصف الأدنى أسرى أسير يونان أيضا .
 (أنظر صفحه ١٨٥)

« اطلعت على الأقوال التي بعثت بها إلى . إنك تقول لي : كيف تطلب بتي للزواج منك على حين أن أختي التي أعطاك إياها والدي لا تزال عندك ، وما من أحد رآها بعد أن زوّجت منك ، فليس معروفا هل هي الآن حية أم ماتت » .

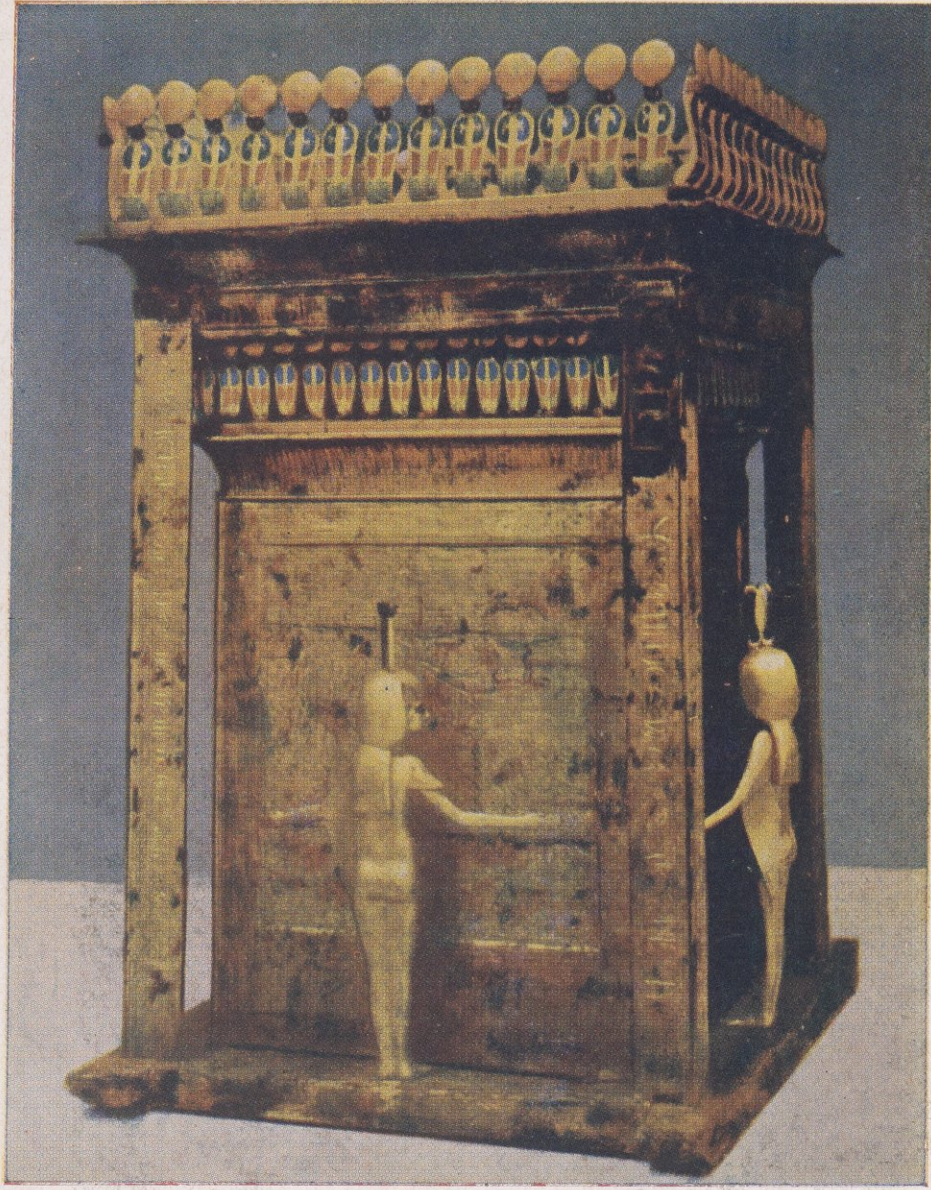
وهناك رسالة من « كاليناسن » يرد بها على أمينوفيس فيذكره بأنه كان قد أرسل رسولا يرى هل أخته لا تزال حية أم ماتت ، فأمر أمينوفيس بادخاله قصره فأدخل إلى حيث نساء القصر مجتمعات وقيل له « ها هي سيدتك بين هؤلاء » فلم يميز الرسول واحدة منهم ولم يعرف من هي سيدته .

وعلى هذه الرسالة أجاب أمينوفيس الثالث فقال :

« إنك لم ترسل رسولا كفؤا عرف أختك من قبل وحادثها ليتمكن أن يعرفها الآن ويتحدث معها . بل الرسل الذين جاءوا من عندك كانوا من طبقة وضیعة . ويكفي أن أضرب لك مثلا رسولك « زاجارا » الذي هو راعي ماشية قليلة . وليس بين رسلك واحد كان قد اقترب من أبيك » .



أسرى نوبيون في مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة (انظر ص ١٨٥)



صندوق لحفظ أحشاء الميت مصنوع من الخشب المذهب وتحيط به المعبودات إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت .
وهذه المعبودات مصنوعة من الخشب المذهب (من مخلفات توت عنخ آمون)

1000

فرد كاليناسن فقال :

« إنها أية امرأة من بنات النبلاء هي التي رآها رسلى عندك . إذ من يقول لهم إنها أختي » .

فرد أمينوفيس فقال :

« هب أن أختك ماتت فلماذا أخفى موتها عنك » .

هذا ما في رسائل تل العمارنة عن زواج أمينوفيس الثالث . أما ما فيها عن زواج ابنه أمينوفيس الرابع فهو أن أمينوفيس هذا طلب الأميرة « تادوخيا » إحدى بنات الملك دوشراتا ، أى نفس الملك الذى كان أبوه قد تزوج من أخته ومن إحدى بناته ، فأجاب دوشراتا على عجل يقول :

« تطلب ابنتي ؟ إننى أعطيك إياها » .

ولم يكن أمينوفيس الرابع قد تولى الملك حينما طلب هذا الطلب ، بل كان لا يزال أميراً وكان أبوه لا يزال حياً . والذى حمل هذا الطلب من مصر إلى مملكة ميتانى هو سفير مصرى يسمى « مانى » وحمل معه هدايا وكتاباً من أمينوفيس الثالث يقول فيه :

« إن ما أبعث به إليك الآن من الهدايا ليس شيئاً ... فان أنت أعطيت الفتاة التي أطلبها فسا أبعث إليك هدايا أكثر » .

وبعد أن قابل دوشراتا هذا السفير وقبل الهدايا التي حملها إليه كتب إلى أمينوفيس الرابع يقول :

« إن صداقة متينة تربطنى بوالدك ، فالآن ستكون محبتي لك ؛ أنت ولده ، أمتن » .

وفى إحدى الرسائل — أو بعبارة أخرى فى أحد قوالب الطوب المحفوظة الآن فى متحف برلين — بيان طويل بمهر الأميرة « تادوخيا » هذه التي تزوجها أمينوفيس الرابع .

ويظهر أن دوشراتا كان يطمع في هدايا جمّة من وراء هذا الزواج، وأنه لم يكتف بما جاءه منها، ولهذا جعل يشكو في إحدى رسائله من أن الهدايا التي وعد بها لم تصل إليه .

(٧)

وكانت الأميرة التي يتزوجها ملك مصر تخرج من بلادها في جمع كبير، بل في جموع كبيرة، من النساء والخدم . وكان هؤلاء النساء والخدم يرافقونها إلى مصر ويقيمون معها حاشية لها مدة من الزمن . فقد وجد منقوشا على جعران من عهد أمينوفيس الثالث أن ٣١٧ امرأة رافقن « كيلاجيا أميرة ميتاني » التي تزوجها أمينوفيس الثالث .

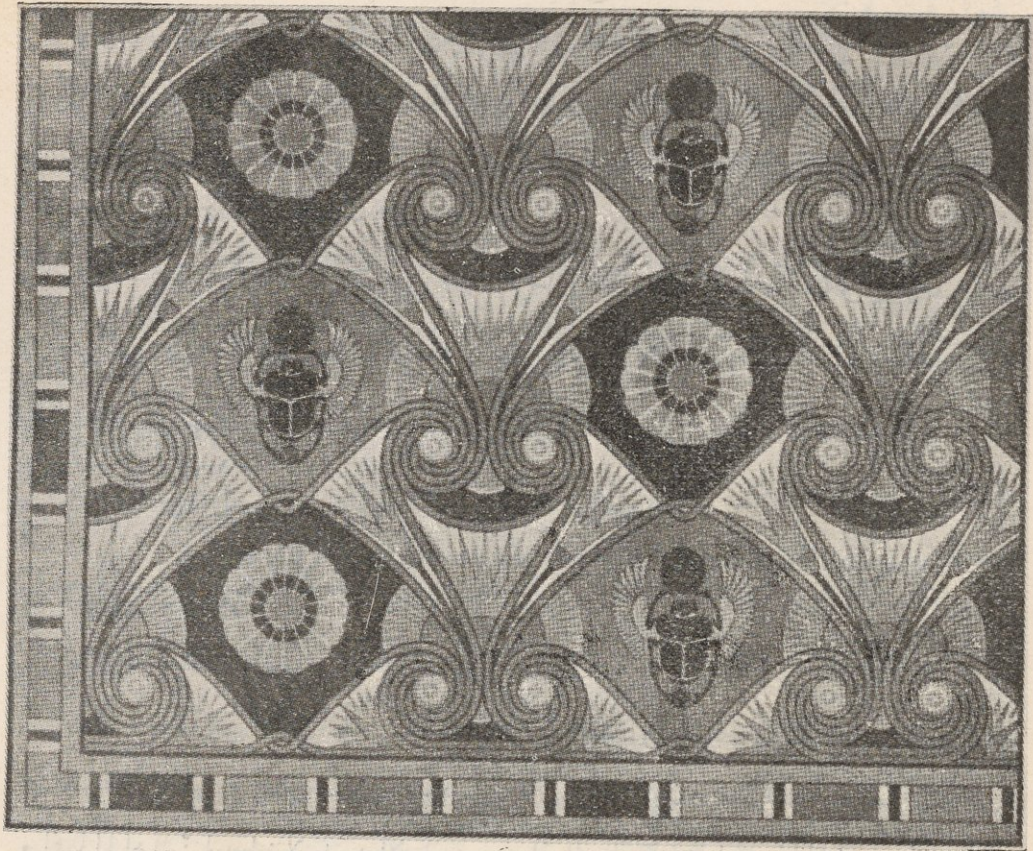
وقد مر أن أمينوفيس الثالث تزوج أخت الملك دوشراتا وبنته، فالأميرة كيلاجيا هذه هي إحدى هاتين الزوجتين .



قطعة من أرض القصر الذي بناه لنفسه الملك أخناتون (أمينوفيس الرابع) في مدينة اخيتاتون (تل العمارنة)

وكان من العادات المألوفة في ذلك الوقت أن تصنع جعارين باسم عروس الملك كلما تزوج . وكان نساء الأغنياء يتخذن من هذه الجعارين حليا لهن . ولهذا وجدت جعارين باسم الملكة تي بي حينما تزوجها أمينوفيس الثالث . ووجدت جعارين باسم كيلاجيبا التي تقدم ذكرها . ووجدت جعارين باسم غيرهما .

وليتصوّر القارئ بعد ذلك ٣١٧ امرأة قادمات مع كل عروس من بنات الملوك المجاورين لمصر تزف إلى فرعون . وإذا كان عدد القادمات من النساء ٣١٧ فكم يكون عدد القادمين من الرجال والغلمان لخدمتها وخدمتهن جميعا ؟ . وإذن ليتصوّر القارئ كيف يكون القصر أو تكون القصور التي يجب أن يقيم فيها هؤلاء الجموع مع أميرتهم !



سقف قبر لرجل من الكبراء يسمى راميس بالقرب من طيبة (الأسرة الثامنة عشرة)

وليس ريب في أن أكثر هؤلاء النساء والرجال كانوا يعودون إلى بلادهم بعد أن يحضروا حفلة الزفاف وبعد أن يقيموا بالقرب من أميرتهم وقتاً ما ، ولكن ليس ريب أيضاً في أن بعضاً منهم كانوا يستوطنون مصر معها .



رأينا فراعنة مصر يتزوجون بنات الملوك المجاورين لهم وأخواتهم ، فهل كان هؤلاء الملوك يتزوجون من بنات الفراعنة وقرباتهم ليتم التبادل بين الفريقين ، أم لم يكن هذا التبادل موجوداً ؟

هذا السؤال تجيب عليه رسالة كتبها ملك بابل إلى أمينوفيس الثالث وفيها يقول :
(١) « حينما طلبت يد ابنتك أرسلت إلى تقول : « لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر إلى أجنبي » فلها بلغتني هذه الكلمات أرسلت إليك أقول : « إذا أنت بعثت بها إلى وأنت آسف نخير عندي أن لا تبعث بها » . إنك لا تنظر إلى بعين العطف الأخوى ، وأنت تعلم مع ذلك أنك حينما كاشفتني برغبتك في أن تعقد بيني وبينك رباط زواج أجبتك إلى ما تريد وأظهرت في ذلك كل الطيبة التي يكنها أخ لأخيه . والآن يا أنخي ، وقد كاشفتك برغبتك في رباط زواج بيني وبينك لماذا تأبى بنتك علي ؟ لماذا ترفض أن تعطها لي ؟ لو أنني كنت قد رفضت إجابتك إلى رغبتك لكان الرفض من جانبك الآن مفهوماً . ولكن بناتي كن رهن أمرك ، وأنا لم أرفض لك طلباً » .

وقد علق الأستاذ موري على هذه الرسالة فقال إن الفراعنة كانوا يابون بناتهم وأخواتهم على حلفائهم ملوك آسيا ، لأنهم كانوا يرون أن بنات « الدم المقدس » أرفع من أن يهبطن إلى مضاجع هؤلاء الملوك .

(١) النص الفرنسي الذي لدينا لهذه الفقرة من هذا الكتاب هو :

Jamais la fille du roi d'Egypte n'a été donnée à personne.

وتعربها الحرفي هو :

« لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر إلى أحد » .

ولكننا وجدنا كلمتي « إلى أحد » هنا لا تدلان على المقصود . إذ بنات ملوك مصر كن يتزوجن في مصر فالقول بأنهن لم يعطين قط إلى أحد هو قول لا يمكن أن يكون مراداً للملك أمينوفيس الثالث . وإنما المراد أنهن لم يعطين لأحد من الأجانب . وسياق الرسالة كلها يجعل هذا المراد متعيناً . وأغلب الظن أن هنا خطأ في الترجمة من اللغة البابلية .



ومما يظهر ظهورا جليا في رسائل تل العمارنة أن الملوك المجاورين للامبراطورية المصرية كانوا ياجون على فرعون في طلب هدايا من الذهب فيقولون مثلاً :
« إرسل لي ذهباً ... سأبعث إليك بمن يأتيني بالذهب من عندك ... لقد كان أبوك يرسل إلى أبي كثيراً من الذهب ... فيجب أن ترسل لي مثل ما كان أبوك يرسل إلى أبي » .

وكان من الأقوال الشائعة في الممالك الآسيوية إذ ذاك « أن الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » .

ومن الكتب التي كتبها الملك بورنابورياش إلى أمينوفيس الرابع كتاب يقول فيه :

« جاء الرسول الذي بعثت به إلىّ ومعه عشرون وزنة من ذهب غير نقي ، فلها وضعت في البوتقة لم يخرج منها سوى خمس وزنات من ذهب نقي » .

ويظهر الملك بورنابورياش ألمه من ذلك ويطلب إرسال ذهب آخر .
وفي كتاب آخر يقول الملك بورنابورياش :

« إن سبائك الذهب التي لم يفحصها أختي قبل إرسالها إلىّ ، بعثت بها لتذاب في البوتقة فردّوها إلىّ ولم يقبلوها » .

وفي كثير من كتب الملك دوشراتا ، ملك ميتاني ، يتردد أيضاً الإلحاح في طلب الذهب من ملك مصر .



إلى هنا فرغنا من الرسائل الخاصة بالملوك المجاورين للامبراطورية المصرية ،
فأخذ الآن في درس الرسائل الخاصة بحكام فلسطين وسوريا .

كانت فلسطين وسوريا في الوقت الذي كتبت فيه رسائل تل العمارنة جزءا من الإمبراطورية المصرية . ولم تكونا ولاية واحدة أو ولايتين بل كانتا ولايات عدة يحكم كل ولاية منها حاكم مولى من قبل فرعون فهو يحكم باسمه ويدفع له الجزية . وكان هذا الحاكم يسمى "خازانو" . ويذهب بعض العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع إلى أن حملة هذا الاسم لم يكونوا مصريين بل كانت الفراعنة يختارونهم من الأسر القديمة ذات النفوذ في البلاد التي هم حكام عليها ، وكثيرا ما كان الفراعنة يفتحون المدن فيتقدم لهم حكامها بالطاعة والولاء فيقررونهم في حكوماتهم .

ولكن الفراعنة كانوا يطلبون من هؤلاء الحكام أن يرسلوا أبناءهم إلى طيبة ليتعلموا فيها ثم ليكون وجودهم في الحاشية الفرعونية ضمنا — إلى حد ما — على ولاء آبائهم . فاذا توفي هؤلاء الآباء خلفهم أبناءهم الذين تربوا في الحاشية الفرعونية . وعلى هؤلاء أن يرسلوا إلى مصر أبناءهم ليتربوا مثل تربيتهم .



سيدات مصريات في حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف المأكولات ، وفناة تقدم لإحدى السيدات إناء صغيرا فيه شراب ، وإحدى السيدات تلتفت إلى جارتها وتقدم لها زهرا ذارائحة زكية (هذه اللوحة موجودة في المتحف البريطاني بلندن)



تمثال للملك رمسيس الثاني من الجرانيت الأسود
(بمتحف تورين)

THE
LIBRARY
OF THE
MUSEUM
OF
ART AND
ARCHAEOLOGY
OF
THE
UNIVERSITY OF
CAMBRIDGE

وكان يوجد بجانب "الخازانو" مندوبون عن فرعون يراقبون سيرالحكومات ويلغون أوامر فرعون إليها . وهؤلاء المندوبون كانوا مصريين وكان اختصاص الواحد منهم يشمل في بعض الأوقات عدة مدن وعدة حكومات . وكان فرعون يشير إليهم في رسائله فيقول إنهم "عيون الملك وأذانه في البلاد الأجنبية" . وهذا تعبير لا يزال مستعملا إلى اليوم^(١) .

وكان هؤلاء المندوبون مرهوبى الجانب حتى كان أحد الحكام "الخازانو" يكتب إلى فرعون فيقول :

« ليسأل مولاي الملك جميع مندوبيه يعرف إلى أى حد أنا خادم له أمين » .

وكان غيره يكتب فيقول :

« ليسأل مولاي مندوبه يعرف هل ما أقوله صدق أم كذب » .

ولم تكن المدن كلها محكومة بهذا النوع من الحكم ، بل كانت توجد مدن لها حكم من نوع آخر ، يشبه الحكم الجمهورى ومن هذه المدن مدينة "أراد" ومدينة "تونيديو" ولهذا سيأتى أن أعيان كل واحدة من هاتين المدينتين كانوا يخاطبون فرعون ويعرضون عليه في رسائلهم ما يعرضونه من شؤون مدينتهم .

ولما كان الحكم الجمهورى لا يتحقق إلا بأن يكون هناك نوع من الاستقلال ، كانت كل واحدة من هاتين المدينتين حاصلة في عهد أمينوفيس الثالث وأمينوفيس

(١) ذكر في حجر محفوظ في متحف اللوفر يسمى « حجر انتيف » اسم ضابط بالقصر الملكى كان مناديا فوصف بأنه « لسان الملك » .

وفي أعمار أخرى وصف أشخاص أنفسهم بأنهم « عينا الملك » أو « عينا الملك في الأرض كلها » أو « عينا الملك اللتان تنفذان إلى الأحشاء » .

ويقول المؤرخ اليونانى زينفون (Xénéfon) إن ملوك الفرس كانوا يوفدون ضباطا يجولون في الولايات الواقعة تحت حكمهم ويراقبون أعمال الولاة فيها ، وإن هؤلاء الضباط كانوا يسمون « عينا الملك وأذناه » .

وواضح أن المصريين هم أول من استعمل هذا النوع من التعبير .

(٢) كتاب (Au temps des Pharaons) لمورى ص ٦١

الرابع — أى فى العهد الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة — على ما يسميه الانجليز الآن (Self government) أو الحكم الذاتى .

ولهذا قلنا فى ما تقدم إن المصريين عرفوا نظام الحكم الجمهورى الذى يظن كثير من الناس أنه لم يعرف قبل المدنية اليونانية . نعم إنهم طبقوه فى بلاد أجنبية ولم يطبقوه فى مصر ، ولكنهم عرفوه على كل حال . وهم قد عرفوا أيضا نظام الحكم الذاتى الذى يظن كثيرون أنه من اختراع العصور الحديثة .

ولست أنا الذى أقول هذا فأؤدى به شهادة لوطنى ، بل يقوله قبلى مورى ، فى كتابه الذى أشير إليه فى هامش الصفحة السابقة .



وأول ما يبرز فى رسائل الحكام (أى الخازانو) هو إظهار العبودية فى ألفاظ ومعان ليست مألوفة لأبناء العصور الحديثة . فواحد منهم يكتب :

«أنا خازانو مدينة خادمك ، وتراب قدميك ، والأرض التى تدوسها وخشب المقعد الذى تجلس عليه ، وكرسى قدميك ، وحافر جوادك^(١) . إننى أتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدمى الملك ، مولاي ، وشمس السماء » .

وحاكم آخر يكتب : «أنا خادم الملك ، وكلب بيته . إننى أحفظ البلد هنا لمولاي الملك » . وحاكم ثالث يسمى نفسه «خادم جواد فرعون» .

فى مثل هذه الألفاظ كان كثير من الحكام يكتبون . فملك مصر ليس سييدا فقط بل هو إله وشمس ، والحاكم لا يتقدم إليه بأقل من أن يكون تراب قدميه وحافر جياده والمتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدميه .

ويحسن أن نقول هنا إن فرعون كان ملكا وسليل آلهة فى آن واحد ، وإن الشمس كانت أحد الآلهة المصرية ، فالمعبود رع هو الشمس ، والمعبود أمون هو

(١) المراد بكرسى القدمين هنا الكرسى الصغير الذى يوضع أمام الكرسى العادى ليضع الجالس قدميه عليه . ويرى من ذلك أن هذا النوع من الكراسى كان مستعملا فى مصر فى ذلك الوقت .

الشمس ، والمعبود أتون هو قرص الشمس ، والفراعنة كانوا أبناء الدم الشمسى ،
فليس مستغربا أن يخاطب الحاكم فرعون فيقول إنه إلهه وشمسه .

ويحسن أن نقول أيضا إن « بروتوكول » المقابلات لفرعون كان يجعل الناس
طبقات . فمنهم من إذا أذن لهم بالدخول إلى مجلسه كانت تحيتهم له أن يخروا إلى
الأرض أمامه . ومنهم من كانوا ينحنون انحناء الركوع . ومنهم من كانوا يكتفون
بأن يحنوا رؤوسهم . وكان أغلب حكام سوريا يندمجون في الطبقتين الأولى
والثانية .



ومن رسائل تل العمارنة رسالة كتبها حاكم صيدا فقال فيها :

« أخبر مولاي الملك أن عبدته التى جعلها وديعة فى يدي ، وهى مدينة صيدا ، هادئة . وحينما وصل
إلى الأمر الذى أرسله مولاي الملك امتلا قلبى فرحا . وقد رفعت رأسى وفاض النور على وجهى وعينى
حينما قدم أمر مولاي الملك ... إن خادمك يبعث إليك مائة ثور ، ويبعث أيضا رقيقات . وهذا
إخبار بذلك للملك مولاي وشمس السماء » .

فهذه الرسالة تدل على أن الجزية التى كان حكام سوريا يرسلونها إلى فرعون
كانت تختلف باختلاف البلدان . فهى لبعض منها مصنوعات من المعادن الكريمة
كما يرى فى كثير من النقوش التى على الآثار المصرية ، وبعض آخر ثيران ورقيقات .

وكتب حاكم آخر فقال :

« أرسل إلى مولاي الملك ، وشمس السماء ، الرسول « هامايا » فهاء نذا أقول : لقد أصغيت لأمر
الملك بأعظم اهتمام ... وقد سرت أنا وجنودى وعرباقي وإخوتي إلى مقابلة رماته فى المكان الذى عينه
الملك » .

فيؤخذ من هذا أنه كان على الحاكم واجب نحو كل رسول لفرعون يجتاز
أرضه ، وهذا الواجب أن يرافقه فى أرضه بجنوده لأجل مساعدته ، إذا دعا
الأمر إلى مساعدة .

أما إذا كان فرعون نفسه هو الذى يحتاز أرضا فى سوريا فإن ما يفعله حاكم هذه الأرض يظهر من الرسالة الآتية :

« حينما علمت أن الملك عائد بجنوده العديدين إلى بلاده أرسلت إلى جيشه العظيم كثيرا من الماشية وكما من الزيت » .

فاذا كان الحاكم فقيرا أو كانت بلاده فقيرة فإنه يقدم ما يقدر عليه ثم يعتذر فيقول :

« ليعث مولاي الملك من يأخذ الزيت . فليس عندى خيول ولا عربات أسير بها إلى مقابلة الملك ، وقد أرسلت ابنى إلى بلاد مولاي الملك » .

ويلاحظ فى هذه الرسالة ، كما يلاحظ فى الرسائل الأخرى ، وكما يلاحظ فى رسائل ملوك بابل وأشور وألاريا وميتانى التى مرّت ، أن أصحابها قلما يستعملون ضمير الغائب حينما يشيرون إلى فرعون ، بل هم يكررون فى كل مناسبة كلمة « الملك » أو كلمتى « مولاي الملك » أو كلمة « أخى » .



وكانت الخصومات بين حكام سوريا قائمة قاعدة فكان بعضهم يعتدى على أراضى البعض الآخر ورجاله ، وحينئذ كان كل من المعتدى والمعتدى عليه يسارع فيشكو إلى فرعون ويطلب منه نجدة .

كتب أحدهم فقال :

« ليعلم مولاي الملك أن النهاين أثاروا هذه المدن ضدى ... إننى الآن أشبه طائرا فى نغ أو فى قفص ...
يرسل لى مولاي رماة مصريين » .

ولم تكن النجدة التى يطلبها هؤلاء الحكام كثيرة ، فحكم « مجدو »^(١) يطلب راميين اثنين ، وحكم « تير »^(٢) يطلب عشرين ، وحكم « ببلوس » يطلب أربعة ومعهم عشرون عربية . ولا تزيد أعظم نجدة طلبها واحد منهم على مائتين .

Tyr (٢)

Mageddo (١)

ويقول موري هنا إن هذه الطلبات تدل على أن ملوك مصر لم تكن لهم في سوريا حاميات مصرية. ويخالفه في ذلك برستيد فيذكر أنهم كانت لهم حاميات. وربما كان الصواب أن الحاميات كانت موجودة ولكنها لم تكن في كل مدينة ولا عند كل حاكم، بل كانت في أماكن قليلة متباعدة، فلم يكن من السهل أن يلجأ الحكام إليها كلها اختصموا، وهم في كل يوم يختصمون، وكان من الضروري مع ذلك أن يلجأوا إلى فرعون لأن الحاميات لم يكن لها أن تنصر واحدا منهم على آخر بغير أمر منه. وفي بعض رسائل تل العمارنة ما يؤيد رأينا هذا.

وعلى كل حال فإن الشواهد تدل على أن قلة الحاميات المصرية في سوريا كانت نقطة من نقط الضعف في الحكم المصري. وأن هذه القلة كانت السبب في احتياج الفراغنة إلى سوق الجيوش من وقت إلى وقت لاطفاء ثورة أولرد هجوم على الحدود أو لغير ذلك من الأعمال الحربية.



والآن ننتقل إلى مأساة تدل عليها رسائل تل العمارنة وهي انحلال الأطراف الآسيوية من الإمبراطورية المصرية في عهد أخناتون بسبب انصرافه إلى ثورته الدينية وانقسام البلاد من جراء هذه الثورة.

حينما صعد أمينوفيس الرابع إلى العرش كانت مملكة في آسيا الصغرى تسمى مملكة خيتاس أو مملكة الحيثيين قد امتد سلطانها بجانب الممالك المحالفة لمصر. ولكن ملك هذه المملكة — ويسمى « سبل » — كان يسعى إلى اكتساب صداقة مصر فأرسل إلى أمينوفيس الرابع حين توليه العرش رسالة يهنئه بها. ثم لما انتقل أمينوفيس إلى عاصمته الجديدة أخيتاتون وسمى نفسه أخناتون أرسل إليه سبل رسالة أخرى يسأله فيها لماذا قطع مراسلته.

فهذا السؤال من الملك سبل يحملنا على الظن بأن اشتغال أخناتون بثورته الدينية لم يكن يدع له وقتا للاهتمام بعلاقاته مع الملوك.

وعلى أثر هذه الثورة أو بعدها بقليل شرعت قبائل من الحيثيين تغير على الحدود السورية ، وشرع بعض حكام سوريا يتآمرون مع الحيثيين . وكان من هؤلاء الحكام حاكم لمدينة عمورية يسمى « عزىرو » فأغار باتفاقه مع الحيثيين على الأراضى المجاورة له وقتل ثلاثة من الحكام . ثم لما علم أن خبره وصل إلى أخناتون أراد أن يخدعه فكتب إليه رسالة يتبرأ فيها من تهمة الخيانة ويؤكد أنه لا يزال وفيا لفرعون ويعتذر بأنه لم يفعل غير أن دافع عن نفسه ويقول :

« إن أعيان مدينة « سومورى »^(١) هم الذين لم يتركوا فى سلام . فأنا لم أقترف وزرا فى حق مولاى » .

وفى رسائل تل العمارنة جواب على هذه الرسالة ليس من أخناتون بل من شخص آخر (لم يوجد اسمه) يتبدى فى مخاطبة عزىرو بقوله :

« باسم الملك مولاك ، إلى حاكم مدينة عمورية » .

ومن هذه الكلمات يرى أن أخناتون لم يجب بنفسه بل كلف شخصا من المقربين إليه أن يجيب باسمه ، ويرى أيضا أن هذا الجواب كتب من صورتين أحدهما أرسلت إلى عزىرو والثانية حفظت فى وزارة الخارجية الفرعونية وهى التى توجد الآن بين أيدينا .

وفى هذا الجواب يقول الكاتب :

« لا شك أنك لست مع الملك مولاك . فان أردت أن تخضع للأك فستكون مكافأتك عند الملك عظيمة . أما إذا بقيت على ما أنت عليه فالعصيان فى قلبك وستموت أنت وأهلك .

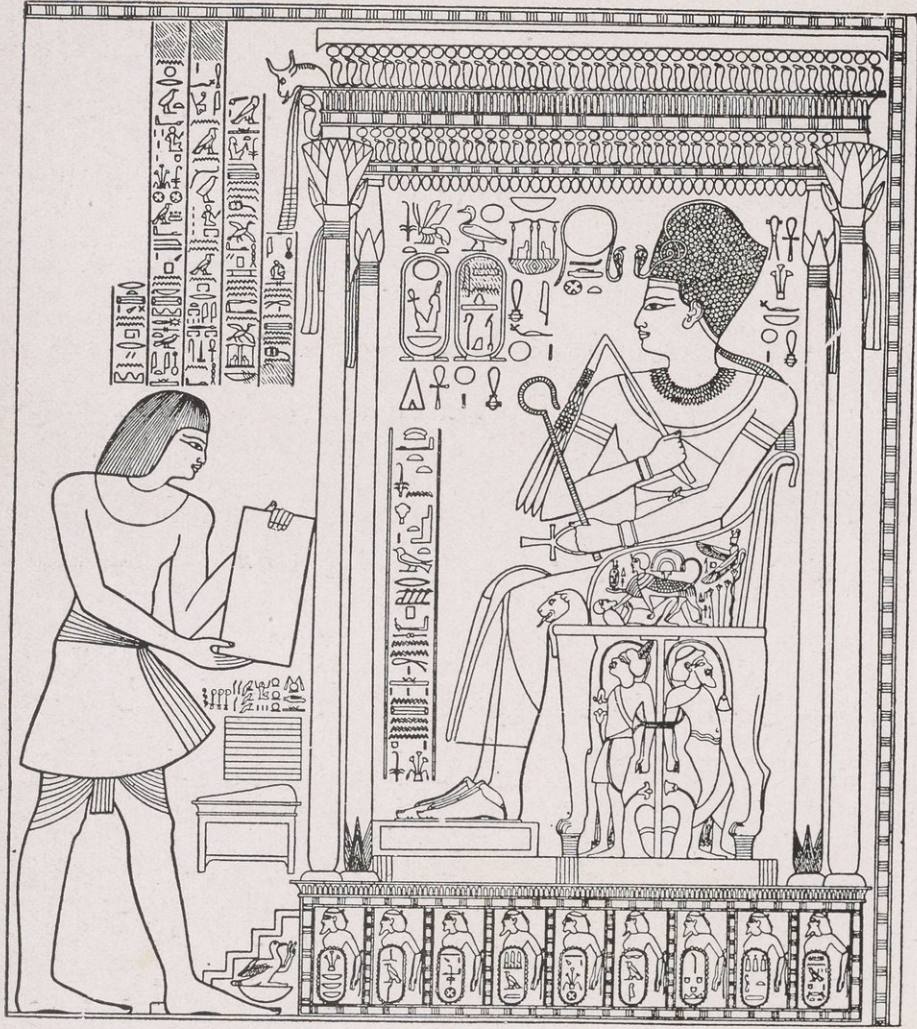
« إخضع للأك مولاى لتعيش إنى أقول لك : أترك قمة هذا الجبل وامض إلى مقابلة^(٢) الملك مولاك ، أو أرسل ابنك إلى الملك . أليس لك ابن يمكن أن يذهب إليه ؟ ... اعلم أن الملك قوى كالشمس فى السماء وأن جنوده وعرباته عديدة فى البلاد العالية والبلاد الواطئة ومن مشرق الشمس إلى مغربها » .

(١) لم نجد لهذه المدينة (Soumourey) موقعا فى الخرائط القديمة التى بين أيدينا ولعلها سامراء .

(٢) يظهر من هذا أن عزىرو كان قد احتفى فى قمة جبل .

(٣) لعل المراد بالبلاد العالية الجبال وبالبلاد الواطئة السهول .

الملك أمينوفيس الثالث



الملك أمينوفيس الثالث جالسا على عرشه وفي يده الصولجان والكر باج وقد تقدّم له وزيره ببيان الجزيات التي جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارينا وبلاد أسيوية أخرى خاضعة لمصر . ويلاحظ أن العرش الذي يجلس عليه أمينوفيس الثالث مرسوم على جانبه أسيران أسيويان مشدودان بحبل وفي أسفل قاعدته تسعة أسرى أسيويين شدّ كل منهم إلى حبل خلفه وكتب اسم بلده على صدره . وهذه الرسوم كلها تشير إلى البلاد التي كانت تحكمها مصر في آسيا والتي كانت تؤدي الجزية لأمينوفيس الثالث .

100. 100. 100.

وكان عزيزو ذا دهاء ومكر فلما تلقى هذا الجواب لم يرد عليه بالرفض بل كتب إلى فرعون يقول إنه سيقدم إليه مع ابنه . ثم مضت أيام ولم يقدم ، فكتب يقول إنه قادم . ثم مضت أيام أخرى ولم يقدم ، فكتب يقول إنه تحرك للقـدوم ، ولكنه أضاع إلى ذلك أن الحِيثين يهاجمون مدينة «تونيـبو» وتساءل من يدافع عنها في غيابه . قال :

«إني أنا وابنـي خادمان وفيان للملك فسنسافر أنا وابنـي في الحال... ليكن مولاي الملك على ثقة من أنني أسارع إلى إطاعة أوامره ، ولكن الملك كلّفني أن أدافع عن أراضيـه وها هو ملك الحِيثين قد صار في أرض نوحاسي وفي مدينة تونيـبو ... إني خائف على بلاد مولاي » .



فنانان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية في حفلة يبنها سيدة من سيدات
الحفلة جالسة وفناة تقدّم لها شرابا

وبينما كان عزيزو يكتب هذا كان أعيان مدينة تونيبو يكتبون إلى فرعون رسالة بعد رسالة مستصرخين مستغيثين ، لأن عزيزو يداهمهم ويضيق الخناق عليهم باتفاقه مع الحيثيين . قال هؤلاء الأعيان في إحدى رسائلهم :

« إلى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو عبيدك ندعوك بالسعادة الكاملة ونسقط على قدميك .
« مولانا . إن خادمك مدينة تونيبو تقول : من هو الذي كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيبو من غير أن يجازيه « مناخير يا »^(١) بمثل ما فعل فيها .

« إن آلهة سيدنا ملك مصر وتماثيله موجودة في تونيبو . ليسأل مولانا في ذلك من هم لديه من الشيوخ يعرف هل الذي نقوله هنا صحيح أولا ... إذا لم تدر كما جنود مولانا ملك مصر وعرباته قبل ضياع الوقت فان عزيزو يعاملنا كما عامل مدينة « في » . وحينئذ لا نبكي وحدنا بل يبكي ملك مصر معنا من جرائم عزيزو . لأن عزيزو سيد ير يومئذ ذراعه ضد مولانا ومتى دخل مدينة سوموري فسيفعل بنا ما يشاء » .

وفي رسالة أخرى قال أعيان تونيبو :

« من هو الذي ميز تونيبو ورفع قدرها ؟ أليس هو أمينوفيس الثالث ؟ ... لقد أرسلنا من قبل عشرين رسالة إلى مولانا الملك وبقى رسلنا عند مولانا .
« والآن فان مدينتك تونيبو تبكي ، ودموعها تجري ، وليس من ينصرنا .
« لقد كتبنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم يأتنا رد واحد من عند مولانا » .

وسقطت مدينة تونيبو من غير أن يتحرك أخناتون لينجدها . وزحف عزيزو بعد ذلك على ببلوس مع الحيثيين فكتب حاكمها إلى أخناتون رسالة بعد رسالة . وثار حكام آخرون وتحالفوا مع الحيثيين فدارت المعارك بين الحيثيين وهؤلاء المتآمرين من جانب ، ومع الحكام الباقين على الولاء لمصر من جانب آخر ، ففاز الأقولون وانهزم الآخرون ، وفقدت مصر كل أملاكها في سوريا وأكثر أملاكها في فلسطين دون أن ينهض أخناتون للدفاع عنها . ثم لما نهض بعد ضياع الفرصة لم يقدر مدى ما وقع فأرسل قوة صغيرة فلم تكد تظهر في الميدان حتى انهزمت .

(١) يرجح برستيد أن يكون اسم « مناخير يا » هذا لقبا لتحتس الثالث .

لوحة صيد الأسود

اللوحة رقم ٢ (ص ١٦)

لوحة من حجر الشيست تمثل خروج جماعة من المصريين لصيد الأسود وبعض الحيوانات المتوحشة الأخرى . وهذه اللوحة موجودة في المتحف البريطاني . وهي ترجع إلى ما قبل عصر الأسر .

والمعنى المستفاد من هذه اللوحة أن المصريين كانوا قد بدأوا في ذلك العهد يتألفون جماعات لكل جماعة شارة خاصة ، ولهذا يرى أمام هؤلاء الصيادين رجال منهم يحملون شارات . ومن هذه الشارات الصقر الذى صار بعد ذلك المعبود حوريس . ويستدل العلماء بهذا ، وبغيره ، على أن كثيرا من المعبودات المصرية كانت في أول أمرها شارات تتميز بها الجماعات في بدء تكوينها .

قبيلة من كنعان

تفد إلى مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة

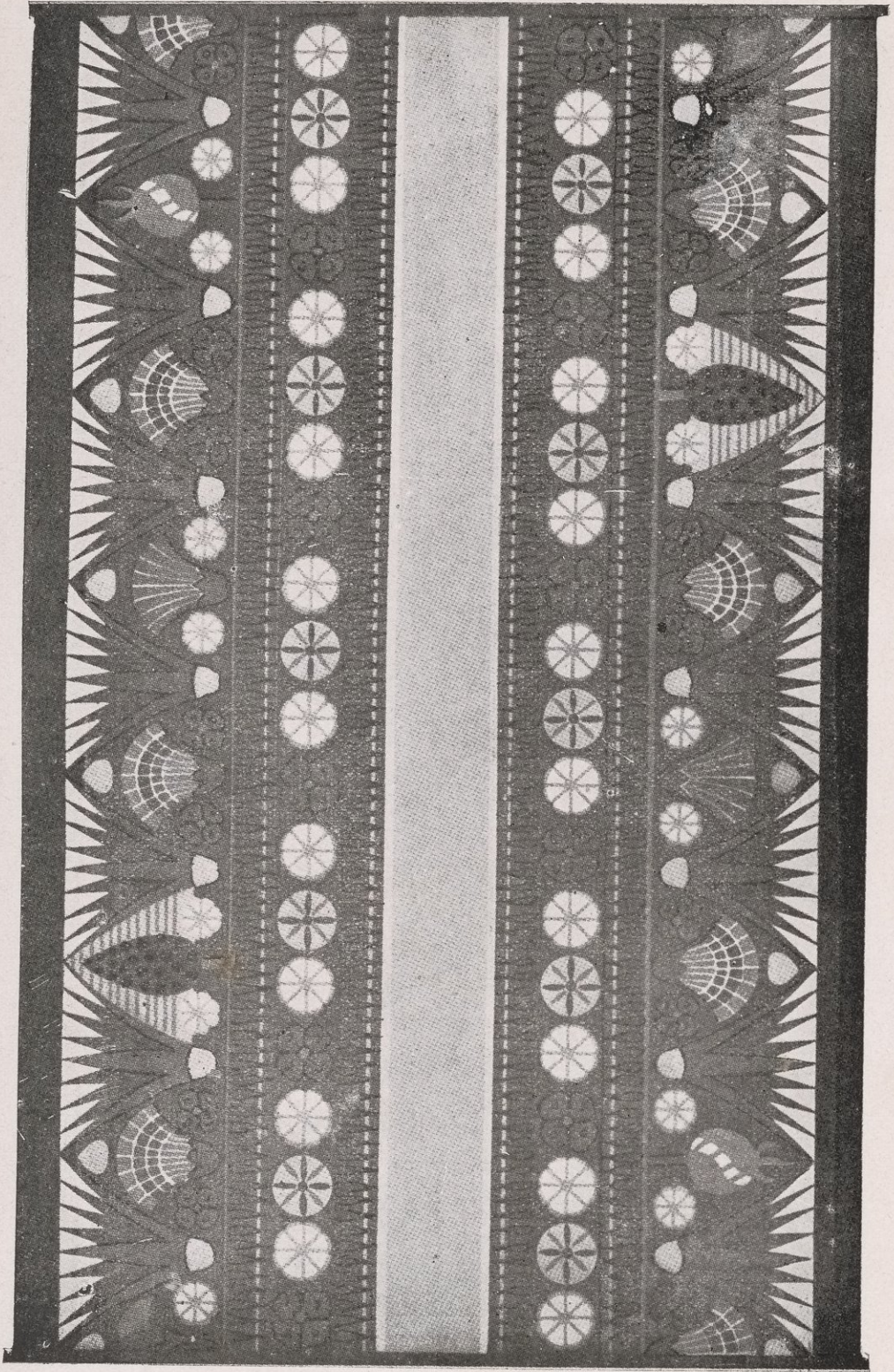
اللوحة رقم ٨ (ص ٥٨)

في السنة السادسة من حكم سنوسريت الثاني (الأسرة الثانية عشرة) ، أى في نحو سنة ١٩٠٠ ق م ، وفدت إلى مصر قبيلة من أرض كنعان مؤلفة من ٣٧ شخصا بين رجال ونساء وأطفال ، ووصلت إلى إقليم الغزالة ، وهناك استقبلها موظف مصرى اسمه « خيتى » ثم قادها إلى حاكم الاقليم الأمير « خنومهو تيپو » فأحسن مقابلتها وأقطعها أرضا تقيم فيها وأمر فصور الرسامون هذا الحادث ، في بعض المقابر الموجودة الآن في قرية تعرف بقرية بنى حسن ، في ثلاث صور هى التى نقلناها في اللوحة رقم ٨ في ص (٥٨)

ففى الصورة الأولى رئيس القبيلة القادمة يمسك تيسا صغيرا ليقدمه هدية للأمير . وأمامه موظفان مصريان يقودانه وأحدهما هو الذى يتولى تقديمه . واسم هذا الرئيس « إيبشا » . والموظف الأول يمسك في يده لوحة صغيرة مكتوب فيها : « جماعة من الآمو عددهم ٣٧ جاءوا يقدمون للأمير مسحوق الأنتيموان من البلاد الجرداء » . والمراد « بالآمو » الأسيويون البدو . والمراد « بالبلاد الجرداء » الصحراء . وفى الصورة الثانية بعض رجال القبيلة يحملون قسيا وسهاما ومعهم تيس ثان وحمار يحمل أمتعة وصبيين .

وفى الصورة الثالثة أربع نساء يتقدمهن صبي يحمل سهمما . ومن خلفهن حمار يحمل أمتعة ورجل يحمل آلة موسيقية يوقع عليها وهو ماش ثم رجل آخر يحمل قوسا وسهما .

وقد كان شامپوليون الشاب أول من أذاع هذه الصور الثلاث بعد أن نقلها من مقابر بنى حسن ، وذهب إلى أن هذه القبيلة التى وفدت إلى مصر من اليونانيين



زينة السقف في قبر « نيزي » — با — نوفرسي « في عهد الأسرة الثامنة عشرة . والذي يلاحظ فيها أنها زينة قبر وأن صاحب القبر واحد من الأمراء ، ربما كان غنيا ولكنه لم يكن ملكا . وفي هذا دليل على أن المصريين كانوا مولعين بزينة بيوتهم بالرسوم الفنية الجميلة ، وأن حياتهم في هذا العهد كانت حياة فائق ورخاء

100-10000

الأقدمين . ولكن بعض العلماء خالفوه في ذلك وذهبوا إلى أن هذه القبيلة قد تكون هي بعينها قبيلة النبي يعقوب وأولاده الذين قدموا إلى مصر ، أو على الأقل قبيلة من القبائل الاسرائيلية . غير أن هذه الآراء كلها لا تخرج عن التخمين لأنها لا تستند إلى دليل .

وأغاب ظننا أن وفود هذه القبيلة لم يكن الحادث الفذ الذي حدث من هذا النوع بل كانت له أشباه تتجدد بتجدد السنين والشهور ، لأن القبائل الآسيوية التي كانت ضاربة على حدود مصر الشرقية في سيناء وكنعان كانت تفد على مصر كلما عجزها الجوع لتلتئم العيش والمأوى . فوفود تلك القبيلة لم يكن إلا واحدا من حوادث متعددة متجددة ، ولكنه عرف لأن الأمير « خنومهو تيو » أمر بتصويره على جدران القبور أما الحوادث الأخرى فلم تعرف لأنها لم تصور .

فى سوق البىع والشراء

اللوحة رقم ٩ (ص ٦٨)

كان من العادات الجارية فى مصر أن تقام فى كثير من المدن ، أسواق عامة للبيع والشراء ، يوما فى كل أسبوع ، عدا الأسواق المستمرة كل يوم فى الدكاكين ومحلات التجارة والصناعة . وكانت لهذه الأسواق أمكنة معينة فى كل مدينة ، فإذا أوشكت الشمس على الشروق خف أهل القرى المجاورة إلى مكان السوق ومعهم السلع التى يريدون بيعها أو المبادلة بها . وكان البيع يجرى فى أغلب الحالات ، بطريق المبادلة عينا بعين .

وكان باعة الخراف والأوز والماعز والثيران يتوسطون السوق ، أما باعة البقول والخضر والأسماك والطيور والغزلان والقلل والأوانى الفخارية وأصحاب الصناعات الصغيرة فكانوا يجلسون فى جوانب السوق .

والصورة التى فى هذه اللوحة تمثل بعض مناظر السوق وما كان يجرى فيها .
ففى المنظر الأيمن من الصف الأعلى يرى رجل جالس وأمامه إناء كبير يحتوى على حقاق فيها طيب وأشياء ذات روائح زكية وقد وقف أمامه رجلان وشرع أحدهما يساومه فعرض عليه حذاء يمسكه فى يده اليمنى وقال له : « دونك زوجا من الحذاء المتين » . ولكن بائع الطيب لم تعجبه هذه المبادلة لأنه لم يكن راغبا فى الحذاء فطلب عقدا كان مع المشتري فى يده اليسرى وشرع يفحصه ثم أخذ بيده حقا من حقاق الطيب وقال للمشتري : « هذا هو الزكى الجميل حينما تصب منه نقط قليلة » .

وفى المنظر الثانى بائع سمك وقفت أمامه امرأة تحمل صندوقا صغيرا فيه ما تريد أن تبادل به السمك . وهى تطلب من البائع خفض الثمن الذى يحدده .

وفي المنظر الثالث امرأة في يديها حقان وقد دفعت باحدهما تحت أنف رجل جالس وشرعت تقول له : « إليك هذه الرائحة الجميلة التي تجعلك شهوة للنفوس » .

وأما الصف الثاني ففي المنظر الأيمن منه يرى بائع جالسا وأمامه سلة كبيرة في جانب منها بصل وفي الجانب الآخر قمح ، وقد وقف أمامه رجلان ، فالأول منهما يمد إليه يده بعقد من الزجاج ويقول له : « إليك عقدا جميلا يعجبك ولا شك في أنه هو الذي تريده » . أما الثاني فيمسك في يده اليمنى مروحة وفي يده اليسرى منفاخا ويقول للبائع : « إليك مروحة ومنفاخا » . ويرد البائع على أول الرجلين فيتناول العقد الذي قدمه له ويقول : « هات لأرى ماذا يساوي » .

وفي المنظر الثاني رجلان يتناقشان في ثمن سنانير يمسكها واحد منهما في يده اليمنى وسوار يمسكه في يده اليسرى .

وفي المنظر الثالث امرأة تساوم بائع عقود مختلفة ومعها علبة تحمل فيها ما تريد أن تبادل به في هذه المساومة .

على هذا النحو كانت تجرى المبادلات في أغلب الحالات . فإذا كان المبيع شيئا غالى الثمن كالثور وجب أن يكون العوض أشياء كثيرة مختلفة تدون في ورقة . وقد وجدت أوراق من هذا النوع بيع فيها ثور أو حمار بعوض من أسرة وعصى وعسل وزيت ومعادن وملابس .

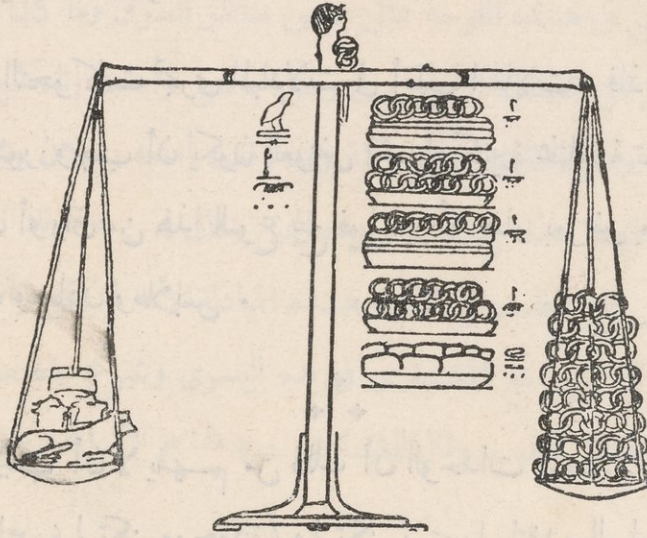


على أنه يجب أن لا يفهم من ذلك أن الوحدات المعدنية ، من الذهب والفضة والنحاس ، لم تكن موجودة ، ولم تكن تستعمل لتقدير السلع في المعاملات . كلا بل كانت هذه الوحدات موجودة ، ولكنها كانت قليلة الاستعمال . وقد وجد عقد بيع في عهد الأسرة الرابعة (أى في نحو سنة ٢٧٠٠ ق م بحساب التاريخ القصير) باع به صاحب بيت بيته بثمن قدره « ١٠ شات » (Sha أو Shat)

ويرى موسى في كتابه : (Histoire Ancienne de l'Orient) ص ٧٦٣ المطبوع في سنة ١٩٣٦ أن « شا أو شات » هذه معناها « قطعة من المعدن » ، وهذا المعدن قد يكون الذهب أو الفضة أو البرنز .

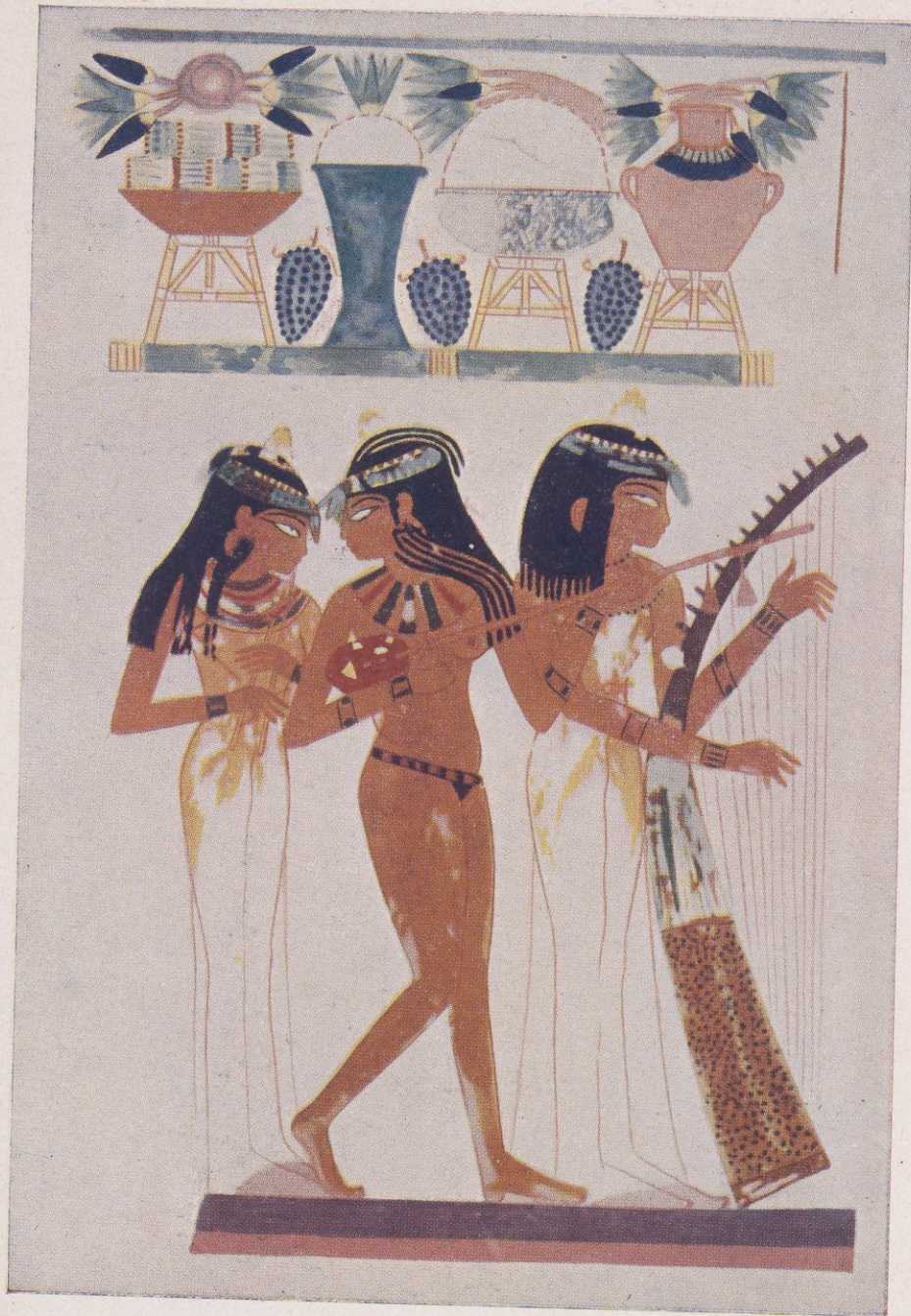
ولم تظهر هذه الكلمة بعد ظهورها في ذلك العقد ، إلا في عصر الدولة الحديثة ، إذ كانت تقدر بها السلع وأجرة العبيد . وحينئذ كانت قطعة الشات تعادل $\frac{1}{13}$ من وحدة معدنية أخرى تسمى « دين » وبعض العلماء يقرأ هذا الاسم « تابنو » . وكانت قطعة الدين تعادل ٩١ جراما تقريبا . وكانت تصنع على شكل حلقات من الذهب أو الفضة أو البرنز أو النحاس . ولكن كانت حلقات الفضة قليلة لأن هذا المعدن نفسه كان قليلا .

وكانت وحدات المعادن تصنع أيضا على شكل سبائك لها رؤوس حيوانات . وكانت تسمى حينئذ « بيكونيا » (Pecunia) . وهذه السبائك كانت تستعمل لوزن الحلقات المعدنية .



ميزان الذهب وغيره من المعادن . وفي إحدى الكفتين سبائك لها رؤوس حيوانات وتسمى « بيكونيا » وفي الكفة الثانية حلقات توزن . فكان سبائك « البيكونيا » موازين لوزن الحلقات التي يجري بها التعامل

(١) هذا الكتاب هو آخر ما طبع من كتب موسى قبيل وفاته .



راقصات موسيقيات من بنات طيبة (قبر ناخت) وإحداهن تنفخ في الناي والثانية تضرب على آلة
تشبه «العود» المعروف الآن والثالثة تضرب على قيثارة

100-10000

وكان لوزن المعادن ميزان خاص دقيق وجدت صورته على جدران معبد
الدير البحري وهو الذي تجدد صورته في الصفحة السابقة، وتجد في إحدى كفتيه
سبائك من البيكونيا توزن بها حلقات معدنية موضوعة في الكفة الأخرى .

فيرى من ذلك أن استعمال الوحدات المعدنية أساسا للتعامل ، كما تستعمل
النقود الآن ، كان معروفا منذ الأسرة الرابعة ، ولكنه كان قليلا كما قلنا لأن الفلاح
صاحب السلعة كان يخشى دائما أن يقع غش في نوع المعدن ، أو في مقداره ،
أو في وزنه . ولهذا كان التعامل به يقتضى قبل كل شئ فحص النوع والمقدار
والوزن ، وهذه كلها عمليات قد يقوم في كل منها بين البائع والمشتري كثير من
الخلاف .

واستمر الحال على هذا إلى أن حكم دارا ملك الفرس مصر ، وكان قد صنع
في بلاده نقودا نقش اسمه عليها وسمها « الداريات » نسبة إليه ، فأدخلها في مصر
وأوجب التعامل بها .

حصاد القمح وتخزينه

اللوحة رقم ١٥ (ص ١١٤)

في الصف الأعلى : الفلاحون يقطعون القمح بالمناجل ، بينما واحد منهم ينفخ في المزمار لتسليتهم وتشجيعهم على العمل ، وبينما زميل لهذا الأخير واقف أمامه يغني على نغمات المزمار . وهناك فلاح آخر يحمل قربة فيها شراب ليسقي من يريد الشرب . ومن وقت إلى آخر يريد رئيسهم الواقف في أقصى اليسار أن يحثهم على العمل فيقول : « من منكم يتم عمله في وقته فيستطيع أن يقول هاءنذا أقول لك ولرفاق إنكم جميعا كسالى » .

ويقدم حامل القربة شرابه للظمانين قائلا : « أليس هذا الشراب لذيذا » .
فيرد عليه الشارب قائلا : « نعم إن جعة السيد ألد من فطيرة الذرة » .

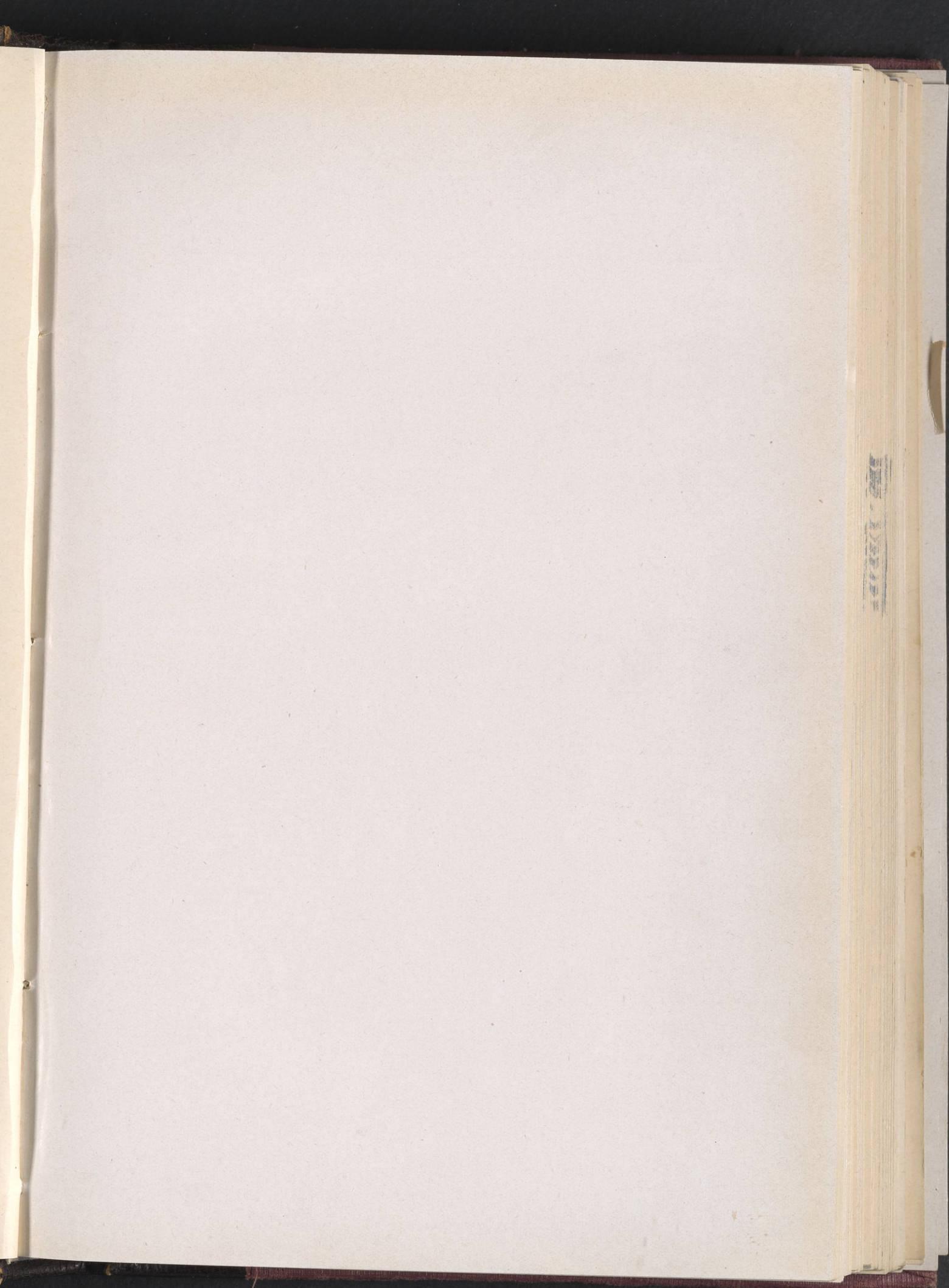
وفي الصف الثاني : الفلاحون يسوقون الحمير ليحملوا عليها أحمال القمح .
بينما اثنان من العمال يجهزان الأحمال .

وهنا يغني الفلاحون أغنية جديدة موجهة إلى الحمير فيقولون : « الابتعاد عن الصف جزاؤه الربط بالحبل ، والتمرغ في الأرض جزاؤه الضرب . هيا إذن » .

وفي الصف الثالث : الحمير وقد حملت الأحمال وسارت بها . وترى في أقصى يمين حمارة محملة وبنتها تسير أمامها . وفي أقصى اليسار حمار يأبى التقدم ليحمل حملة فيجره الفلاح من قدمه .



الملك سيتي الأول يقدم تمثال إلهة الحق والعدل « معات » للإله أوزيريس
(معبد سيتي الأول بأبيدوس)



شيخ البلد

اللوحة رقم ١٧ (ص ١٣٢)

تمثال كا آيبرو المعروف باسم شيخ البلد . والسبب في تسميته بهذا الاسم أن العمال المصريين لما عثروا عليه وأخرجوه من التراب وجدوه شديد الشبه بشيخ بلدهم فصاحوا يقولون ها هو ذا شيخ البلد . وسمع العالم الأثرى الذى كان يدير الحفر صياحهم هذا فرأى أن يطلق عليه اسم شيخ البلد .

والتمثال مصنوع من الخشب ولذلك استطاع الصانع المصرى أن يظهر فيه براعة ممتازة وأن يصور دقائق الوجه والنظرات والجسم تصويرا رائعا . وقد كتب عنه ما سيرو في ص ٨٧ من كتابه :

Histoire Générale de l'Art.

فقال :

« لو أن معرضا فتح في مكان ما لتعرض فيه روائع الفن في العالم كله ، لكان هذا التمثال واحدا من التماثيل التى أبعث بها إليه تمجيذا للفن المصرى » .

خريطة الامبراطورية المصرية في آسيا (أنظر ص ٢٢١)

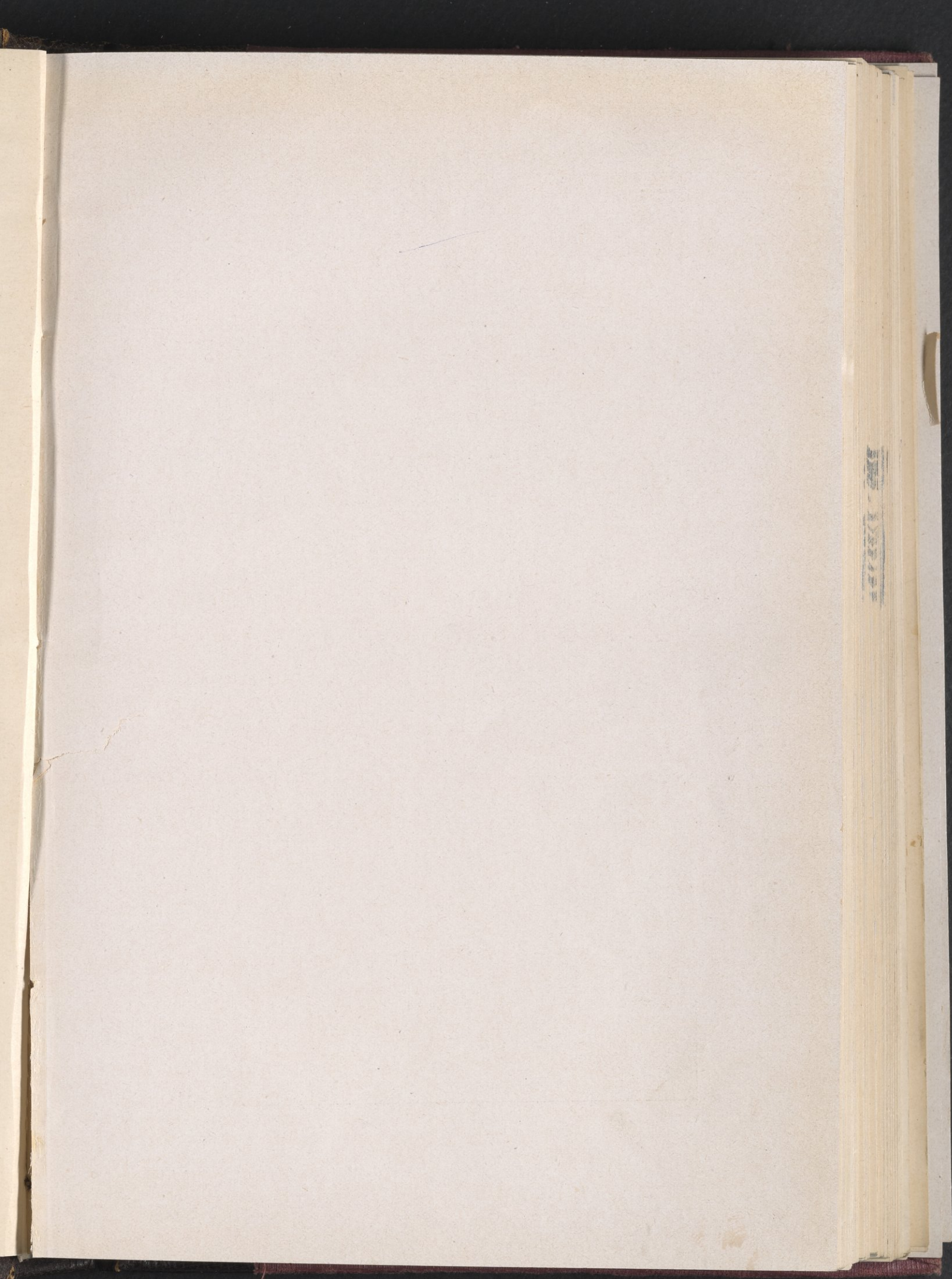


الإمبراطورية المصرية فى آسيا

يجمع العلماء على أن الإمبراطورية التى أنشأتها مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة
هى أولى الإمبراطوريات فى العالم كله . وكانت تمتد من الشلال الرابع فى النوبة ،
أو من خلفه بقليل ، إلى ما وراء نهر الفرات . وكانت تدخل تحت حمايتها مملكة
الآزيا ومملكة ميتانى ومملكة نحارينا . ثم كانت مملكة آشوريا ومملكة كاردنياش
(أو مملكة الكلدان) تعيشان فى ظل الصداقة معها وتقديم الهدايا لفرعون .
ثم كانت هذه الإمبراطورية تبسط جناحها على الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى
من البحر الأبيض المتوسط الذى كان يسمى البحر الأخضر الكبير . وكانت مملكة
خيتاس ، وأهلها هم الذين تسميهم التوراة الحيثيين ، هى التى عقدت مع رمسيس
الثانى معاهدة صداقة وتحالف بعد حرب طويلة . والخريطة المرسومة فى الصفحة
السابقة هى الجزء الأسوى من الإمبراطورية المصرية ، وهذا الجزء هو الذى تبادل
ملوكه وحكامه رسائل تل العمارنة مع أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع .



الملك رمسيس الثاني على عربته الحربية يطلق سهمه في ساحة الوخي ومن خلفه ثلاث عربات
(وهذه الصورة موجودة في معبد أبي سنبل)



ملحق

للتقويم المصرى

قلنا فى البحث الذى عقدناه للتقويم المصرى إنه كان يوجد فرق مقداره ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة بين هذا التقويم ودورة الشعرى اليمانية ، وإن هذا الفرق القليل كان يحدث أثره على ممر السنين . ثم قلنا :

« ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم فى السنة ، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله » .

فنضيف هنا إلى ذلك أن عالما اسمه ويل (R. Wiell) استطاع أن يجمع أخيرا من أوراق البردى وجدران المعابد نصوصا تثبت أن الكهنة ورجال الحكومة المصريين كانوا يصلحون التقويم بما يزيل منه ذلك الفرق القليل ويجعله ثابتا غير متغير .

وهذه النصوص التى جمعها ويل تشتمل على أيام محددة لحفلات موسمية زراعية طبقا للتقويم ، وأمام كل واحد منها اليوم المقابل له طبقا لدورة الشعرى اليمانية . وقد دل البحث على أن الحساب فى هذه الأيام الأخيرة صحيح ، ومنه يستنتج أنهم كانوا يعدلون التقويم بما يزيل النقص منه .

وقد كتب فى ذلك مورى فى كتابه (Histoire de l' Orient) فى ص ١١٠ و ١١١ فذكر أن الاعتقاد كان سائدا « بأن المصريين سكتوا على هذا الاختلاف

المكدر بين السنة في تقويمهم والسنة الفلكية » . ثم أشار موري إلى النصـوص التي جمعها ويل ، وقال :

« فبين أيدينا ، منذ العهد الذي كانت فيه طيبة قاعدة لللك ، جداول بأعياد دينية مكتوبة على البردى أو منقوشة على المعابد ، وقد عينت فيها الأيام طبقا للتقويم الناقص وعين أمام كل واحد من هذه الأيام اليوم المقابل له تعيينا صحيحا ، بحسب دورة الشعري اليمانية . فالكهنة ورجال الحكومة كانوا إذئ يستعملون تقويما ثابتا قائما على هذه الدورة التي مدتها ٣٦٥ يوما وربع يوم . وفي هذا التقويم الثابت كانت حفلات المواسم الزراعية تقع في أيام ثابتة بالنسبة لفصول السنة الطبيعية ولنظام العالم . فكيف يمكن حساب هذا التقويم إلا بإضافة يوم سادس إلى الأيام الاضافية الخمسة كل أربع سنوات » .

(١)

ومما يستحق الذكر هنا — وقد ذكره موري — أن العالم ميير عرض للتقويم المصري في كتاب له عن « تاريخ مصر » فذهب إلى أن من المستبعد أن يكون المصريون قد أغفلوا الفرق الذي بينه وبين دورة الشعري اليمانية . ولكنه لم يستطع أن يقدم برهانا على قوله هذا . وجاراه في ذلك العالم سبت^(٢) وتوسع فيه ولكنه لم يقدم ، هو أيضا ، برهانا حاسما . فما كان يفترضه ميير افتراضا ويؤيده فيه سبت ، صار الآن أمرا صحيحا تثبته النصـوص .

وفي سنة ٢٣٨ ق . م أصدر بطليموس الثالث المسمى « ايفرجيت » أمرا يعرف عند العلماء « بالأمر الكانوبي » بتعديل التقويم . ويقضى هذا الأمر « بإضافة يوم كل أربع سنوات إلى الأيام الخمسة الأضافية ، لكي تجرى فصول السنة على قاعدة لا تتحول ولا تختلف بالنسبة لنظام العالم ، فيمتنع بذلك أن تجيء في فصل الصيف مواعيد حفلات يجب أن تقام في الشتاء بسبب تقدم كوكب الشعري اليمانية في دورته يوما في كل أربع سنوات ، ويمتنع أيضا أن تجيء

(١) (Ed. Meyer) عالم ألماني من كبار المصـرولوجيين ، وهو القائل بالتاريخ القصير ، وقد أخذه عنه فريق كبير من العلماء .
(٢) (K. Sethe) هو عالم ألماني أيضا من كبار المصـرولوجيين .

في الشتاء مواعيد حفلات يجب أن تقام في الصيف . وهذا ما حدث من قبل ولا بد أن يحدث إذا بقيت السنة مكونة من ٣٦٠ يوما وخمسة أيام إضافية » .

فهذا الأمر الذي أصدره بطليموس الثالث هو تعديل للتقويم ، ولكنه ليس جديدا ، بل هو تنفيذ لعرف قديم كان جاريا منذ العهد الطيبي ، وكان الكهنة ورجال الحكومة يدونونه في سجلاتهم أو ينقشونه على جدران المعابد . ومن هذا كله يتضح أن يوليوس قيصر لما جاء إلى مصر وحمل التقويم منها إلى روما ، لم تفعل فيه روما غير ما كانت مصر نفسها قد فعلته من قبلها بأكثر من ألف سنة .

حاشية — أشرنا في هذا الملحق إلى النصوص التي جمعها « ويل » فنذكر هنا عنوان كتابه الذي جمعها فيه وهو : Bases, méthodes et résultats de la chronologie égyptienne

ص ١١٢ و ١١٣ و ١٢٨ و ١٧٣

تصحيح

ذكر في الصفحة ٤٣ ما يأتي :

« لما جرى النيل أخذت جموع من الإنسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع . ولكن من المباحث التي بحثها يرستيد أنه حفر في مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا في بعض النقط و ٣٠ مترا في بعضها الآخر ... فحسب يرستيد فوجد أن الإنسان الذي عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأواني والقوالب يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت . ولا يزال باب البحث في هذا الموضوع مفتوحا ولا تزال الكلمة الأخيرة فيه متروكة للمستقبل » .

فهنا سقط اسم كان يجب أن يذكر ، لأن صاحبه هو الذي تولى الحفر عند مدخل الدلتا وعثر على الجمجمة على عمق ٣٠ مترا . وصاحب هذا الاسم هو شوينفورت (Schweinfurth) . أما يرستيد فقد درس نتائج هذا الحفر وحسب طبقات الطمي التي يكسوها النيل أرض الدلتا كل سنة ، فوجد أن الإنسان الذي عاش حيث وجدت تلك الجمجمة يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت .

فهرس الصور الداخلة فى المتن

الصور التى فى هذا الكتاب نوعان : أولهما الصور الداخلة فى المتن ، والثانى اللوحات التى لا تدخل فى المتن والمطبوعة على ورق خاص . فالفهرس الذى نذكره هنا هو فهرس النوع الأول من الصور .

صفحة	
١٤	المعبود النيل...
٢٠	جندى سورى فى مشرب مصرى يشرب بواسطة غابة...
٢٥	حجر بالرم...
٣٦	لوحة نعمر . أحد وجهيها
٣٧	لوحة نعمر . وجهيها الثانى
٧٥	البرج الذى نزع من معبد دندرة ونقل إلى باريس
٨٠	شامبوليون الشاب كاشف الحروف الهيروغليفية...
٨٦	إيمانويل دى روجى
٨٨	لى بيج رينوف
٩٤	الملك سبتى الأول جالسا وأمامه مائدة القرايين ومن خلفه روحه المسمى « كا »
٩٨	أوزيريس الإله الأكبر لمحاكمة الأموات...
١٣٩	الخط الديموطيقى المصرى...
١٤١	الخط الهيروغليفى المصرى أو الخط المقدس
١٤٣	الخط الهيراطيقى المصرى...
	رسالة من رسائل تل العمارنة تحتوى على تفصيلات مهر الأميرة تادوخيا بنت دوشراتا ملك ميتانى
١٧٨	وقد تزوجها الملك أمينوفيس الثالث
	قطعتان من أرض قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى بي فى طيبة وهما تمثلان طيرا من الأوز
١٨٩	بين أزهار اللوتس
١٩٣	قطعة من سقف لغرفة فى قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى بي فى طيبة
١٩٥	أسرى أسيو يون فى مصر...

صفحة

- ١٩٦ أسرى نوبيون في مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة ...
 قطعة من أرض القصر الذى بناه لنفسه الملك أخناتون (أمينوفيس الرابع) في مدينة أخيتاتون
- ١٩٨ (تل العمارنة)
- ١٩٩ سقف قبر لرجل من الكبراء اسمه راميس بالقرب من طيبة (الأسرة الثامنة عشرة) ...
 سيدات مصريات في حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف المأكولات ، وفنأة تقدم لإحدى
 السيدات إناء صغيرا فيه شراب ، وإحدى السيدات تلفت إلى جاريتها وتقدم لها زهرا
- ٢٠٢ ذا رائحة زكية ...
 فتاتان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية في حفلة ، بينما سيدة من سيدات
- ٢٠٩ الحفلة جالسة وفنأة تقدم لها شرابا
- ٢١٧ ميزان الذهب وغيره من المعادن
- ٢٢٠ خريطة الامبراطورية المصرية في آسيا في عهد الأسرة الثامنة عشرة

فهرس اللوحات الخارجة عن المتن

صفحة

١٠

لوحة رقم ١ :

أدوات مصنوعة من العظام وجدت في حفائر مرمدة بنى سلامة ، وأدوات من النحاس وجدت في مقابر نقادة ، وترجع إلى ما قبل عصر الأسر .

• أوان من الفخار ترجع إلى حضارة البدارى .

آنية من الفخار ترجع إلى عصر ما قبل الأسر وعليها رسوم طيور وأشخاص وسفينة تحمل شارة على ساريتها .

١٦

لوحة رقم ٢ :

• صيد الأسود .

٢٢

لوحة رقم ٣ :

• امرأتان تنسجان .

• عمال يشتغلون في تسوية الأحجار وتنظيفها بعد قطعها من الجبل .

٣٢

لوحة رقم ٤ :

حدادان واقفان على منفاخين متصلين بموقد للنار يستعمل لصهر الحديد . وفى يد كل من الحدادين حبلان يحرك بهما منفاخه بينما زميل لهما يحرك النار في الموقد .

مصنع أحذية من الجلد . ويرى فيه أربعة من الرجال يعملون في هذه الصناعة . وترى أيضا أحذية تم صنعها فعلقت في أعلى المكان .

٤٠

لوحة رقم ٥ :

• بعض الألعاب الرياضية للجنود المصريين .

• رقص حربى يرقصه الجنود المصريون قبيل المعركة . وترى في أيديهم القسي والسهام .

٤٦

لوحة رقم ٦ :

• المشاة الخفيفة والمشاة الثقيلة من الجيش المصرى في عهد الأسرة الحادية عشرة .

٥٠

لوحة رقم ٧ :

• الكاهن رع — نوفر (في عصر الأسرة الخامسة) ويعتبر تمثاله هذا من روائع الفن

• في العهد المنفيسى .

لوحة رقم ٨ :

- قبيلة من كنعان تفد إلى مصر • رئيس القبيلة يتقدمه موظفان مصريان •
- بعض رجال القبيلة •
- بعض سيدات القبيلة •

لوحة رقم ٩ :

- سوق البيع والشراء •

لوحة رقم ١٠ :

- الملك خفرع ومن خلف رأسه حوريس في شكل صقر يسطر جناحيه حول عنقه إشارة إلى أنه يحميه • وهذا التمثال مصنوع من حجر الديوريت الذى هو من أصلب الأحجار ، حتى لقد قال العلماء إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أية آلات هى التى استخدمها المصريون فى نحته •
- وصنع هذا التمثال بهذه الدقة يعتبر دليلا على أن فن النحت بلغ الذروة فى العهد الممفيسى •

لوحة رقم ١١ :

- الكاتب المصرى وقد تربع ونشر ملغما من البردى وتأهب للقراءة أو الكتابة • وقد وجد هذا التمثال فى مقابر صقارة التى ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة • وهو يوجد الآن بالمتحف المصرى •
- فلاحان يرويان حديقة بالشادوف الذى لا يزال مستعملا إلى الآن •

لوحة رقم ١٢ :

- الكاتب المصرى المحفوظ فى متحف اللوفر وقد نشر ملغما من البردى وأخذ القلم بين أصابعه وتأهب للكتابة •

لوحة رقم ١٣ : (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) •

- الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى ، ترى إلى اليسار جالسة فى قبرها تتسلى بلعب الشطرنج • وأمام القبر روحها المسمى « با » رأسه كراسها وجسمه جسم طير •
- وأمام هذا الروح يوجد روحها الثانى المسمى « كا » وقد نفذ يديه من لعب الشطرنج وخرج من القبر وركع ليصلى للشمس •

لوحة رقم ١٤ : (ملونة بمثل الألوان التى وجدت بها فى ورقة من البردى محفوظة ١٠٦

- فى المتحف المصرى)

صفحة

صورة عقيدة الحساب عند المصريين . ويرى فيها الميزان والإله أنوبيس يحتره .
وفي إحدى الكفتين قلب الميت وفي الكفة الأخرى ريشة الحق والعدل . ويرى
بجانب الميزان الإله توت وفي يده قلم وفي اليد الأخرى لوح أو سجل وهو يقدم
لأوزيريس تقريراً عن ميت تمت عملية وزن قلبه . وبجانبه الوحش أمايت
في جسم كلب ورأس حوت مستعداً لالتهام الروح الذي يصدر الأمر بعقابه .
ويرى أوزيريس جالساً على عرشه .

لوحه رقم ١٥ : ١١٤

حصاد القمح وتخزينه .

لوحه رقم ١٦ : ١٢٤

الملك أمينوفيس الثالث وزوجته الملكة تي بي .

لوحه رقم ١٧ : ١٣٢

شيخ البلد .

لوحه رقم ١٨ : ١٣٨

تمثال من حجر الشيست للـك تحوتمس الثالث أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهو يلعب
بنايليون مصر .

لوحه رقم ١٩ : ١٤٨

ملك من ملوك مصر في عصر الإمبراطورية المصرية جالساً على عرشه يستقبل مندوبين
من آسيا جاء كل منهم يحمل إليه جزية من بلاده . ويرى موظف مصري لابس
ملابس بيضاء يدخلهم على الملك ويقدمهم له واحداً بعد آخر .

لوحه رقم ٢٠ : ١٥٦

عصابة من الذهب للـك توت عنخ أمون — علبة من الذهب تعلوها مرآة
(من مخلفات الملك توت عنخ أمون) .

لوحه رقم ٢١ : ١٦٤

إناء من الرخام الشفاف صنع في عهد الأسرة الثامنة عشرة، وهو موجود بالمتحف
المصري بين مخلفات توت عنخ أمون .
إناء من المرمر (من مخلفات توت عنخ أمون) .

صفحة

١٧٢

لوحة رقم ٢٢ :

إناء مصنوع من المرمر على شكل تيس (من مخلقات توت عنخ أمون) — مروحة مثبتة على قاعدة من الذهب ، ويرى في المروحة رسم ملك مصر يحمل في عربته على أعدائه (من مخلقات توت عنخ أمون) .

١٧٨

لوحة رقم ٢٣ :

تمثال نصفي للملكة نفرتيتي زوجة الملك أمينوفيس الرابع أو أخناتون . وهذا التمثال موجود في متحف القاهرة وهو غير التمثال الموجود للملكة في متحف برلين .

١٨٤

لوحة رقم ٢٤ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) :

صورة مركب مصنوعة من المرمر ومطعمة بحجارة ملونة . وفي مقدمها ومؤخرها رأسان طبيعيان لحيوانيين حديثي السن ثبتا في المرمر (من مخلقات توت عنخ أمون) .

١٩٠

لوحة رقم ٢٥ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) :

كرسي الملك توت عنخ أمون مصنوع من الخشب المذهب . وقد رسمت على مسنده الملكة واقفة أمام الملك .

١٩٦

لوحة رقم ٢٦ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) :

صندوق لحفظ أحشاء الميت مصنوع من الخشب المذهب وتحيط به المعبودات إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت . وهذه المعبودات مصنوعة من الخشب المذهب (من مخلقات توت عنخ أمون) .

٢٠٢

لوحة رقم ٢٧ :

تمثال للملك رمسيس الثاني من الجرانيت الأسود .

٢٠٨

لوحة رقم ٢٨ :

الملك أمينوفيس الثالث على عرشه وفي يده الصولجان والكر باج (وبعض العلماء يرى أن هذا الأخير مذبة وليس كراباج) ، وقد تقدم له وزيره ببيان الجزيات التي جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارين وبلاد أسبوية أخرى .

٢١٢

لوحة رقم ٢٩ :

زينة السقف في قبر « نيزي — با — نوفرهر » في عهد الأسرة الثامنة عشرة . والذي يلاحظ فيها أنها زينة قبر وأن صاحبها واحد من الأمراء ، ربما كان غنيا ولكنه لم يكن ملكا .

صفحة

وفي هذا دليل على أن المصريين كانوا مولعين بتزيين بيوتهم بالرسوم الفنية الجميلة ،
وأن حياتهم في هذا العهد كانت حياة تألق ورخاء .

لوحة رقم ٣٠ (ملقونة بمثل ألوانها الأصلية) : ٢١٦

راقصات موسيقيات من بنات طيبة : وإحداهن تنفخ في الناي ، والثانية تضرب على آلة
تشبه «العود» المعروف الآن ، والثالثة تضرب على قيثارة .

لوحة رقم ٣١ : ٢١٨

الملك سبتي الأول يقدم تمثال إلهة الحق والعدل « معات » للإله أوزيريس .

لوحة رقم ٣٢ : ٢٢٢

الملك رمسيس الثاني على عربته الحربية يطلق سهمه في ساحة الوغى ومن خلفه
ثلاث عربات .

فهرس المواد

صفحة

تمهيد ٣ — ٣٢

كيف كتبت هذا الكتاب — نحن وتاريخنا القديم — كيف شاعت عن مصر القديمة خرافات مكذوبة عليها — المدنية المصرية لم تقم على هذه الخرافات بل قامت على أسس علمية وخلقية سليمة — المصريين وعقائدهم الدينية — المصريون عرفوا التوحيد وعرفوا التثليث وقالوا فيه مثل ما يقوله فيه الآن علماء اللاهوت المسيحيون — خرافة ولادة النيل بين « سين » و « ايلفتين » وجران شطر منه إلى مصر والشرط الآخر إلى النوبة — هيرودوت لم يفهم المرأة المصرية — دعاوى أخرى لهيرودوت على المصريين غير صحيحة — المجتمع المصرى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة — خرافة الأيام السعيدة والأيام المشؤومة — نشيد النيل — خرافة عروس النيل والأدلة على كذبها .

المدنية المصرية، هل نبتت فى مصر أو طرأت عليها من الكلدان ؟ ٣٣ — ٥٧

العصر الحجري فى مصر وبحوث العلماء فيه — أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين هما اللتان كانت الأسباب الطبيعية المجتمعة فيهما تجعلهما أصلح للحياة من غيرهما ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمم العالم الأخرى لا تزال على الحالة البدائية — وادى نهر الهندوس يشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة فى هذه الميزة — الأمطار والغابات والأشجار والحيوانات فى صحراء أفريقيا الكبرى — تحول ذلك كله إلى أواسط أفريقيا ووجود نهر النيل — إنسان وادى النيل فى عصر الحجر غير المصقول ثم فى عصر الحجر المصقول — الإنسان فى مصر واستخلاص نباتات الشعير والذرة والقمح من النباتات الوحشية — اختراع الكتابة المصرية — النيل هو الذى جمع المصريين حوله ثم رباهم وعلمهم حتى أخرجهم من حالة الوحشية إلى حالة المدنية — قصة « أتباع حوريس » المنقوشة على معبد إدفو لا تصلح سندا للقائلين بغزو الكلدان لمصر — وجوه الشبه بين المدنية الكلدانية والمدنية المصرية ليست دليلا على هذا الغزو وإنما هى دليل على اتصال كل من هاتين المدينتين بالأخرى — المصريون لم يتعلموا استعمال معدنى النحاس والذهب من الكلدانيين — المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر .

صفحة

التقويم المصرى ٥٩-٦٧

التقويم القمري — المصريون يدركون ما فيه من العيوب فيضعون التقويم الشمسى —
تقسيم السنة إلى ١٢ شهرا كل شهر منها ٣٠ يوما ، ثم إضافة ٥ أيام إليها —
تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة أشهر وتقسيم الشهر إلى ثلاثة
أثلاث كل ثلاث منها عشرة أيام — الخطأ في هذا الحساب لم يكن سوى ٦ ساعات
وبضع دقائق في السنة بدل ما يقرب من أحد عشر يوما في التقويم القمري —
ظهور هذا الخطأ على ممر السنين — أغلب الظن أن علماء هليو بوليس هم الذين
وضعوا التقويم الشمسى — ما تركه لنا المصريون عن الفروق بين تقويمهم الذى
تبلغ السنة فيه ٣٦٥ يوما وبين دورات كوكب الشعرى اليمانية والتواريخ التى يمكن
الاهتداء بها إليها — التقويم المصرى كان موجودا فى المدة من سنة ٤٢٤١
إلى سنة ٤٢٣٨ ق م . أى قبل حكم الملك منا بأكثر من ألف سنة — هذا
التقويم هو الذى حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما وهو الذى أدخل عليه مجمع
الكرادلة فى سنة ١٥٨٢ تعديلا طفيفا وسماه التقويم الجريجورى ، وهو الذى
يستعمله العالم الآن .

معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية ٦٩-٨٩

التوراة وتسلسل الأجيال — اعتقاد الكنيسة أن أقصى المدة من آدم إلى إبراهيم ثم من
إبراهيم إلى عيسى لا يزيد على ٥٥٨٩ سنة — ديوى يدرس البروج المصرية
ويقول إن عمرها يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة — العلماء المرافقون لنا بلبون فى مصر
يدرسون بروج دندرة وإسنا ويقولون إن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف
سنة — نشوب المعركة بين أنصار الكنيسة وأنصار الآثار المصرية — برج دندرة ينقل
إلى فرنسا فيحدث نقله دوى فى أوربا — شامبوليون الشاب يثبت أن بروج دندرة
وإسنا بنيت فى عهد الرومانيين وبذلك انتصرت الكنيسة — تجدد المعركة بعد ذلك
على يد شامبوليون الشاب نفسه — شامبوليون فى إيطاليا — شامبوليون فى مصر —
الآثار المصرية تهدم عقيدة الكنيسة — إيمانويل دى روجى يخلف شامبوليون
وينتصر لقدم الآثار المصرية — لى بيج رينوف ينتصر لها أيضا فى إنجلترا ولبسيوس
فى ألمانيا — الكنيسة تراجع نفسها فتنبذ عقيدتها وتفسر التوراة تفسيرا جديدا
لتخرج من التصادم مع الآثار المصرية .

عقيدة الحساب بعد الموت

اعتقاد المصريين منذ أقدم العصور أن للإنسان روحا يحيا بعد موت الجسم حياة أخرى -- نوعان من الروح أحدهما يسمى « كا » والثاني يسمى « با » — قصة ساتني وولده وزيارتهما للدار التي يحاسب فيها الأموات — رواية ديودور الصقلي عن محاسبة الأموات عند المصريين — مافي نصوص الأهرام عن عقيدة الحساب — عبادة أوزيريس وحساب الميت عن أعماله في الدنيا — كتاب الموتى وعقيدة الحساب — الدفاع الإنكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه أمام محكمة أوزيريس — تأثير هذه العقيدة في نفوس المصريين — مصير الميت بعد محاسبته على أعماله في الدنيا — كيف كان المصريون يتصورون الثواب والعقاب — الصيغ السحرية ومسماها بعقيدة الحساب — هذه الصيغ لم تفسد الإيمان الدينى — وصية ملك من ملوك الأسرة التاسعة لابنه الملك « مرى — كا — رع » — أمنية « با — هيرى » فى الوصول إلى النعيم الخالد — عظة الحكيم « بىكى » — ماذا عرفت المدنية الكلدانية من عقيدة الحساب — ماذا عرفت المدنية اليونانية منها — هومير حاول أن يقتبسها فقصر — الشاعر اليونانى بندار يواصل هذا الاقتباس ناقصا — الفيلسوف أفلاطون الذى تعلم فى مصر يست هذا النقص .

المدنية اليونانية وأثر المدنية المصرية فيها — اقتباسات هومير من الأساطير

والآداب المصرية ١٢٥ - ١٥٦

قارئ العلوم والآداب اليونانية لا يجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقبسة من مصر ولا يقف فيها على أسماء لعلماء مصريين ولا على نتائج كان لهم فى علم أو فن أو أدب — الاعتقاد بأن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها ولم تقتبس شيئا من المدنية المصرية لأن هذه المدنية لم تنتج شيئا — ولكن التاريخ الصادق يحدثنا باتصال اليونانيين بمصر اتصالا وثيقا حين نشوء مدينتهم — المؤرخ اليونانى ديودور الصقلي يذكر أسماء العلماء اليونانيين الذين أقاموا فى مصر — الكاتب اليونانى بلوطرك يذكر العلماء اليونانيين الذين عاشوا فى مصر على أوثق اتصال بكهنتها ويذكر أسماء ثلاثة أساتذة مصريين تلقوا العلم عليهم — البحث منذ أربعين سنة فى هل الآداب والديانات

صفحة

اليونانية فيها أثر من الآداب والديانات المصرية — بحث فيكتور بيرار (Victor Berard) في الياذة هومير وأوديسه — قصة « الغريق » المصرية التي عثر عليها جولنيشيف وترجمها — جولنيشيف ومورى يظهران اقتباسات هومير من هذه القصة في الأوديسة — اقتباس هومير من أسطورة إيزيس وأوزيريس — بول فوكار — أحد عشاق المدنية اليونانية يثبت أن ما عرف في الديانة اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » ليس سوى عبادة إيزيس المصرية لابسة ثوبا يونانيا .

قصة الغريق ١٥٧ — ١٧١

كيف عثر جولنيشيف على هذه القصة وترجمها إلى الفرنسية — القصة نفسها مترجمة إلى اللغة العربية — تعليقات على القصة — الفكرة في هذه القصة هي الفكرة في قصة السندباد البحري في قصص « ألف ليلة وليلة » العربية وفي قصص « روبنصون كروزو » الإنجليزية — أسلوب الكاتب المصري وأسلوب التوراة .

رسائل سياسية وغير سياسية في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، بين ملوك مصر والملوك المجاورين لهم ، ثم بين ملوك مصر وحكام فلسطين

وسوريا ١٧٢ — ٢١٠

قوائم الطوب التي عثر عليها في تل العمارنة — البحث يدل على أن هذه القوائم رسائل سياسية — أمينوفيس الرابع ومدينة خوتاتون — مسلك المصريين مع الأمم التي كانوا يفتحون بلادها — كيف كانوا يعاملون أسرى الحرب . وكيف كانت الأمم الأخرى تعامل الأسرى — نظرة عامة في رسائل تل العمارنة — المصريون عرفوا سياسة الحماية المستترة بسنار المخالفة — المصريون عرفوا أيضا نظام الجمهورية قبل أن تعرفه المدنية اليونانية — كتب من ملك الألازيا وملك ميتاني وملك أشور إلى ملك مصر — كتاب من بورنا بور ياش ملك كاردنياش (بابل) إلى ملك مصر — كتاب من دوشراتا ملك ميتاني إلى أمينوفيس الرابع — كتاب من ملك غير معروف (يظن أنه ملك بابل) إلى أمينوفيس الرابع — كتاب آخر من بورنا بور ياش ملك بابل إلى أمينوفيس الرابع — الرسائل الخاصة بمصاهرات ملوك مصر للترك المجاورين لهم — رسائل بين أمينوفيس الثالث والملك كاليئاسن

صفحة

حول زواج الأول بأخت الثاني — رسائل بين أمينوفيس الرابع ودوشرانا ملك
ميتاني حول زواج الأول ببنت الثاني — رسالة من ملك بابل إلى أمينوفيس الثالث
يقول فيها إنه لما طلب هذا الأخير مصاهرته أجابه إلى طلبه ولكنه لما طلب
هو بعد ذلك أن يزوجه ابنته رفض — إلحاح الملوك الآسيويين في طلب الذهب
من ملك مصر — كيف كانت العلاقات بين الفراعنة وحكام سوريا في عهد
الإمبراطورية المصرية — رسائل بعض هؤلاء الحكام إلى ملك مصر —
رسالتان من حاكم صيدا ومن حكام آخرين — رسائل من حكام يطلبون نجات
من ملك مصر — رسائل خاصة بانقراط عقد الإمبراطورية المصرية في عهد
اختاتون (أمينوفيس الرابع) بسبب انصرافه إلى ثورته الدينية على المعبود آمون .

٢٢٣ ملحق للتقويم المصرى

نصوص عثر عليها أخيرا تدل على أن الكهنة ورجال الحكومة كانوا يدونون أيام المواسم
الزراعية طبقا للتقويم وأمام كل واحد منها اليوم المعادل له طبقا لدورة الشجرى
اليمانية — « الأمر الكانوبى » الذى أصدره بطليموس الثالث بتعديل التقويم
على أساس اضافة يوم كل أربع سنوات إلى الخمسة الأيام الاضافية .

٢٢٧ تصحيح



٢٤	١٧
١٧	١٤
١٧	٢١

كَمَل طبع المجلد الأول من كتاب "على هامش التاريخ المصرى القديم"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٩ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩
محمد نديم (٢٥ يوليه سنة ١٩٤٠) م

ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

B

1987

1005 643 5001



6

]

6

6

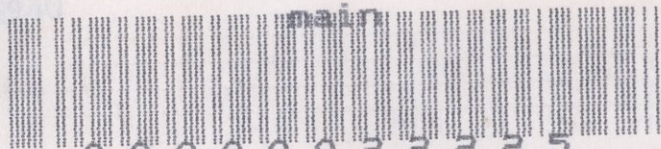
✓

193 FEB 2001

B 11932909
13244541

1987

DT
83
H2x



00000022225

DT 83 H2x 1940/c.1

